

الهيئة العامة لقصور الثقافة



me3refaty.maktoobblog.com

إبراهيم الكلاب

**** معرفتي ****

بمعلم
ابراهيم عبدالغفار المازني

**** معرفتی ****

me3refaty.maktoobblog.com

خاتمة الكتابة (١٨)

رئيس مجلس الإدارة

علي أبوشادي

رئيس التحرير

د. عبد القادر القط

مدير التحرير

مسعود شومان

أمين عام النشر

محمد كشيح

الإشراف الفني .

د. محمود عبد العاطي

المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني

رقم بريدى : ١١٥٦١

مستشارو التحرير

د. جابر عصفور

أ. محمود أمين العالم

د. محمود علي مكي

- الكتاب : إبراهيم الكاتب
- المؤلف : إبراهيم عبد القادر المازني
- الطبعة : الشعب - ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
- الطبعة الثانية : الهيئة العامة لقصور الثقافة / ٢٠٠٠ م

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الامتياز

إلى التي لها أحيا ، وفي سبيلها أسعى
وبها وحدها أعني طائعا أو كارها ...
إلى نفسي ...

« .ابراهيم عبد القادر المازني »

القسم الأول

« كل الأنهار تجري إلى البحر

والبحر ليس يملأ ... »

الفصل الأول

« وكان مساء ... »

— ١ —

شوشو فتاه يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهي ذات قامة معتدلة وجسم غض ووجه صبيح مثالي ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعية عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها في عزلة ، قلما أتيج لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيئتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك العمل الذي يدرب الفتاة عليه تنبيه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عينها بمزية : هي أن من يراها لا يحتاج أن يعدوها أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يحتلى نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها ، مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . تحديق « فيه » تحديقك « في » بر ، ولا ترونو إليه كما ترونو إلى رسم .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء إليها على فرط حسننها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبيتها هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسمعك إلا أن تجس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس إليها خمس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذي لا يدري أن في الدنيا ما يتقى ، ومن حرارة النفس الغريزة التي لم يصدمها من التجارب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التي لا يثقلها إلحاح اللحم . ويعرف من يعرفها أن لها أحيانا تبدو فيها كالألماع إلى مجهول ، أو كالتى تعتلج في صدرها خواطر واحساسات هي أغمنض من أن تتولى الكشف عنها عبارة ، أو أوجع من أن ترفه عنها دمة . ولم تكن كذلك الآن في هذه الفترة التي زخرت فيها تيارات حياتها ، والتي نخصها بالذكر .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولقت الحقول في شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدثقان في الطريق بين المزارع على حمارين ، أحدهما مسرج ملجم ، يعاني الفتى الحضري الذي يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه إلى الانطلاق في العدو ، وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط التقلقل . وثانيهما - أى ثانى الحمارين - يخطو وأدعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لا تكاد رجلاه تتحركان ، كأنما هما خشبتان مشدودتان إلى جانبي الحمار ، وكان الفتى في شاغل من متاعبه ، فقطعا أكثر الطريق في صمت إلى أن ألقت الفتى إلى رقيقه وقال :

- لم أعرف أسمك إلى الآن فهل تسمح لي به ؟

- اسمي ؟ آه ! أحمد الميت .

- الميت ؟ ولماذا يدعونك الميت ؟

فقال القروي وهو مطرق كما كان ، وعينه إلى أذني حمارة :
- لأنني مت .

فابتسم فتانا ساخرًا وقال :

- سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، ولكنى أحسب يوم النشور لا يزال بعيدا ، فكيف عدت إلى الحياة قبل الأوان ؟

فرفع القروي رأسه فجأة والتفت إلى الفتى التفاتة المغضب وقال :
- لقد قلت لك أني مت وانتهى الأمر .

فاسترسل فتانا في سخره وقال ولم تزايله ابتسامته :

- إذن من الراكب على حمارك يارقيقى ؟ أهو عفرينك ؟

فقهقه القروي وقال يطمثنه :

- عفرينى ، لا لا ! لا تخف ! أنا أحمد الميت .

- ولكن ألا تحدثنى كيف حيتت كرة أخرى ؟ ومن الذى رذك إلى الحياة ؟

..لم يردنى إلى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر .
فحملق الفتى في وجهه وهو مبهور وكف عن الكلام ، وقد دار في
نفسه خاطر لم يرتح معه إلى صحبة هذا الرفيق .
وبعد قليل قال أحمد الميت :

— ليست هذه أول مرة جئتنا فيها ؟
— بل هي الأولى . . (ثم بعد قليل) لوددت أني ماجئت !
رسكننا برهة ثم عاد القروى يصل ما انقطع :
— لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك إلى ناحيتها .
— وأنى لي برؤيتها وهذا الظلام أكشف من جلد الفيل ؟
فضحك القروى ضحكة حفلت بالقرقرة ثم أمسك فجأة وقال :
— إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر في الظلام .
فقال الفتى وفي صوته مرارة ثم على ما يكتم من الألم الذى جره عليه
نشاط دابته :

— كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطط .
ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروى بعدها :
— أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟
— كلا !

— أنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ ..
— من تعنى بأفندينا هذا ؟

— أفندينا اسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه
الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل ، ونصب على جانبيه الزينات التى لم
نرها لا قبلها ولا بعدها إلى الآن وأقام الأفراح أربعين يوما فسر أفند يتاجدا
وقال له ساعة هم بالركوب عائدا : إنى جعلتك من بيكراتى وبمكنتك بعد أن
أرجع إلى مصر أن تزورنى فى أى وقت تشاء لأكافئك على تكرم ضيافتك
وسخائك فى استقبالنا . ومضت سنون بعد ذلك لا أذكر عدها ، وفى يوم
تذكر البيلك كلمة أفندينا فنهض وقال : أنى ذاهب إليه من توى . فلما

صار في مصر مضى إلى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : ماذا تبني ؟
« فحكى له ما كان ، فقال له : « أن اسماعيل مضى وجاء غيره ، فعاد
وأخبر القرية أن اسماعيل الثاني . . »

— اسماعيل الثاني ؟ أظن يا صاحبي أن في تاريخك خطأ .
— كلا ! لا خطأ على الإطلاق ! إنها حكاية مشهورة ! وليس مثل
من يخطئ في الرواية ، أمن أجل أن كتبكم لانهوى هذه القصة تكرن
خطأ ؟ وأنا بعد لم أتمها لك ولم أخبرك بما وقع له مع اسماعيل الثالث . .
— إن هذا لا يطاق . كلا ! لن أحتمل اسماعيل الثالث . ووثب إلى
الأرض هن ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ، ومال إلى حافته اليمنى
كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن . ورأى القروي ذلك
فكف عن محادثته ، وجعل يقول لنفسه : ما أغرب هؤلاء الأفندية الذين
يجيئون من الأمصار ! أما والله لولا أنه يمت بالقزابة إلى الباشا رحمه الله . .
ويلغا البيت فنهرتهما الكلاب ، وأفرغ الفتى نباحها وهيئها
الوحشية ، فدنا من رفيقه بكرهه ، حتى كاد يدخل في ثيابه فزجرها القروي
عنه ، وصعد به السلم .

— ٣ —

قالت شوشو لقرينها بعد أن أصاب حظا من الراحة :
— تعال بنا إلى بهو السلم ، فإن الجو بديع في هذه الليلة .
— ولكن السلم يؤدي إلى الغيط مباشرة بلا حاجز ، و . . . والكلاب . .
— آه الكلاب ! أتخافها ؟ انها لن تؤذيك . . تعال . . تعال . . أصبح
أن تكون أضعف مني قلبا ؟
فمضيا إلى البهو وجلسا ، ثم شرعت فتاتنا تنادي : « مرجان ، بخيت .
مرزوق » فعجب الفتى وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لا تتعبي الخدم
يا شوشو بلا داع »

والتفت فإذا ثلاثة كلاب تصعد بسرعة على السلم وتقبل عليها وتتوثب .

حولها وتمسح بثوبها وتحرك أذناها وتلحق حداثها ، فأشارت إليها فريض واحد إلى يمين الفتى ، وثان أمامه ، والثالث إلى يساره ، وعادت هي تحدث قريبها حتى عرضت مناسبة ، فنهضت وأخبرته أنها ستغيب عنه برهة قصيرة ، ولم تنتظر أن تسمع ما هم أن يقوله إذا صح أنه فتح فمه ليتكلم ! وتركته .

فأسلم أمره لحظه ولها تيك الكلاب ، وجعل يلاحظها خلسة ، وشامت بعوضه أن تلذعه في جبينه ، فرفع يده ليزبها ، فرفعت الكلاب الثلاثة رءوسها وزامت !

فحط ذراعه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذي كانت فيه ، فهم بتحريكها فعادت الكلاب ترفع رءوسها وتزوم ، فتركها مكانها . وكثر البعوض فجأة ، وتوالى الإحساس باللدغ في الوجه واليدين والرجلين ، وهويتجلد إشفاقاً من هذه الكلاب الضارية ، حتى تجاوز الأمر الطاقة ، وكاد يذهب رشده فصاح - وهو مسمر في مكانه ، ومن غير أن تتحرك شعرة في جسمه : « ابعدوا عني هذه الكلاب ، والا قتلت وتركها ! تمزقني » .

وفي هذه اللحظة فتحت نافذة مطلة على البهو ، وظهرت منها شوشو مستغرقة في الضحك .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الثانى

« وكان صباح ، يوما واحدا »

قضى فتانا إبراهيم — وهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم إذا استثنينا حلما قصيرا ركب فيه جوادا بلا لجام جمع به فى طريق وعر ، ينحدر على أحد جانبيه نهر جاش ، وتعترضه فى بعض المواضع أقنية تختلف ضيقا وسعة ، عليها ألواح من الخشب ، وقف الجواد الخبيث فجأة ، فوق واحدة منها وأهوى برأسه وقادميته إلى الماء ليشرب !

وبدأ الصبح بأصوات العصافير ، ثم نهض ولبس حذاءه ومعطفه وطرבוشه ، وخرج متسللا كاللص . وكانت السماء غائمة ، والجو مطلولا لا تخلص معه الأنفاس . وكان هو يكره الرطوبة ويتقيها ويشفق من عواقب التعرض لها ، وكثيرا ماثلته عما يقصد إليه ، ولكن منظر الحقول فى هذه الساعة قبل طلوع الشمس ، والضباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئا فشيئا عنها — وهو منظر لا عهد له به — أغراه بالمضى فانطلق على غير هدى ، حتى وقف على ترعة صغيرة نزره الماء ، تكسوا الحشائش جانبي مجراها ، ويفترش الماء فى قاعها بساطا سندسياً ليناً . وجعل ينظر إليها تارة ، ويدير عينه فى الحقول المستوية تارة أخرى . وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر إذا اجتمعت ، كما هى الآن ، أحالت الحب فى النفس الحساسة قلقا ، وهوت بالامل إلى الشك ، وهبطت باليقين إلى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع إلى سعى . ذلك أنه كان أمامه — على قدر ما وسعه أن يرى — هذه التربة السوداء ومن ورائها مثل الجدار القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم ، وبعضها زرع لا يدرى أى شئ هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى زايله منذ لحظة . وكل

ما حوله أشكال ليس لها معارف — كاللهم المسيح — توحى إلى النفس أى شئ ، ولا تنطق بشئ ، إذ كان الضباب لا يزال يكسوها ثوباً يزيد لها فى رأى العين والقلب عرياً وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة بحس المرء أنها تهيم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتتلقاها فى الغرب السحب ، فأطراف المنازل ، والأكواخ والنوافذ وروعوس الأشجار ، فلاغصان النابتة على وجه الأرض فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة ، لامن فم آدمى .

وأحسن لطول ما وقف ، بالبرد يسرى من قدميه إلى سائر بدنه ، فثنى خطواته إلى الدار ، وما كاد يفتح الباب المؤدى إلى الجناح الذى أفرد له ، حتى طالعت زنجية لامعة الجلد ، منتفخة الأوداج ، كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقة الأسنان ، واسعة العينين حمراؤهما ، قد غرز رأسها المعضوب بين كتفها غرزاً ، واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً ، وأما خصرها — إذا جاز أن يسمى هذا خصرأ — فهضيم جداً ، حتى كأن ما نقص من هذا زيد فى ذاك ، ويلى الخصر ردقان ثقيلان تحتكما ساقان قصيرتان كالقمعين فكأنهما زير عليه أبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقب ، والمرء بأيسر مجهود من الخيال يستطيع أن يتصورها متككة .

فابتدرته الزنجية بقولها :

— أين كنت يا سيدى ؟

فلم يرتح إبراهيم إلى هذه المفاجأة ، ولم يسره لونها الأسود البراق بعث ذلك الضباب الذى لبث فيه . وكان من أثقل الأشياء على نفسه أن يجان عن روحاته وغدواته ، فقال لها :

— أين كنت ؟ وكيف يعينك هذا ؟

— لقد أزعجتنا نجداً يا سيدى ، ولم نخطر لنا قط أنك قد تخرج فى مثل هذه البكرة المطلولة ، فخرجت ماذا تصنع .

— لعلك لم تقلقى أحداً من أجلى ؟

— نعم ، أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذا بالله ؟ أتريننى طفلاً أم أنا هنا سجين ؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يفضبه سؤالها وإشفاقها عليه ،
وأفزعها نظره أكثر مما أفزعها لهجته ، فرمت بعينها إلى الأرض
وأخذت تنتم :

— لا .. لا ياسيدى . عفوك ! إن هذا بيتك ..

— من قال لك أنى فى بيتى يضرب على نطاق من الخدم ؟

— أنا .. أنا .. لا ذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام
أن أخبرها ..

فلم يمهلهما حتى تم كلامها ، وصاح بها وقد تملكه غضب شر ما فيه أنه
يعلم أن لا داعى له :

— إذا كانت سيدتك هى التى شاءت أن تسد فى وجهى الأبواب ،
فسأرحل هذا النهار . نعم لا بد من السفر ، فلست أنوى أن أعصب رأسى
وأسدل على وجهى قناعاً !

ودفع باب غرفته بعنف ، ودخل وهو يتم بصوت يزيده تهديجاً شعوره
بأنه مخطئ فى غضبه ، وأنه تهرر بلامسوخ . وشرع يعد حقيبه
ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ، ونسى أن للسجن أيضاً
قيودها .

ولم يكن صاحبنا إبراهيم قد بلغ سن الفلسفة ، أو إن شئت فقل سن
التبلد أو الخزم أو ما تحب غيرهما ، وأن كان بطبعه لا طباشراً ولا قليل التؤدة
وكان من ذلك الطراز الذى نستطيع أن نقول أن الله وهبه كل شئ ،
إلا القدرة على الإنتفاع بالحياة والتوفيق فى الدنيا ، وأن يكن أشبه بالنساء
فى المرونة وسرعة التكيف . وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد

عليها ، ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والقتحم على الناس . وفيه أنفة كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة . وقد غلب عليه « الكاتب » وصار لقباً له وعلماً عليه ، كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن مزيته الابتكار أو العمق بل أنه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يحلوها في أحسن معرض ، وإلا استطاع — إذالم تكن مما ابتكر — أن يضيف إليها ويزيد عليها ما ليس دونها . على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه في بنفسه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها ، ولكنه قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الحذر ولا سيما مع النساء اللواتي لم يألّف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لمن كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع ، وأن جمالها ليس إلا شركاً تنصبه الحياة ويحسن كثير أن يتجنب ، وأن الرجل أجل من المرأة على العموم ، لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتننة — كجمال المرأة — من الغريزة النوعية . وكان سلوكه إزاء المرأة مظهرأ لرأيه فيها ونعنى أنه كان يعدها مخلوقاً جديراً بالعطف والمداعبة في غير ضعف وبدون أن يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة إلى حد كبير تكون

في جسم ضئيل هزيل لا يحتمل شيئاً ! فقد كان صاحبنا قصيراً ضامراً الجسم دقيق العظام واهى التركيب ، وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التي انطوى عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة ، وعينه الواسعتان الحادثتان ، وهامته المستطيلة القوية ، وأنفه الكبير الأقي ، وشفته المقوسنة الغليظة بعض الغلظ . على أن قوته تنحصر على الأكثر في جبهته وعينه . ولم يكن يخفى عليه هذا السر فكان يبلغ بنظرة يسدها ما لا يبلغه الرجل الضخم بالعصى في يده . ولكنه كان على ذلك رضى الطباع ، دمث الأخلاق ، سريع الفهم إلى الرضى . ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ، ووقفت خلفه وهو مشغل

بترع غطاء حقييته ، ووضعت كفها على عينيه ، فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

- آه . شوشو !

- نعم أنا شوشو . من كنت تحسبني ؟
فاحمر وجهه الأسمر قليلا وابتنسم .

وكانت لآخر عهدها قبل عام طفلة ألفاها في هذه اللقطة امرأة بارعة الشكل
ممشوقة القد ، تغترف العين بشارتها وترتاح النفس إلى نضارتها : سوداء
العينين عميقتهما ذهبية الشعر ترسله أمواجاً على كتفيها ، بيضاء مشرقة ،
احمرء الخدين قرمزية الشفتين ليلتهما . عينها نار ، ولحظها حب ، وصوتها
تغريد ، وقوامها أتم ما يكون استواء وصحة وعزماً ونشاطاً ، وحركتها
مملوءة ظرفاً ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، ذائبة حيناً ،
متدللة متجبرة أحياناً ، ساخرة طورا ، وطورا ساذجة غريزة ، جميلة
في كل حال . وقالت وهي تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

- دعني أخرج لك ما تريد من الثياب . أن هذا عمل النساء
لا الرجال . أصعد أنت إلى « فوق » فأنهم ينتظرونك ليفطروا معك
وساعد لك كل شيء .

- ولكنك لا تعرفين ماذا أبغى ؟

- أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر مني ؟ أنك

كالطفل الصغير يحتاج حتى إلى من يلبسه الخورب ! .

فلم يدركت وأعرفت وتجاهلت أم هي لا تعلم شيئاً مما حدث ، وكانت نفسه
قد سكنت فأثر أن يطوى الأمر ، وبدا له أن هذا خير ما يمكن أن يصنع ،
وقال مغالطاً : « ولكني لأعرف من أين أصعد » .

- إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود إلى هذه الحقيقة : أليس كذلك ؟

- نعم .

- هيا أذن .

ووضعت كفها على كتفه اليماني وجعلت تطفر إلى جانبه وتتواثب
كالفراشة .

الفصل الثالث

« كل لتكون فيك قوة . اذ تسير في الطريق . »

صعد إبراهيم وشوشو - أم ترى ينبغي أن نقول شوشو وإبراهيم ؟ - إلى غرفة الطعام فألفيا حول المائدة « نجية » كبرى اخوات شوشو ، وابنيها . وهي سيدة جميلة الوجه ، ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معدة - وما لنا لا نقول « كرشا ؟ » تمشى أمامها . ولها إيمان راسخ بالمشائين في الظلام ، ونعني بهم الشياطين والعفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين ، غير إن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء ، وأكثر ما تدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم ، وما أقل من لم تقل له « لاشك أنك رأيت عفريناً . لقد رأيتهم أنا بعيني هذه مرات عديدة في البيت وحوله . ولكنهم لا يؤذونك إلا إذا كلمتهم أو تعرضت لهم »

وللعفاريت معها حادثة لا تكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة . وتلك أنها فيما مضى من الزمن وفي مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل إلى حاجتها واستصحبته معها خادمتها فاطمة الزنجية التي عرفتها في الفصل السابق ، فلم تكذببلغ الحمام حتى سمعت وقع حوافر المعيز صاعدة ونازلة على السلم ، وعابثة في المطبخ ، فصرخت وعادت تعدو إلى غرفتها ولكن زوجها أبى أن يصدق أو يلتفت إلى سبب فزعها « فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التي كانت في المطبخ مكسرة ، ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك يأبى ابن عمي (أى زوجها) أن يصدق ! » .

وتضرب بطن يسراها على ظهر يمانها فوق كرشها الكروية ومن أجل هذا تعنى قبل الذهاب إلى مخدعها بأن تمر بغرفة بنينا ، ومن

تكون في ضيافتها من أخوانها ، وأن تمسح رءوسهم وتتلو آية الكرسي ثم
تستودعهم الله وتمضي .

وهي من الطراز المحافظ الذي يستنكر كل جديد ويعده بدعة يجب أن
يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت في رمل الأسكندرية
مد إليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أعيأها
الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الأباء أن تدخلها غرفة نومها !
فرأى زوجها أن يرضيها بهذه التضحية الصغيرة . ولا يزال البيت تضيئه
الكهرباء إلا هذه الغرفة التي بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر . وجهاز
زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا ، وأصرت على الاستحمام
في « الطشت » وأهمال الحوض !

أما التليفون فله في بيتها بالرمل عشر سنوات ومع ذلك لا تعرف كيف
تستعمله ، وتقول شوشو عنها أنها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل ١٥ » بدلا
من الرمل ١٥٩ مثلا !

ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام ، فأصبح الناس
من يلتهم التهاما ويأتي على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غدا . بل قيمة
المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكبار الأكل البطين أما من يأكل بقدر
أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جله الشيب
وقوست قناته السنون أو الحادثات . وأثنى ما تهديه من النصائح إلى المريض
أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل » هذا عندها الدواء من الحمى
والمنص والصداع النخ . ولا تصدق الأطباء فإنهم يمتنون الناس قبل أن تفرغ
آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر في عينها صاحبنا ابراهيم وإن كان لا
قد ناهز الثامنة والعشرين وماتت له زوجة وبنون لم يعيش منهم إلا واحد .
وجعلت تسأله على الطعام عن صحته ، وعن العملية الجراحية التي أجريت
له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذي
أقام به حتى شفى وتقول : « يا ابن خالتي ! كيف رضيت بالبنج ؟ » .

فيقول : « وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك ؟ »
فتهز رأسها غير مصدقة ، وتسال : « وهل كانت العملية ضرورية ؟
لقد لبثت لا أنام منذ علمت بخبرها ، حتى طمأنني ابن عمي وأنبأني أنك
خرجت من المستشفى ، ومع ذلك لم أطمئن تماما إلا بعد أن علمت أنك
أت الينا . وكيف صحتك الآن ؟ »
— كما ترين ، حسنة .

— لقد كان دخولك المستشفى حماقة ، فكر .. أن المستشفى كالمجزرة
ولا بد أنه مملوء بالعفاريت .

— لا . لا . لا عفاريت ولا ..

— كيف يمكن ؟ الدم .. والذين يموتون فيه . أن بيتنا هذا جديد ،
ومع ذلك فيه عفاريت . ولو كان زوجي هنا لقص عليك كيف تطاع وتنزل
كالعيز على السلم الخشبي .
فقاطعتها شوشو قائلة :

— إن ابن خالتي ينام وحده في ذلك الجناح ، ولا يحسن أن يعرف
هذه الحكاية التي سمعناها مائة مرة .

فقال ابراهيم : « دعها يا شوشو تقصها ، فإن سير العفاريت لا تفرغني
ولكم تمنيت أن يظهر لي عفريت ! ولكم سرت عمدا بين المقابر في الظلام
الحالك ، آملا أن أرى واحدا . »

فصاحت به بنجية : « ماذا تقول ؟ أمجنون أنت ؟ » .

فلم يغضب إبراهيم لأنه كان أعرف بها من أن يشيره كلامها ولم يزد على
أن قال لها :

— وما الضرر ؟

— الضرر ؟ أحذر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان أحمد خادمتنا عائدا
على حماره من المحطة في بعض الليالي ، فلما دنا من البيت وقف الحمار

بغته ، ونشر أذنيه. وأدار رأسه ، ونظر أحمد فإذا الطريق قد سده مارد
ولكن الله ألهمه أن يتلو آيات من كتاب الله ، وأن يستحث الحمار فنجا
ولم يكده . فحاذر أن تخرج في الليل وحدك ! إنك لست في مصر ، ولا
آمن عليك أن خرجت ، وسأمر الخدم أن يخبروني كما هممت بذلك !
يجب أن تعود سليما إلى بيتك .



وكانوا قد فرغوا من الطعام ، فضت به شوشو إلى غرفة أخرى ،
وجلست إلى جانبته تستخبره عن المستشفى ، وكيف كان يقضى لياليه فيها ،
ومن كان يؤنسه في وحدته ، وكان يوجز ما استطاع في أجوبته ، وتأبى
هى إلا الإطناب وتلح فيه :

— قل لى . قل بالله (وأحاطت عنقه بذراعها اليمنى) أكنت تقضى الليل
كله وحدك ؟

— نعم :

— ألا يجالسك أحد ؟

— الزوار :

— وإذا لم يزرك أحد ؟

— أنا أحب الوحدة .

— ولكن هبني كنت مكانك : فأنا لا أحب الوحدة ولا أطيقها .

— هناك المفروضات .

— آه . أهن شابات أم عجائز ؟

— لا أعرف إلا المستشفى الذى كنت فيه :

— حدثني عنه إذن ! لماذا لا تتكلم ! أن هذه ليست عادتك ! أهنالك

شئ لا يصح أن أعرفه ؟

— كلا .

— إذن لماذا تأبى الكلام عن المستشفى ؟

— لأنها ذكرى . : تؤلمنى .

— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك؟
فصمت قليلا وقال وهو مطرق : « لأدرى ! »

فاعتدلت ونظرت اليه بعينها العميقتين ، ووضعت يمينها على جبينه ،
ورفعت رأسه وسألته : « كيف لاتدرى ؟ لست أفهم ! »

فقال وجفنه مرخى ، ونظرته الى الأرض ، وأصبعه ينفض السيجارة
شوشوا اسمعى ! انك لاتزالين صغيرة .

كلا ! لست صغيرة ! أنا أطول منك . أما ترى .

ونهضت ورفعت أطراف كفيها الى كتفيها ، وعيناها الى صدرها
ثم هوت بيديها الى ركبتيها ووضعتهما عليهما ، وانحنت اليه ، وحدقت
فى وجهه باسمه ، وهمت بالكلام ولكن هيئته صلتها ، فأسرعت الى
مكانها بجانبه وجذبتة من كتفه وقالت :

— مالك ؟ قل لى !

— فقال وهو منحن الى الأرض :

لاشئ اطمئنى ! كل شئ . . .

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى الى النافذة ويداه فى جيوبى معطفه ، وجعل ينظر
من خلال الزجاج دون أن يرى شيئا ، ولحقت به ووقفت الى يساره
هنيهة ، فلما لم يلتفت اليها طوقته بذراعيها وقالت وهى تجذبه جذبة
بعد كل كلمه :

— ابراهيم ، ابن خالتى ! مالك ؟ ما تنكلم ! لست أفهم !

— ربما كان خيرا لك ألا تفهمى .

— فأدارت إليه وجهها وقالت :

— ولكنى لا أستطيع أن أراك هكذا ! ألسنت بنت خالتك ؟ أم أنت

تستصغرنى ؟

— كلا يا شوشو .
— قل لى إذن ولا تدعنى أنألم من أوجاك هكذا بسبب جهلى ما يؤملك .
— ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشفت
ولكنى خرجت بمرض جديد شر ما فيه أنه لا طبيب له إلا . . .
— إلا من ؟ قل أسرع !
— لا أقوى على أكثر من هذا يا شوشو . بل أقول أنى ما أتيت إلى
هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على ما يظهر .
فجرى ببال شوشو خاطر نحت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة
على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمم :
— أ . . . ساحنى ولكن أنت فى حاجة إلى . . . ما ..
فالتفت إليها بسرعة وقلب أدرك غرضها ولم يدعها تم الكلمة وصاح
وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم :
— يا بلهاء !
وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مهوطة واجمة تحملق فى أثره
وفى مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيغته هذه تمثالا للبلهية .

الفصل الرابع

« الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال
اذهب الى جبل المر والى تل اللبان . »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى في هذا التاريخ — أو في هذه الفترة من حياة صاحبنا ابراهيم — نذكر راجعين بالقارئ بضعة أسابيع لنجمل ما عساه يكون مشكلا مما أسلفنا قصه في الفصل السابق . وهى أوبة تردنا إلى أيام عشرة قضاها في مستشفى لا حاجة بنا إلى اسمه إذ كنا لن نعود إليه مرة ثانية ، وكانت طلبتنا عنده قد زابلته . وكان كبير الأطباء صديقا لابراهيم فأوصى به الخدم والمرضات ، وأطلق له الحرية في استقبال الزوار ، وأمرهم أن يتوخوا في ذلك مرضاته . وكان هذا شرط ابراهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية ، فقبله واكتفى بأن ينهه إلى وجوب الاقلال من تقبل الزيارات في الأيام الأولى على الأقل .

وفي صباح اليوم المضروب للعملية ذهب ابراهيم وحده إلى المستشفى دون أن يخبر أمه أو ابنه .. وهما كل أهل بيته إذا أسقطنا الخدم — كأنه ماض إلى عمله . وتقدم إلى غرفة الجراحة يجأش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة — ولكننا نقول غير مكترثة لما عساه أن يكون . ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقدارا كبيرا من الكلوروفورم ، فإنه لم يكده يغسل يديه حتى كان ابراهيم قد فتح عينيه وأفاق إلى حد كبير ، فحملوه وهو متنبه ووضعوه في سريره وتركوا إلى جانبيه ممرضة تعنى به ، فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولا يصنع أكثر من أن يدير عينيه في السقف والجدران أو يرفع يديه من حين إلى حين ويمسح جبينه لغرض واحد هو أن يثبت لمرضته أنه مفيق . وهى تحدج به بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تعجب لجلده ، ثم لفت وجهه فجأة وقال : « ما أسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادى بل كان أشبه بحركة متوجع .

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر أن يسألها عنه ، فلم تجد
الجواب حاضرا وتلعثمت وهي تخبره أن اسمها « ماري » وحول وجهه
عنها قبل أن تنطق وعاد إلى صمته ، وكأنما توهمت أنه لم يسمع ونخشت
أن يسرعه حسبانه أنها لم تجب أو كأنما ملت طول الصمت الذي ألزمها
إياه - والصمت أشق على النساء منه على الرجال - قالت إليه وخت
عليه وكفاهما على السرير لتعتمد عليه وقالت :
- أقول إن اسمي ماري .

فتصلبت عضلات وجهه وانزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيهة
قبل أن يقول لها : « نعم سمعت .. أرجو ألا تضعي يدك على الفراش فيتحرك .. »
مؤقتا على الأقل .. » .

فرفعت يديها بسرعة عن السرير وقد أدركت أن صمته تجلد وأنه يكابد
من الألم ما يود أن يكتمه لسبب ما ، ونهضت وقد حدثتها نفسها أن خير ما
تحسن به إليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضا إلى ما نخطر لها فأومأ إليها
بعينه فعادت إلى كرسبها فقال :

- هل تعلمين أن أهلي يجهلون أني هنا ؟

- كلا !

وبدا عليها شيء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى
هو في كلامه فقال :

- أرجو أن تغتفري لي ما أنا قائل . إن وجودك معي الآن على الأقل
لا يكاد يجديني . وأنت في الخارج أنفع لي منك هنا . كم الساعة الآن ؟ .
- التاسعة والرابع .

- لا يزال إذن في الوقت فسحة . إن أخى على موعد معي هنا . وهو
لا يعرف شيئا مما حدث ولا يتوقعه . وكل ما أطلعت عليه هو أني سأعرض
نفسى على الدكتور .. وأنى أحب أن يكون معي . وسيحضر بعد قليل .

والآن افتحى الدولاب وناولينى الورقة التى فى الجيب الأيمن من ستري ..
أشكرك .. متى جاء أخى فأطلعبيه على الحقيقة وهونى عليه الأمر ما اسقطعت،
وإذا طلب أن يرانى فقولى له إنى نائم — فإنى أخشى أن يكثّر من الأسئلة
الفارغة البلهاء .. وأكدى له أنى كذبت هذه الورقة بعد أن أفقت من العملية
وزال عنى ألمها وذلك ليطمئن قلبه — إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض
الأوقات ضروريا واطلبنى منه أن يعمل بما فى الورقة حرفيا .. أحسبني
تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن أعتد على ذكائك وحسن تصرفك ؟
فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل
أن تنصرف حاجة أخرى ؟

— نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبيرنى بما فعلت . ويمكنك أن تقولى
له إنك آتية لترى أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع
أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوقى مالا أود حدوثه .

— ٢ —

وجرى كل شئ على ما رسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله
وخاصة خلصائه ، ووحدة طويلة تتخللها فترات جعلت تطول شيئا فشيئا
تؤنسه فيها مارى بمحضرها وجديتها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية
الأصل وأنها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سوريا ثم تزوجت
شابا إيطاليا جاء بها إلى الإسكندرية ولبت معه ثلاث سنين قضى نحبها بعدها
ونخلف لها طفلا ، فزاوت الحياكة أولا ثم التمريض وها هى ذى إلى
جانبه .

ومن العسير أن يصف المرء « مارى » هذه وصفاً دقيقاً . ولعل من
المستحيل أن يستطيع المرء وصف إنسان ما على وجه الدقة . ولكن من
الممكن أن نقول — ومن الممكن أن يصدق القارىء — أن مارى كانت

تبدو في بعض الأحيان جميلة وفي البعض الآخر غير جميلة تبعاً لمآلاتها
الصحية والنفسية . وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجسماني أنها
ذات ربحه ناطق دقيق المعارف ، وأن لونها أقرب إلى الشحوب ، وأنها
ضامرة الجسم ، وأن من يراها يخيل إليه أنها ظمأى كالعود من الزهر
انقطع عنه الماء ، وأنها لو سقيت هذا الشراب ، الذي تقرأ في عينيها
ولونها التياجها إليه لربت واهتزت . والمرء يستشف في وجهها النزوع
إلى انتظار رأيك قبل أن تفضي إليك برأيها — وإلى انتظار عمالك أيضاً
على الأرجح قبل أن تقدم هي على عمل . ومما أكد هذه النزعة فيها ،
مزاوتها مهنة التمريض . والمستشفى كما يسهل أن يدرك القارئ — أشبه
ببقعة معزولة عن العالم أو منتزعة من أحشائه ، يكون فيه التفكير أكثر
من العمل والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجري التفكير فيه ، حين
يجرى ، إلا في دائرة ضيقة ، وقلما يؤدي إلى نتائج خيالية . ولكنه على
ذلك مسرح تمثل عليه روايات تداني في جلالها واتساقها ووحدة أحيانا ،
خارجيات سفوكليس وشكسبير ، ويساعد على إكسابها هذه المزايا ،
تركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوانات على بعض .

وقد خلق إبراهيم عطوفا أليفا ، سريع الإحساس بالجمال ، ليس
أقوى من نفسه من عواطف الأدب والحب ، وخلقت ماري سمحة النفس
رضية الطباع ، حساسة كالوتر المشدود . وشاءت المقادير أن يتشابها
فيما وقع لهما ؛ فهو فقد زوجته وهي فقدت بعلمها . وكل من الفقيرين
خلفا وراءه طفلا ، وفي كلتا النفسين ذلك الحنين الممزوق الذي خلفه
موت الفقيد ، ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لأعجه . وكان
إبراهيم على حياته ، لا يكاد يألف إنسانا حتى يفتح له قلبه ، ويرسل
معه نفسه على سجيته ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان
صاحب فكاهة وعي ، وما عرفته امرأة إلا أعجبها منه ما فيه من
الدعابة ، والفكاهة من أقصر الطرق إلى قلوب النساء ، فلم تمض إلا

خمسة أيام حتى كان إبراهيم قد تعلق بمارى ، ومارى قد شغفت بإبراهيم ، وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، - إذا صدقت الظواهر - وما أكثر ما تلاقت شفاههما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المنزوى ، الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد أن أراح المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات . غير أن الإرادة التى وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ، ففطن إبراهيم إلى مافى علاقتهما من الجرج وأدرك أن الأمر يوشك أن يقلب مشكلا . ورأى أنه لا يستطيع أن يرضها زوجة ، وأنها تطمع فيما هو أسمى من مرتبة الخليفة ، وهبها لم تطمع فإن ذلك لا يحل لمشكل حياته ، ولا ينيله مأربه ولا يبلغه ما يتمنى من السكون إلى الحب المنزلى الذى لا يعدل به شيئا ، فخطر له أن ينأى عن القاهرة زمنا عسى أن تطيب نفسه عنها ، وأن تروض هي نفسها على بعده . ولما لم يهده التاكير إلى خير من ذلك ، صمم عليه وشرع فى إمضاء هذا العزم من توه .
والتمنيا ليلة سفره وتترها قليلا ولما آن أن يفرقا سأله :

- متى نلتقى غدا ؟

- ليس غدا .

فقلت وهى تبسم ولا تدري ما عقد النية عايه : « ماذا يشغلك عني يا براهيمو ؟ » وكان براهيمو ، أسمه عندها تناديه به حين تداعبه . فأجابها وهو يتكلف الابتسام :

- يشغلنى أنى مسافر .

- مسافر؟؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟

- أوه ! لا إلى مكان معين . سأنتقل من بلدة إلى بلدة . ومن

قرية إلى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

- وما داعى ذلك ؟ متى عزمتم عليه ؟

- لا داعى له إلا أن دكتورك أمرنى به وألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها
وحلقت في عينيه وقالت :

— إنها إرادتك أنت لامشورة الدكتور ! لا تمار ! إني أعرفك !!
فلم يزد على أنه ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكثرث
لما لظن به ، فسأل ماتجمد في نظرها ولانت عضلات وجهها وبدا فيه
الضعف ، وأمسكت بكتفه وقالت وهي تهزه ولاتعياً بمن عسى أن
يراهما من الناس :

— لا لا ! لا تذهب ! قل إنك باق !

فرفع كفيها عنه في رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها ، وإن لم
يكن في كلامه ما يعين على ذلك :

— ولكن هذا مستحيل يا ماري ! لقد أبرقت إلى بعض أقاربي أنبئهم
باعتزالي السفر غدا وأطلب أن يرسلوا من ينتظرنى .
— أبرق إليهم مرة أخرى بعكس ذلك .
فهز كتفيه وقال :

— وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد إن لم أسافر غدا ! فالرحلة لا بد
منها على كل حال .

وهم أن يدعوها إلى التمشي قليلا ليسرى عنها ، غير أنه عاد فرأى
أنه من الأحزم والأجدي أن ينتهي الوداع حيث هما . فاكتفى بأن يهون
الأمر عليهما — وعلى نفسه أيضا — ببضع كلمات ، ثم ربت لها ذقنها
بأطراف أصابعه وسلم ، فقالت بعد أن تلفتت يمينا ويسارا كأنما
كانت تحدثها نفسها باختلاس ضمة : « ياله من حلم قصير » .
وكان قد خلى يدها ونأى خطوة فقال :

— لا لا ! لا تقر لي هذا يا ماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حسن وقع ذلك
في نفسي قبيل سفرى !

فنبهها ذلك فدنّت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان .
أما هو فسلم مرة أخرى وشررها بيده وهو يبتسم ولم يجب !

الفصل الخامس

« قلت اكون حكيما اما هي فبغيدة عني »

رجع بنا الحديث إلى الريف ::

بعد أن انطلق إبراهيم من الغرفة التي كان فيها مع شوشو وخرج منها مارقا كالسهم ، انحدر مسرعا إلى غرفة نومه واستلقى برهة على « كنبه » فيها وأغمض عينيه كالذي يريد أن ينام ، وما به من نوم ، فكر أمامه تخيلته كل ما وقع له مع « ماري » مما قصصناه وما لم ننقصه في الفصل السابق ، فعاوده الحنين إليها والأسف على فراقها والألم لما خلفه لها ، ولم يكن إبراهيم ممن يحبون أن يخذعوا نفوسهم وينحلوها من المزايا ما عطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيباً إلى النساء مرموقاً منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحسن بالجمال ، وأحسن تقديراً له ، وأشد شعوراً بمواطن الضعف في نفسه ، وأفطن لعيوبه من أن يتأق له أن يغضي عن هذه العيوب وألا يكثر لها ، أو أن يذيعها عن عينيه ولا يدعها تبرز وتوجب مزاياء ، ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « ماري » متلهية عنه بكل ما يعدها صباحاً وجمالها له ، ومن هو إبراهيم حتى تشغل نفسها به ونشيع بوجهها عن الدنيا من أجله ؟؟ أن صباحها الذي ألفت بها حرارته بين ذراعية خليق أن يلتقي بها بين ذراعي سواه ، ولن تعد رجلاً يكون أفق منه وأوفى أيضاً ! وأي حق له عليها بعد أن آثر أن يطرحها ويفر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة لتخلص أنفاسه قليلاً ، وكانت نافذته تطل على فناء خلقي رحيب ، بعضه - وأكثره - بستان زهر وشجر باسق ، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والأرانب وغيرها ، وحوله سور أسفله مبنى بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالحصير ، ليحجب من يكون في الداخل

من عيون المارة . وفي الجنوب باب للخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً إذا شئن ، وكذلك من الرجال الذين يمتنون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة . ورأى إبراهيم الخدم يدخلون ويخرجون ، وحديد الباب يلمع في ضوء الشمس فأدرك أن دهانه جديد ، وراقه أن يراقب الداخلين والخارجين وما يصنعون إذ يفتحون الباب أو يغلقونه ، ومبلغ التفاتهم إلى الدهان ، وعنايتهم باتقاء تلويثه لأيديهم أو ثيابهم . فلم يجده الرجال — وكانوا قائلين على كل حال — يتفاوتون تفاوتاً يذكر ، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً أما النساء فكان أكثر اختلافاً : جاءت أولاهن — أو أولى من أبصر منهن — في ثوبها الأسود الذي يكنس الأرض وراءها وذراعاها مشنيتان إلى صدرها وعموديتان عليه ، وكفاها مفتوحتان كأنما تريد لتتقى بهما شيئاً ، فلما بلغت الباب دفعته براحتها ودخلت وكأنما أحست أن شيئاً لصق بهما فنظرت إليهما وصاحت « يوه » ووقفت مكانها حائرة ، ثم كأنها لم تدر ماذا تصنع فجعلت تتلفت يمنة ويسرة ومضت إلى أقرب رجل أخذته عينها لتستشير على الأرجح ، ولم تصوب نظرها مرة واحدة إلى ثوبها لترى ماذا أصابه ! وبعد قليل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب منحنه جنبها ودفعته بكتفها ، ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التي ارتسمت على ذراعها مما يلي الكتف ! فرفهت هذه المناظر وأمثالها عن نفس إبراهيم ، وانبسطلت أسارير وجهه ولمعت في عينيه ابتسامة خفيفة ، وإنه لمشرف على هذه الصور وإذا بصوت من وراءه يقول : « خالى ! شوشو تسأل عنك ! » وكان المتكلم محمد ابن نجية . وهو وأخته يدعوانه خالهما اختصاراً ، فالتفت إليه كالمفيق من حلم أو كأنما كان قد توهم وهو مطلق من النافذة أنه مشرف من السحاب ، فلما سمع الصوت الذي يناديه أحس كأنما هبط إلى الأرض . ولكنه إحساس لم يطل ، فتناول المصبي ورفعه إليه وطبع على فمه قبلة أبوية وسأله : « أين هي ؟ » فقال الغلام : « في غرفة الاستقبال »

ويظهر أن إبراهيم استغرب هذا فصمت قليلاً كأنه يفكر ثم قال :
« حسن قل لها إنى هذا لا أصنع شيئاً ، فلتأت إذا شئت » .

فخرج الغلام يعدو ، ومشى إبراهيم إلى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه . وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير في كل ما يرى أو يسمع ، ومن عادته إذا خلا بنفسه ولم يرغب في المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشئ محاورات وأحاديث . فجعل يفكر في قول الصبي أن شوشو في غرفة الاستقبال : في غرفة الاستقبال ؟ لقد تركها هناك ! فهل تراها لم لم تبارحها . وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها منذ غادرها ، وامتدت يده إلى جيبه مدفوعة بحركة لدنية وأخرجت الساعة ، وتأملها واكده لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر إلى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت في هذه الغرفة . ولكن لماذا تبقى في الغرفة وحدها ولا ترايلها ؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة ! أتراها ساء ما بدر منه ؟ ربما ! بل لا شك في ذلك فإنها فتاة متعلمة مهذبة ولا بد أن يكون قواه لها « يابلها » قد حزن في نفسها ، وانطلق يلوم نفسه ويعنفها ويستهنجن شكاسة طبعه .

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم إليها باسماً كلتا يديه وقال :
— أعتذر إليك يا شوشو ! ساعيني ! لقد أسأدت إليك وكان ذلك سوء أدب مني بلا ريب ، فهلا تغفرين ؟

فتناوأت كفيه في كفها وجذبتهما إليها وفي عينها نور البشر وحول ونجها كالهالة ، وقالت وامالت رأسها إلى كتفها اليسرى : « تعتذر إلى ؟ مم بالله ؟ هيه ؟ تعالى هنا » ومضت به إلى الكنبه : « قل لي ماذا كنت تصنع وحرك هنا ! أترك جئت لتقضي الوقت كاه في هذه الغرفة ؟ اسمع ! سأغلقها بيدي بعد أن تستيقظ من النوم واحفظ مفتاحها معي ولا أسمع لك بدخولها إلا وقت النوم أفهمت ؟ » .

فأعدها بشرها وقال وقد شاع في كيانه السرور : « فهمت وسعدت » .

وأطعت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت في غرفة الاستقبال وحده ؟ :
فدفعت رأسها إلى الوراء قليلاً وهزتها كما يفعل العصفور بعد أن
يشرب وقالت : « أنا ؟ أوه ! لا شيء ! وماذا حساني أفعل وأختي تأتي إلا
أن تعدني ضيفة ولو أقمت معها العمر كله ! » :

وفي هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل ، فأصغى
إبراهيم أما شوشو فنهضت إلى النافذة وأطلت منها ثم التفتت إلى إبراهيم وهي
تقول : « الدكتور ! » .

فوقف إبراهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفة وهو لا يفهم :
— « دكتور ؟ هل مرض أحد ؟ » .

فبادرت إليه وقالت : « لا لا ! إنه الدكتور محمود . . ، قريب ابن عمي
(زوج اختها) ألا تعرفه ؟ له عيادة في البندر ويزورنا من حين إلى حين ،
وكلما جاء قريتنا يعود مريضاً ، والآن سأذهب لاستقبله وأجيبه » .
— ليس إلى هنا وأنا في هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت : « لا تخف ! بل في الغرفة التي أمام غرفتك . . هذه
(وأشارت إليها) أما ثيابك فما لها ؟ إنك في قرية ولا حاجة بك إلى تغييرها » .
ومضت تعدو . . .

الفصل السادس

« ارجعى ، ارجعى ، يا شوليت ! ارجعى ارجعى ، فننظر إليك » :

لم يسمع إبراهيم إلا أن يطل من النافذة . ولم يكن يعرف هذا الدكتور ولا سمع به ، أو على الاصح لا يذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغربال الواسع الخروق ، وكانت الأسماء أول ما ينسى إذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيرا ما كان ذلك ينجله ، وكان ربما التقى باثنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو أسميهما جميعا ، أن يقوم بواجب التعريف . وكان إذا تخرج الموقف ولم يجد بدا من أداء هذا الواجب ، يلجأ إلى المداعبة ويقول لهما : « إذا شئنا أن نتعارفا فلا اعتراض لى ولكن لا تنتظرا منى معونة ! » . فيتقدم كل منهما للآخر باسمه فى حياء واضطراب ويخرج هو بذكر ما كان ناسيا ! :

ولم يفارقه الوجوم منذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتى شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نظقت باسمه أن أحدا قد مرض فجأة ، وإن كانت شوشو قد بادرت إلى نفى ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتح على العموم لما ظهر له ، من أن شوشو تقابل بهذا الدكتور وإن كان قريب ابن عمها ، وكان هو — إبراهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لأنه لم يجد فى الساعات القليلة التى أقامها فى الريف ما كان يتوقع من الإيناس والشواغل ، أو لعله كان لكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فإن الذى حدث هو أنه لم يكذب يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعها الزجاجيين كأنما كان هذا ما قصد إليه ، ثم عاد إلى الكنبه ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة .

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترك المركبة فى حراسة أحد الخدم

ودخل البيت فاستقبلته شوشو في وسط السلم وصعدت به إلى الغرفة المواجهة لغرفة إبراهيم .

وبعد هنية دخلت على إبراهيم فاطمة الزنجية التي كره وجهها وكلامها في الصباح ، وقالت وهي مطرقة بها شيء من الوجع :

— تفضل يا سيدى ..

فنهى السجارية عن فم وأرسل نفخة من دخانها ، وأمال رأسه إلى قاحية السجارية — وكانت في يمانه — وقال لها بلهجة مبطنة بالمرارة :

— إلى أين يا سنى إن شاء الله ؟

فأحسست المسكينة أن حادثة الصباح ستتكرر ، فقالت وهي مضطربة :

— عند سنى شوشو والدكتور .

— ما أسرع ما نسيتنى ستك شوشو بدكتورها . أنا أيضا ضيف كالدكتور ولم أسبقه إلا بساعات .

قال هذا بصوت خفيض وعينه إلى الأرض كأنما كان يحدث نفسه . ثم رفع رأسه إلى الخادمة التي كانت تخالسه النظر وقال :

— ألم تجد ستك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا .. أنا .. يا سيدى ..

— أذت تخرجين من هنا .. (بصوت عال) .

فخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تحلف ألا تريبه وجهها .

أما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى في الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفي وسع من يكون في الغرفة الملقابلة أن يراه ، فظل قاعدا وجعل يتمتم :

« قبح الله الريف وساكنيه ! .. لو أنها كانت فتاة من أجلاف الريف لعذرتها .. ولكنها تعلمت . في المدارس الفرنسية أيضا .. وليست الصغيرة على كل حال حتى يغتفر لها ذلك .. الواقع أن مجيئى إلى هنا كان خطأ .. يجب أن أعود أدراجى أو أن أرحل إلى الإسكندرية فهى من

هنا قريبة .. إن أعصابي ضعيفة ولا قبل لي باحتمال هذه الفصول الباردة ..
وأنا لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة
إلى هنا .. ذاك الميت الحى الذى لم يكفه إسماعيل واحدا ولم يرض
بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مضيفى ! كيف يمكن أن أطيق
كل هذا الجهل والجلالة ؟؟ » .

وكرر به الفكر إلى ماري .. ماري السمحة المؤدبة الوديمة ، التى
كانت تقرأ فى وجهه كل ما يدور فى نفسه ، وتسبقه إلى ما يطلب قبل
أن يتحرك لسانه ، ماري التى فر منها بلا سبب ، وحرمت نفسها متعة
حديثها ، وأنس محضرها ولذاذة حبها ، ماري التى كان إذا خلا بها
يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه إلى صدرها ، ويمسح لها وجهها
براحته ، وهى تحنو عليه وتقبله ، وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال
وهو يشير بأصبعه : « كلا ! لا بد أن أكتب إليها لتلحق بي فى الإسكندرية .. » .

— من هى ؟

فالتفت فإذا شوشو واقفة فى مدخل الباب ، وذراعاها ممدودتان وكفاها
على المصراعين ، وقدما المشوق بادية معالمه كلها بفضل وقفتها ، وثوبها
الصوفى المحبوك ، فبهت إبراهيم كما بهت الذى كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ،
ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن
خياله النشيط جسم له الأمر فارتبك ، وبدا ذلك كأجل ما يكون فى
جموده مكانه ، رفى ثبات حملاقه ، وذهول نظرتة ، وانفراج
شفتيه ، وتصلب يمناه المثنية على صدره .

فزابت شوشو ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها
حتى تلامسا ، ووقفت إلى جانبه تحلجه بنظرها ، ثم قالت له وتكلفت الابتسام
وإن كان لونها ممتععا :

— ستحرق السيجارة أصابعك إذا لم تنتبه !

وكأنما رد صوتها بعض رشده إليه ، فحنى رأسه وصوب عينيه ،
إلى يده وقال : « نعم أشكرك » وبدأ منه مثل حركة من يهيم بالعودة ،
وإن لم يكن وراءه شيء فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماماً والتفت وراءه
ثم رفع إليها وجهه الشاحب المتهمض وقال : « أشكرك . ثانية » فقالت
وهي تقسر نفسها على الابتسام ولا تدرى ماذا تهدي إليه :
- من حسن الحظ أن الدكتور هنا ، وإني أستطيع أن أكون
ممرضة عند الحاجة !

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة ، كأنها خارجة من صدر
رجل طعن وهم نائم .
- « يجب أن تجلس . إنك مريض » وتناولت يده تجسها .
- كلا ! كلا ! لست مريضاً . دعيني .
ولكنه أطاعها وجلس وهو يتأفف ، ويمر يده على وجهه
- إن الدكتور وحده . . اذهبي إليه . . حقيقة لا يلقى أن تدعيه
وحدك .

- لا أستطيع أن أتركك وحدك ولكن أنتظر .
وخرجت مسرعة .
وبعد دقائق عادت وأخبرته أنها صعدت بالدكتور إلى أختها .
ثم قالت :
- والآن أراك أحسن مما كنت حين تركتك . ألسنت كذلك ؟
- نعم أحسن كثيراً .
- إذن قم والبس بذلتك ، فقد كلفتنى حيلتي كذبة . فعليك
أن تبيض وجهي .
- أى كذبة ؟
- لقد قلت لهما إنك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا في بذلتك ،
كذبة قلتها كسبا للوقت لأنى نخفت أن تطول هذه الحالة التي رأيتك
عليها . وكلفتنى غير الكذبة شيئاً آخر ، ولكنى سأحاسبك فيما بعد .
أما الآن فالبس ثيابك ومأسبقك .

الفصل السابع

« ايتها الجليلة في الجنات . الاصحاب
يسمعون صوتك فاسمعيني » ..

— ٢ —

صعد إبراهيم إلى غرفة الاستقبال العائلية التي جلس فيها بعد الإفطار مع شوشو برهة ، فألقى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير ابن نجية يبكي — أو على الأصح تبكي حنجرته الجديدة دون عينيه — لسبب لاشك يدعو إلى بكاء مثله ، وفي كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى في صقلاها كيف يبدو الوجه الإنساني حين يبكي حامله ! وكان يكف عن النشيج كلما استوقفه المنظر العام أولفته منه شيء خاص ، ثم يستأنف الاعمال ! وكانت زينب أخته — أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأسرة — معتمدة بذراعيها على كرسي ، ومنحنية عليه وناظرة إلى مقعده ، ومشتغلة بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء ، وأمها نجية تلتفت إليها من حين إلى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفاً على الكرسي ، بمثل هذه الأصوات : « تو . . تو . . تو . . » ثم تعود وتحول وجهها إلى الدكتور إلى جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها أما شوشو فلم تكن في الغرفة ساعة دخلها إبراهيم .

ووقف الدكتور وتقدم خطوات ، ومد يده إلى إبراهيم وتصافحا ورفع محمد عينه عن المرآة ونظر بمؤخرها إلى القادم في سكون ، ثم أكب عليها ومضى في عويله الذي يظهر أنه كان يجد فيه نوعاً من الامتاع ، ولكنه لأمر ماهبط بطبقة هذه النغمات أوطأ ما يستطيع . وتخلت زوزو عن الكرسي ونخفت إلى إبراهيم وتمسحت به وهو يسلم على الدكتور ، كما تتمسح القطط بأصحابها . فاحتلمها وجلس وأجلسها

على ركبته ، فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله في صمت تام وابتسام لم تكد تفوز بمثله من موضع عطفها وحبا حتى انقلب ضحكا عاليا .

ودخات شوشو في إثر إبراهيم — كأنما كانت مختبئة تنتظره — فأنارها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها إذ تبدو كأن أوصالها ساكنة وهي تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيها الدقيقين الحادين يختلجان ، وعينها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والحبث والدلال والسداجة ، وكانت شفتاها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبا أنفها الجميل . وإذا قلنا أنفها الجميل فقلة قلنا كثيرا فما أندر الأنوف الجميلة وإن كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية . وإذا أضفت إلى هذا وذاك خصلا متموجة من الشعر الأصفر ، وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها ، أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التي صارت في هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر ! وتخلي لها الدكتور عن مقعده ، ومضى إلى آخر الغرفة ليأتي بكرسي لنفسه ، فابتسم لإبراهيم الذي تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو — إذ رآه يمشى وأحد كتفيه إلى الأمام ورأسه مائل إلى اليسار وذراعاها تضطربان في الهواء كأنما خلتا من الأعصاب أو كأنهما كمان فارغان .

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل ، قالت شوشو وهي تنظر عن عرض إلى إبراهيم ، وكان مطرقا يهمس في أذن زوزو ، وإن لم يفت عينه ولا أذنه شيء :

— ما قولك يا دكتور ! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك ، فأقضه معنا

فإن ابن خالتي يعمل مجالستنا ويهرب منا دائما إلى غرفته .

فلم يبد على الدكتور كأن هذا يضايقه جدا وقال :

— ولكن . . .

— قل إنك موافق . . . أسرع .

قالتا بلهجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضا على ما يوافق عليه قلبه فقال :

— إذا كان الاستاذ (فرغ إبراهيم وجهه ونظر إليه نظرة بلهاء جوفاء) لا يرى في وجودي ما يزيد ميله إلى الهرب فأني على أتم استعداد . .
— معذرة ياسيدى الدكتور إذا قاطعتك . يظهر انك لا تعرف أساليب شوشو المخرجة (ضحك مكتوم من شوشو) أوكد لك أنها لا تعنى ما تقول . .
أنا أعرف بها منك .

— بل أعرف كل حرف .

— نعم تعنين أنك تطلبين إلى الدكتور أن يقضى اليوم معنا — أعنى هنا —
ولكن الباقي الذى يخصنى ليس سوى عبث منك بى وحدى .
— سله يادكتور بدمته أليس فى عزمه أن يطير إلى الإسكندرية حالا لو أنه يستطيع ؟

فالت نجية إلى الأمام وحملت فى وجهه ثم فى وجوههم وقالت :

— يسافر ؟ كيف ؟ وهل أقام شيئا حتى يفكر فى السفر ؟

— سليه يا أختى ! (بنجث) .

فقلت نجية بلهجة من كاديتهدى إلى السر . « أترك رأيت . . . »
ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة :

— لا لا ، إنك لا تنسين عفاريتك قط ! أنا أعرف السبب !

ورمت إلى إبراهيم نظرة .

فقال إبراهيم بصوت اليائس : « ربما » واضطجع فى كرسيه وأطبق شفثيه
إطباق من لا ينوى أن يفتحهما مرة ثانية .

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسعه أن يشترك فى هذه المناقشة العائلية ،
ولم أن إبراهيم لا يحب أن يتوسع فيها . ورأت شوشو أن إشارتها إلى ماسمعتة
عفا من إبراهيم وهو يحدث نفسه فى غرفته قد أعادت إليه الاكتئاب ،
فقدمت وصار الكلام متكلفا متقطعا .

وكان الافق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة في مجاليه ، وبدأت تهيم وترسل صفحات متموجة من المطر ترق حيناً وتكثف حيناً آخر . وجعلت الأشجار المغروسة وراء البيت تتوجع كالنبوءاء من الرياح التي تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر إليها بهذه الحركة التي لم تعهد منها ، كما يروعك الرجل القوي حين يبكي ، وراحت الغصون المتدلّية تتصعد وتتصوب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وتترنج وتبدو كأنها توشك أن تتعصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت ، حتى صارت الأغصان المتقاربة في الشجرة الواحدة من هذه الأشجار تميل كل مميل وتتضارب وقد تشتبك ، وجعلت الأوراق - ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فروع الزروع . وأظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر العصي ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ، ثم قالت شوشو وفي وجهها أمارات الفوز وفي صوتها نبرات السرور :

- الآن يادكتور لم يبق لك مفر من البقاء ! ونظرت إلى إبراهيم تبتغي تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد ، فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم إبراهيم لها معنى ، ولم يعرف لها داعياً ! وبدأ له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا الجلو العاصف ، فأخذ يراقب الدكتور ويحصى عليه حركاته وأنفاسه ، فخيّل له - ولعله غير مخطيء - أن الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسمها حتى وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ، ثم صارت المسألة التي تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمراراً أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هي ترامقه أيضاً أم هذه الاختلاجات التي يراها في نجفونها عفو لا عمد فيه ؟ وعلى كثرة

ما فكر في ذلك وطول ما شغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن إلى جواب يسكن به إليه .

ولما أعياه جواب هذه الأسئلة وأمثالها نفص يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالاً آخر عنى به نفسه برهة أخرى في خلال هذه الجلسة التي طالت بفعل الجو الفاسد : ماله يتعب نفسه بالتفكير في ذلك ؟ ليترامقا ما شاءا ! وهل يعنيه من أمرهما شيء ؟ وكان الجواب الذي لم يسترح إليه أنه حب الاستطلاع المركوز في طبيعته ، وأنه مفطور على دقة الملاحظة ، وليس يسعه إلا ذلك ولا حيلة له فيه ، وليس من الضروري دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر . أو علة خفية . وأى شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ لا شيء على التحقيق ! فhez كتفيه ومط شفتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب في زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيا من شدة الضحك ، والدكتور يبتسم — ابتساماً هو أقرب إلى الضحك المكتوم فيما يرى — ويسألها مالها ؟ ونجية مرتجة الانحاء مما أصابها من عدوى الضحك ، وكفها على ذلك الجانب من فها الذي يواجه إبراهيم ، فلم يفهم ، وهم — تنفيذاً لعزمه — أن يضحك مثلهم ، ولكنه أطبق شفتيه بعد أن فتحهما لما لح من حركات شوشو ونظراتها وإشارات أن شيئاً فيه هو الذي يضحكها ، فأسرع فأدار عينيه في ثيابه ، فلم تأخذ شيئاً غريباً ، فعاد فرفعهما إليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمتفسر فلم يلق جواباً سوى هذا الضحك ، ف شعر بالدم يصعد إلى رأسه ويتجمع فيها وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردّها بجهد ، ونجية تضحك قليلاً ثم تسألها : « ماللك ؟ » والدكتور يتلفت متظاهراً بالاستغراب ، ويضرب كفّاً بكف ، ومحمد وزوزو يقهقهان وينحنيان وتحذلهما أرجلهما فيقعان على البساط ، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفتيها وفها يقول « بف بف ! » .

ومضت دقائق خيلت أطول مما هي ، ولم تعد شوشو فنهض

الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى إلى النافذة حيث وقف
هنيهة يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ، ثم عاد ويسراه
في جيبه ويمناه تعبت بسلسلة الساعة الذهبية وقال : « سأنظر أين ذهبت شوشو »
وخرج فألقاها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته
المؤدية إلى السطرح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعها وهو يدنو منها تغنى
بصوت خفيض فأقرب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر
منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه إلى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع
جميعاً . والقارئ لا بد يعلم أن الرجل اذا وقعت من نفسه امرأة فهو
يخضرها إلى ذهنه في صورة هي أحب إليه مما عداها ، لأن هذه الصورة
تكون أعلق بذاكرته وتكون هي المظهر الذى تبدو فيه لخياله حين يتمثلها .
وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التى رآها الدكتور عليها في ذلك
المكان ، وصارت تزوره فيها في كلا نومه ، ويقظته . والمنظر عبارة عن
فتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، في ثوب من الصوف قرمزي
لاصق بالبدن بحيث لا يفلت شئ بينها هي منحنية بجانبها الأيمن على حاجز
السلم ، ومعتمدة بجانبها الأيمن على كفها ، وبكوعها على هذا الحاجز .
أما راحتها اليسرى فمطبقة في خصرها الذى يبرز من تحته ردفاها مرتفعين
ماثلين إلى اليسار قليلا ، وجيدها الأتلع النضير قد انثنى عليه القرط تحت
شعرها الذهبى المقصوص . وهذا ما كان بادياً منها لعين الدكتور حيث
وقف يرجو أن تظل كما هي لا تشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .
ولكنها تحركت ! أما لأنها أحست به وأما لأن الوقفة أتعبتها أو أملتها
فرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ، ولكنها لم تتجهم له وقالت وفي عينيها
نظرة عتب ورضى في آن :

— آه ! ألك هنا كثير ؟

فدنا منها خطوة : « لا ! مع الأسف ! » .

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة

الأولى بين
بشدييه المستديرين بارز.

- أكنت تتسمع ؟

نقال برقة ، ومد رجله لخطوة أخرى لم يخطها :

- ربما كنت أشد التفاتاً إلى مصدر الصوت .

فقلت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه :

- لا تقل هذا يا دكتور !

- ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابي بك .

فلم يبد عليها ما يدل على الارتياح إلى إعرابه عن هذا « الإعجاب »
وودت لو أنه استخدم في وصف شعوره لفظاً أقوى من « الإعجاب »
وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا ما مر إلى الآن :

- كلا هذا لا يليق . وأنت تعلم أنى محقة !

فدهش - وهل كان ياترى من حقه أن يدهش ؟ - ولم يدر ماذا أغضبها
فجأة وقال :

- ولكن يا عزيزتى . .

فقاطعت بلهجة أشد قسوة :

- لست عزيزة أحد من فضلك !

وكأنما آلمها أن تكون عزيزة أحد ، وإن كانت هي التي حرمت نفسها
هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب في أسارير وجهها الذي بدا كأنه
طال فجأة ، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها أنها حديثة عهد
بالبكاء ، أو أنها مشفية عليه ، فلم يسعه إلا أن ينقل رجله الأخرى
ويخطو الخطوة التي كان هم بها وصده عنها ما لا نعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق
بها فنجبت عنه وجهها ومنحته كتفاً ، فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها
وقال وفي صوته نبرات الأسف والألم الصادقين :

— ولكنى لا أفهم ! بأى شيء أسأت إليك يا عزيزتى ؟

— قلت لك لست عزيزة .. عزيزتك !

فلم يفهم أيضا ! وأنى له أن يطلع على ما تطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقة الله تلك الفطرة التى تهديه إلى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لهاها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

— حسن ! لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها ، فلا داعى

للفتور . ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

— أدعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟

— اتفقنا إذن ...

وابتسم ، وأبى له سوء الحظ وعماء فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن

أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو » .

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه .

وتخلف هو برهة ثم لحق بها وهو يقول :

— ما أعجب أطوار النساء !

ولو أنه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها :

— ما أشد غباوته !

الفصل الثامن

« يغمز بعينه ، يقول برجليه ، يشير بإصبعه ، في قلبه أكاذيب »

١

جاء وقت الطعام فجلسوا إليه في غرفته ، أو على الأصح في الردهة
الفسيحة التي تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة
كراسي من الخيزران . وكان إبراهيم قد سبقهم ولكنه تلكأ عند باب
السلم ووقف - حيث كانت شوشو منذ برهة ! - يتأمل الجو ويمد ذراعه
ليتلقي بكفه المطر الذي كان لا يزال ينهمر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى
السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو
إلى الدكتور ، ونظر الدكتور إلى شوشو وقد طاف برأسها خاطر واحد .
وقال كل منهما لنفسه : « أترأه رأنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت
للأقدار التي جعلتها هي تسمعه في الصباح وجعلته هو - فيما تظن - يراها
أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية : « يظهر أنه لم يجمع » .

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة :

- بلى يظهر أنه ينتظر المن من السماء :

ومضت إليه وأمسكت بذراعه وجرفته معها وهي تقول :

- هكذا يجب أن تعامل ، اجلس هنا !

وكان الدكتور محسن الحظ فقد جلست شوشو إلى جانبه ..

وكان من بواعث سروره الحقيقي أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب

سهت شوشو فشربت منه وإن لم يكن كوبها ! ، وأن القطة التي لبثت
هنيهة في حجر شوشو انتقلت إلى حجره وألمسته شعرها الذي لمس
شوشو من قبل . يضاف إلى ذلك أنه هم أن يساعدها ، وحمل إلى طبقها
شيئا من الخضر رفضته فنقله إلى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من
حين إلى حين يختلس نظرة إلى جانب وجهها وإلى جيدها وغير ذلك من بدائع
هذه الفتاة التي ظلت أكثر الوقت تلتقي الحديث إلى إبراهيم الجالس أمامها .
وكانت فاطمة تتونخى أن تقف وراء إبراهيم مخافة أن يراها ، وستأ شوشو
لا تفتأ تدعوها أن تنحى عنه لئلا تلوث له ثيابه وهي تضع الصحاف أو
ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة إلى شوشو بيدها وتعض شفتها السفلى
وتومئ بعينها إلى إبراهيم فيضحك منظرها شوشو ، ويدبر إبراهيم وجهه
إلى فاطمة فتجمد وتنقطع حركاتها وإشاراتها وتقول نجية :
— دعها يا أختي فإنها مستحبة .

وفرغوا من الطعام فأشعل إبراهيم سيجارة ، وكان الدكتور يهم بالقيام
عن المائدة ، فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح إبراهيم
ذلك فقال : . . .

— لا تكلف نفسك هذه العادات الأفرنجية يا دكتور إننا هنا — على رأى
شوشو — في الريف وعلى أننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى
في العاصمة ، ويمكنك أن تسبقنا إذا شئت فإني باق هنا مع بنت خالتي « وأشار
بعينه إلى نجية » : اذهبي يا شوشو معه .

— ٢ —

قالت شوشو للدكتور لما صارا وحدهما في غرفة الجلوس :

— إن هذا حسن جدا بلا شك ؟

— ماذا ؟

— أظنه يسرك جدا ؟

— ولكن ماذا ؟

— ألا تستطيع أن ترى أن ابن خالتي رآك واقفاً معي وسمع ما تفضلت على به .

— ولكن كيف يمكن ؟ وهبته رأى وسمع فإذا إذن ؟ وهل فيما قلت شيء لا ينبغي أن يقال ؟
— بلا شك .

— يظهر أن قلبي لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لساني ! فيأله من زمن يتعقّب سوء الحظ فيه الرجل من أجل أنه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لأنه أعرب لها عن إعجابه بجمالها ؟ أو كان على أن أكابر وأن أزعج أني أكره دمايتك ؟ يجب أن تعترف أن ما كان يسعني أقل مما قلت .

فمضت شوشو إلى النافذة لتخفي أمارات السرور الطبيعي الذي لمع في عينيها ورجفت له شفاتها ، وقالت وهي سائرة :

— أحسب أن من واجبي أن أشكرك يا دكتور ؟

فتبعها وهو يعبث بسلسلة ساعته وقال :

— إن من الثناء ما هو إساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبي . ولكن من المعاملة ما هو ظلم ، وقد تكون معاملتك إياي من هذا القبيل . رجل صريح لم يألّف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب !

فقلت ووجهها إلى النافذة :

— لست أسمع للأغراب أن يجترثوا على حتى بالمدح .

فقال بلهجة الظافر :

— آه ! إنه ليس المدح الذي تستحقين أضعافه هو الذي يغضبك بل صدروه عني ! ولو أن غيري — إبراهيم مثلاً — كان محلي .

فتهجمت له وقاطعته :

- إني أمنعك ! إنه ابن خالتي ، بل أخى وأعز أهلنا علينا ، وهو لا يحلم بأن يفعل ما فعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعيسة وضاعف الحملة :

- أن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم أنى صادق فى وصفى لك رضيت أم سخطت . وهل كنت تريد أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمايتك لا لسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفيك من الارتباك والحجل حين تسمعين أنك جميلة ؟

فزادت تعبىسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

- إن هذا كله تكلف . وأنت تعلم ، كما أعلم ، أنك لم تقل لى . .

- لقد قلت أنك جميلة .

- كلا ! هذا كذب .

- وأقول ذلك الآن . . . وإنك كذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . . وعيىنا . .

- لا تحلف فلن أصغى إليك . إنك فظيع .

ووقفت مضطربة بين الحجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه . أما هو فلم يعبا شيئا بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

- أكرر أنك من أفتن النساء ، فهل فى هذا كذب ؟ إن الأمر

واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجتراء ، ولكن الاخلاص شفىعى .

- كلا . لأنك غير صادق .

- مهلا مهلا يا شوشو ! واسمعى لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب

به إعجابى بجمالك . ولا أحسبى أول من وصفك بهذا . ويجب أن تصدق الناس إذا لم تصدقينى .

فلم تستطع أن ترد نفسها عن مسابرتة لى حيث يجرها فقالت :

- إن الناس لا يقولون عنى ذلك .
 - بل لا بد أنهم يفعلون وإلا كانوا عُمياً .
 - أعنى أنى لا أسمعهم فإنك تعلم أنى لا أقابل غير أهلى ، ولعلى
 مخطئة فى السماح لك برؤيتى .
 فلم يلتفت إلى الشطر الأخير من كلامها ، ولم يسمح لها أن تزعزعه
 عن موقفه وقال :
 - ولكنك تعرفين أنهم يقولون هذا ؟
 فأغرتها حلاوة الإعتراف بالموافقة ، وصدها التأدب والحياء فاضطربت
 « لا - أعنى - سمعت فاطمة تقول إنهم يذكروننى بذلك . . غير أن .. »
 ولحت أختها وابن خالتها مقبلين ، فنبه ذلك فى نفسها طبيعتها العابثة ،
 وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال :
 - إذن نحكم ابن خالتى . تعال أفصل فى الأمر .
 فريح الدكتور واصفر وجهه ودارت الأرض به ، ولم يعد يدرى أواقف
 هو على رجليه أم رأسه ، وتلفت كالذى يبحث عن نافذة يشب منها ولم يستطع
 أن يمنعهما أو يقول لها شيئاً لأنها باعته بما لم يكن له فى حساب ، ولم تزد على
 أن ألقت إليه نظرة خبيثة ثم تقدمت إلى الباب .
 وقال إبراهيم : « ماذا ؟ فيم تختلفان ؟ » .
 وكاذ الدكتور لا يزال واجهاً ممتقع اللون مسمرآ فى مكانه ، وقد بدأ
 لنفسه شيئاً جداً لا يدرى بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذى تهم شوشو
 بأن تضعه فيه .
 فقالت شوشو - وهى ترمى إلى الدكتور بالنظرة ، وتمتع عينيها بمنظره
 وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف :
 - إنه يقول لى . . ويكرر . . ويؤكد . . ويقسم . . أنى
 أنه . .
 فعيل صبر الدكتور وصاح بها : « شوشو » .

— لا تقاطعني من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتي هذه الحماقة .

فقال إبراهيم عابسا :

— حماقة ؟ ماذا تعنين يا شوشو ؟

أعني أنها حماقة وجرأة وجنون . ولا بد أن أبسط لك الأمر ليتأتى لك أن تحكم ، فأمسك أنت أيضا عن المقاطعة من فضلك . .

ثم كأنها رثت للدكتور المسكين ، فكفت عن تعذيبه وقالت :

— يقول إنه لا يستطيع البقاء معنا ، وأنه لابد له من العود إلى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات . وأنا أقول له إن العود مستحيل في مثل هذا الجو المطير ، فاقض بيننا بالحق .

وجلست ، فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاسبة ، ولم يسر عنه ما قالت لأنه — على فرط ذهوله — أدرك أنها تبنيه صحتها بضمن معين هو أن يجلو عن البيت حالا . فيا لها من عتوبة تنزلها به جزاء له على ما أجتأ به عليها من المغالطة البريئة ؟ افترأها كانت ، وهي تعاطيه الحديث ، تفكر في هذه الوثبة التي قصمت ظهره ، وأطارت لبه ، وشردت عقله ؟ ويا ليت من يدرى أجادة هي أم هازلة ؟ وعلى أنه لم يطل التفكير في تلك اللحظة ، ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التي جعلته رهن مشيئة شوشو ، على الأقل في هذا الموقف ، فhez رأسه لنجية وإبراهيم أن « نعم » وبلغ ريقه ومد يده إلى جيبه ثم أخرجها وقال : « لقد كنت ناسيا فاذا كنتي المفكرة وأنا أنظر فيها عرضا . وأنا أعلم أن الخروج في مثل هذا الجو حماقة ، ولكن واجب الطبيب فوق راحته » .

وأظهر الإصرار وراح يدفع « بالواجب » و « بحالة الم

اعتراض حتى أذنوا له بكرمهم .

الفصل التاسع

« من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع
الرياح في حفنتيه ؟ من صر المياه في ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الرياح ، وكان إبراهيم واقفا إلى نافذة غرفته يطل على الحديقة التي مر بك الكلام عليها ، أو على الأصح يحدق في الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لفت فيهما الكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بمنأى يرسمه له خياله النشيط . وكان البرد قارصا والليل صامتا لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شيء في السماء والأرض صورة مرسومة ، وقد نخيل إلى إبراهيم وهو يرى هذا السواد بعينه كأن هاوية من الحرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة ، وأنه لو أرسل في ظلمتها صيحة لما ارتد منها إلى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه أو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعا ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير إنسانية يعي الإنسان نعتها ، أو كأنها في غيبوبة أفقدتها وعيها أو كأنما هو ينظر إلى الدنيا المذاهلة عنه من خلفها ويتأملها وهي مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون .

وعالج إبراهيم ، وهو ثابت الحماق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال والموت في آن ، وأن يتبين نوع إحساسه به ، وأن يهتدى إلى العبارة عنه فأعياء التماس ذلك ، وماذا عسى أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المنظر المسحور - هذه الدنيا التي أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الأمر على شوشو أو لعلها نخشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا ، ففقد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره

براحتها ، وهو في شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده إلى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته إليها وربت له خده فاختلفت شفتاه ولكنه لم ينطق ، فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهي تجره إلى الكنية :
- قل لي مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلقي على الأصح بنفسه على الكنية :

- تسأليني ما بي ؟ ؟ بي هذه الطبيعة التي كانت منذ ساعة تبرد وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آصت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ في صباى عمن مسخوا حجارة !
- هل تريد أن تقول أن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟

- نعم . ولشد ما أتمنى أن أجرب ذلك في نفسى لحظة واحدة ! لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس السنة الهواتف وتمحى صور الحوادث ، ويغيب ذلك العباب الجائش هنا في صدرى هذا .
فقاطعت شوشو قائلة :

- ما أعجب أمرك والله ! تكون معنا كأن لا شىء على وجه الأرض يعينك ثم لا تكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب لإنسانا غيرك ، كأن في جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى إلى بما يكربك ؟ قل لي ! هات ما عندك ! أطلعنى على دخلة نفسك ! ائتمنى على شرك .

فوقع من نفسه عطفها وحنوها ، وهم أن يبثها شكواه ويقول لها بشجوه ولكنه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت إليها ، ثم ملك نفسه وكبحها ، وقال وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل من ذلك السخر :

- يا فتاتى الصغيرة أتقدين أن ..

فحزت هذه الابتسامة في نفس شوشو ووثبت إلى قدميها وهي

تقول :

— بودى أن لا تتكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحمو ؟
— لا تغضبى ! (ومد يده فتناول ذراعها) عودى إلى مكانك
بجانبي . دعى بدواتى هذه . لا تلتفتى إليها . إنها مرارة النفس يقطر
بها اللسان وينضح بها الوجه وتفيض بها العين ، وبكرهى أن ترى ذلك
أنت أو سواك من خلق الله — آه يا شوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتنى .
— وماذا يمنعك أن تخبرنى فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟
— يمنعنى كبرياء نفسى وعلمى أن الشكوى عبث وباطل ومحال
ليس يجدى .

— أدام الله عليك الكبرياء التى أفاضها عليك !
ونظرت إلى ساعتها على معصمها وقالت :
— الساعة الآن الحادية عشرة فقم إلى سريرك وإلتحف بها !
فضحك وقال :
— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟
— أو يعينيك أن تعرف ؟
— بلا شك .
— إذن اعلم أنى لست ذاهبة لأنام .
— وماذا تنوين أن تصنعى ؟
— سأجلس قليلا وأفكر .
— فى أى شىء ؟
— ليس لى مثل كبريائك فلا أكتملك أنى سأفكر فى غرابة
أطوارك .
— آه ! أولا تزالين غضبى ؟
— كلا . ليس مابى غضباً . لقد كنت أود . . على أن هذا
لا يهم الآن . . .

فخطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذر فقال :

— اسمعى يا شوشو . إن الواحدة تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الأنبياء ومثولة الرسل . . . إن . . .

قالت مقاطعة : « لا أفهم » .

قال : « لست وحدك التى لاتفهم . إن كل امرأة مثلك لاتستطيع أن تخرج من خصوصتها إلى العموم . إن قلب الواحدة منكن يدق عطفاً ومرثية للألم الفردى ، ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو إحساسه على العموم عميقاً شاملاً لآلام الحياة . . . » .

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر :

— صبدقنى أنى أعطف عليك .

فقال ، ولم يلتفت إلى سخرها :

— إن الجنس الإنسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أو هذا الرجل المعين الذى أبصرته واقفاً إلى جانب الباب ينتظر فى البرد أو تحت الشمس مثلاً . إن المرأة عاجزة عن الإحساس بالآلام العامة ، وعمياء لاتستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمياء نصف مستوحشة تصرخ شرقاً وغرباً وقد أجنها الألم والخطيئة أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا النمر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز الثياب من فرط إحساسها « بجملته » هذا الألم العالمى ؟ أرى دمة واحدة أراقتها امرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها — لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن وسهولة أسبابها ! إنكن لاتبكين إلا لما تعرفن وأنتن معذورات : طفل مريض تلمسه المرأة بأصابعها فتحس مابه من

الحمى فتنهمر الدموع ! ولكن مليوناً يمرضون ! آه هذا شيء آخر
ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تهكين من أجل الكسور العشرية أو
المركبة ، أنكن لاتفهمن الدنيا باعتبارها وحدة وكلا ، ومن أجل هذا لاتتأثر
بكن هذه الدنيا لأن الواحدة منكن لاتقدر أن تتسرب فى المجموع وتنفى
فى الجماعة . نجد فىكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى
فىكن الولية والقديسة ، ولكننا لن نفوز منكن بنبي أو رسول ! لاحقى ولا
بشاعرة .

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذى ساعفه على
كل هذا الكلام ، واضطجع وأطبق شفتيه .

ولم تجبه شرشوشىء بل نهضت وأغلقت الباب وراءها .

— ٢ —

استيقظ إبراهيم على صوت بقرة ، فدفع يده تحت الوسادة وتناول
الساعة فألفاها الثالثة صباحا ، فعاد فأغمض عينيه وفى ظنه أن البقرة ستكف
عن هذا الصخب الذى جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على ما يظهر كانت
تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب عن السرير الى
النافذة فإذا السماء صافية والقمر مضى ففتحتها وأطل برأسه فرأى البقرة
إلى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عنها إلى السماء ، ولم يكن
يعرف البقر الا مجازا ، ولا كان له بهذا الضرب من الخلائق عهد
فجعل يصيح بها «هش . هش» ، ويوهمها أنه سيقذفها بشىء ، غير أن صيحاته
وحركاته وإشاراته كانت تنعشها كأنما سرها ان تعرف أن لأصواتها مستمعا
كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعيه . فلما رأى ذلك توهم
أن ظهوره لها هو الذى يشجعها وأنها خليقة أن تثوب إلى السكينة وأن
تثبط همها إذا انصرف عنها ، فاعلق النافذة وتحرى أن يحدث فى إغلاقها
من الضجيج أكثر مما تدعو إليه الحاجة لإبدانها بإهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة

أن احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت في الأداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً وأن الإحساس فيه فاتر ، فاطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد كاد يطبقها النعاس فأطارته هذه الصيحات المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها ، فجر نفسه إلى الكنبه وانطرح عليها وأشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا النحو .

« النوم قد جفانى ولا سبيل إليه الآن ما دامت هذه البقرة قد شاءت أن تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا - إلى صباح الآدميين لا صباح البقر - كلفة شاقة . وإذا كان الحظ قد رمى بى إلى هذا الريف الذى يبكر ناسه فى النوم وتبكر أبقاره فى اليقظة ، فالرأى أن أخرج إلى هذه الحديقة التى أفسدتها البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى إلى بعض معانيه » .

ولما انتهى إلى هذا الرأى أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من الحديقة مذكرته وقلمه وفتح الباب ونخرج وأغلقه خلفه ولكن من أين ؟ .

وكانت البقرة تواصل الصخب فأراد أن يسرع ليدركها ويثأر منها . غير أن الاهتداء إلى باب السلم المؤدى إلى الحديقة استغرق من الوقت وكلفه من المتاعب ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت الغرف كلها موصدة حتى غرفته ، والمكان مظلماً . وكان ظنه أن هذه الصالة فارغة فإذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر مرات فى لفه ودورانه حتى انتهى إلى وجوب حمله معه وهو « يطوف » فى أرجاء هذه الصالة التى أصارتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف ، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بأنه سيضرب البقرة به .

ولكن كيف يهتدى إلى الباب وهو لم يكده يخطو خطوات فى الصالة ويصطدم

بالدار لأول مرة حتى اختلط عليه الأمر ولم يعد يعرف شرقاً من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو ؟

ووقف برهة يفكر في المخرج من هذا التيه فبدأ له أن الاشكال يحل بأن يلتمس الحائط ويسير على محاذاته فانه ان فعل ذلك لا محال موفق إلى الباب ، ففعل بلا عناء يستحق الذكر وسار كما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضي عنه لا إليه ، والتقى في طريقه بما لا يذكر أنه رآه في النهار أو في اللحظات القليلة التي اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً إلى غرفته أو خارجاً منها ، وتعثر بما حسبه « غابة » من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن ينأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فإذا به يلتقي بقوارير توهما غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير .

وصادف بعد ذلك برميلاً . نعم برميلاً فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة خمار ؟

ومل هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمي بنفسى في جوف الصالة وأدفع أول باب أباغى ، ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد باباً لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وعالجه فانفتح فإذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور وأعاد إليه اتساق خواطره فانحدر ولكنه لم يجد حديقة ما فوقف كالأبله !

وكان صوت البقرة لا يزال يصل إليه فلم يجد عسراً في فهم ما حدث . ذلك أنه لم يهتد إلى سلم الحديقة بل إلى سلم خلفى يفضى إلى فناء « الحريم » ، وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال : « لا بأس وإن كانت البقرة قد نجت بجلدها » ووضع الدلو متناولاً وكان لا يزال معه وقعد عليه وأخرج القلم والمذكرة ليدون ما يخطر له .

ولم يخالجه شك في أن الشمس ستطلع لامحالة من الناحية التي
جلس ينظر إليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزي شيئا فشيئا
ولكنه لم يكتب شيئا ولم يخط حرفا لأن أحجام الشمس عن الطلوع
حيره حتى خالجه شعور وقى بالخوف عليها وابتسم وهو يقول لنفسه :
« لولا ما تعلمته في المدرسة لحسبت الشمس قد غيرت رأيها وعدلت
عن الطلوع اليوم »

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء في وجهه أن يدرك أن الشمس
طلعت من ورائه !

وجلس وكتب في المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول لعل
فيها فائدة لشوشو ! » .

- ديسمبر - في الريف . يظهر أن البقر أحس بالفجر من الديكة
وأسرع إلى تحية الصباح من العصافير . وفي وسع من يعنيه ذلك أن
يقضى ليلة في الريف ويبكر في القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة .
وليس في الريف ذلك السكون المزعوم فإنه إذا سكنت الطبيعة هاجت الأبقار
ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق في الريف أن يأخذ معه كمية
من الاسبرين أو الفيرامون تكفي له وللبقر عند الحاجة » .

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه منه بالمعاني الشعرية
ولم يدون شيئا من الخوارج أو الإحساسات لأنه كان في تلك الساعة
مجردا منها . وعلى أنه - كما قال لنفسه - ما حاجته إلى الإحساسات
التي قد يخطيء في تصويرها أو بوشيا بما يجعل ألوانها أزهى أو أقتم ؟
أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقا للحقيقة عاريا من
زينة الخيال وحليه وتفويقه ؟ وهب لا مدرسة هناك فما ذنبه هو إذا
كانت شمس الريف قد أثبت إلا أن تطلع من ناحية غير مرقوبة ؟

ومن أين تأتي هذه الخيالات أو تنشأ الإحساسات ولا تفكير له إلا في البقرة التي هدت رأسه بأنغامها ، والدلو الذي شل ذراعيه جميعا على التوالي بثقله ؟

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات تنفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائيا فيكتب :
« تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما ، ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح » .

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشيء ! أليس التشبيه ضروريا في كل كلام شعري ولو لتقريب الصورة التي يراد أداؤها ؟ ولكن من أين يجيء لها بمشبه وهي لا تثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات ... شوشو ؟ لقد خطرت له شوشو مرتين في نصف ساعة ؟ ولكن لا عجب ، فما يقضى معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها إلى الآن .

وعاد إلى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذي احمر ثم اخضر ثم اصفر ، وبينما كان جادا في البحث عنه ، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكذ تراه - وهو لاه عنها - حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جميعاً كباراً وصغاراً وسادة وخداما وفي طليعتهم نجية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه في وقت واحد عما به ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا الدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب في يده ؟ وهل هذه عادته في مصر ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي قعد ينتظر آخرها على غير جدوى ، وهو ينقل عينه من وجه إلى وجه تبعاً لمصادر الأسئلة حتى كاد يجن .

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغط المتصل نهض عن الدلو في صمت ومضى إلى غرفته وأوصد بابها وراءه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول :

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ! ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أخرس هذه البقرة التي أزعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها . ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة . ولكن هذا . هنا حيث يقولون إن السكون سابع والهدوء مطبق محيط ، والمرء لا يتوقع شيئا من الضوضاء ، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن ، تكفى بقرة واحدة لإطارة العقل » .
وأخذه النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلئ من السمع »

لم يطل نوم إبراهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتغطى فلم يلبث أن ابترد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق، فقام ونظر من زجاج النافذة إلى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول وراءها ، ففتحها فتضوع إليه ربا الخضرة المطلولة والأزاهير الندية دافئة تحت الشمس . وكان واسع الاطلاع ملما بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة . ولكنه نسي ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد تنوعا من أن توائمهما الخيالات المسطورة في الكتب . وأحس في هذه اللحظة حينئذ — لا إلى شيء معين — وغبطة تشيع في كيانه كله ، وظمأ خيل إليه أنه ما من شيء يمكن أن يطفئه ويفثأ غلته . فقال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحقق في السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح في بطاء . وخطر له وعجب هو لنشوء هذا الخاطر — إن من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة . كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية . لأنها حارة حية . ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة . وإذا كان بعض ما فيها يسطر على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأبى عليه فما قيمة هذا ؟ إن كل شيء يحيا وإذا كان يموت فلنما هذا ليعين غيره على الحياة . وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بظهور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال — أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ — إن هذا الفنان الأعظم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو . وكل حياة تجري إلى مداها ثم تراق

وترد إلى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروباً جديدة من الفن . العقل والمادة شيء واحد . ومن يدرى ؟ فلعلة ليس لا عقل ولا مادة وعسى أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا إلى ما لا نهاية : فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول والموت — أو ما نسميهما كذلك — إنما هما راحة ونوم أو هذا هو الجزر الذى يحىء بين مدين ، أو الليل الذى يفصل نهارين والنهار الذى يطلع لا يشبه الذى سبقه فى شيء ، ولا المد كالذى كان قبله . هذه الصور التى نراها فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القطع الفنية التى يخرجها الفنان الأعظم لا تعود ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلاً معيناً . بل هى دائماً جديدة . عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة . وليس فى هذا ما يكرب النفس . كلا إنما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبداً حتى بعد ما يسمى الموت . أو أنها ستحيى كرة أخرى فى جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبني كتيبت مقالاً أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة ، فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتي تصبح مقالة أخرى أو قصيدتي تنقلب قصيدة ثانية ؟ وهل فى وسعى أو وسع سواى أن يفصل ما بين العبارة التى صيبت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهنية التى أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديداً كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديداً ومن التالد طريفاً كالنافورة تقذف الماء خيطاً من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : « ولكنى لا أستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الأبدية منهكة فى الإعراب عن نفسها فى صور فردية شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل

شيء إلى « لا شيء » ؟ ظلام أبدى شامل ! وباليك من يدري أيهما
اثنان لا ثالث لهما : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبعد كما هو
فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الإطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن يحدث
هذا ولم يحدث ذلك ؟ » .

وسكت وحديق بعينيه الواسعتين في الفضاء كأنما ينبغي أن يرى شيئا هناك
وراء كل منظور . ثم هز كتفيه وقال وهو يمشي إلى « الكنبه » :

— كل هذا جميل . ولكن هل بنا حاجة إلى التفكير ؟ هذه الدنيا أمامنا ،
وأحسب أن كل ما بنا حاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك .

وهم بالجلوس فسمع نقرا على الباب ففتح وطالعه وجه شوشو ، كأنه
— أي وجهها — في حلم ، وأحس وهو يصفافحها كأن جرحها جوا من الماضي
والمستقبل ، وذلك ما لا عهد له به فسأله :

— ماذا كنت تصنع ؟

— لا شيء . . .

ولكن وجهه مال إلى النافذة ، فقالت :

— أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟

ألا ترى معي أنها كالطفل ، تكون عابسه باكية ثم إذا هي تضحك
لغير سبب مفهوم ؟ إن تناقضها أو اضطرابها كثيرا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت
لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أن تروقني — إلى أن يتغير مزاجي
على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه ،
ولكنه كتم هذا — وأن لم تكتمه عيناه — وقال مجيبا على كلامها :

— كلا يا شوشو . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة ما أو بعبارة
أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين ، ولعل
ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكون عليها الطبيعة في جميع
مظاهرها — هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع

إليه ويقوم عليه إيماني بالحياة . ولولا هذا التنوع لما بقى ثم شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة إعجاب وقالت :

— ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الكاتب !

قال : « نعم . أحسب الأمر كذلك . وإن كنت لا أرى أن كوني كاتباً هو السبب في ذلك . كلا . إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغيير . فأنا أجل هذه الجدة التي أراها كل صباح يطلع وكل مساء يخبئ . وفي كل شخص . وفي كل مظهر من المظاهر التي تعبر بها الحياة عن نفسها . أرتاح لأنني لا أرى شيئاً نهائياً . ولما كان التغيير دائماً فلا أراني أشيع من النظر والتأمل والتفكير أحب كل شيء : ما كان وما هو كائن وما سيكون . . أحب حتى . الموت .

وسكت ، وساد سكون عميق ، ثم رفع إليها عينيه وقال :

— وأنت يا شوشو ؟ وما رأيك !

وكانت جالسة وعينها إلى النافذة ، فالتفتت إليه كأنما أيقظها صوته من

حلم ، والتقت عيونهما ، وقالت :

— أنا ؟ لا أدري ! إنني لم أكن مصغية .

فاضطرب شيء في صدره وخفق قلبه خفقة عطف مضطرب وشعر كأن

بها حاجة إلى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الإحساس الذي لامس له ولا

موجب لنشوته فابتسم وقال :

— ألم أقل لك إن المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملاً ونظرتها جامعة

وروحها واسعة محيطية ؟

ورآها مصغية إليه فضى في كلامه :

— أنا مثلاً — ولست أعني نفسي على وجه الخصوص ، ولكنني أعني

الرجل على العموم — أستطيع أن أفتح قلبي للطبيعة كلها بكل ما اشتملت عليه

وأن أغمر كل مظاهرها بحبي ، حتى هذا المنكبوت الذي يخيفني في العادة

والذى أكره أن أرى نسجه في زوايا النافذة أو أركان الغرفة ، يفيض قلبي له ويتفتح . ولكن المرأة شيء آخر . لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم قد تحس أحيانا بشوق إلى أن تضم الكون كله بين ذراعيها . ولكن هذا لماذا ؟ لأنها تحب إنسانا معيناً لا ترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل في شخصه . وليس لشيء وجود منفصل عنه فهي إذا أحببت الطبيعة فإنما تحب فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها .

فأرخت شوشو عينها هنيئة ثم رفعتها إليه وقالت :

— وإذا كان الرجل هو الذى يجب ؟ إذا كنت أنت مثلاً هذا الرجل . فاضطرب وتدافعت العواطف في صدره ، وأحس الندم يعض قلبه وخيل إليه كأنه يرى وجه زوجته التى ماتت منذ سنوات ، يطالعه من ظلمة الماضي الدفين ويلومه ويتهمه ، يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول معنفا : « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستسر ولم يبق إلا شوشو تنظر إليه بعينين تحلمان ، وابتسامة فيها شيء من المرارة ، ووجه ماذا جرى له ؟ أين ذهب إشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة عجيبة ! وهامى ذى تومض عينها إيماضة خبيثة كأنما يسرها ما تقرأه في وجهه من الاضطراب ! مالعينها متعلقة بعينه ؟ أهى ناظرة إليه ؟ كلا ! إنها كالتى ترى شيئاً هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة .

وتهنس وقال :

— أى سؤال هذا يا شوشو ؟

فنهضت مثله وقالت :

— أهو سؤال غريب غير جائز ؟

وكان يمشى في الغرفة فلم يفتح الله عليه بخير من :

— كلا . لا غرابة . إني جائع جداً ولست آتياً هنا لأصوم .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— ألا تزال ملتحقاً بكبريائك ؟

فلم يلتفت إلى هذا ودنا منها ووضع يمينه على كتفها وقال :
— اسمعى ياشوشو : لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب
إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أراى سأطيق هذا الحبس فقولى لى أين
أذهب . ولكن بالله عليك لاتقضى لى فى وسط جحافل من أجلاف
الريف . . .

فتكلفت الجلد وقالت :

— هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأحوال ؟
فقال :

— قبح الله الريف ! ألا شىء غير الجلوس فى هذه الحجرة ؟
قالت :

— أملتنا جدا ؟ وبهذه السرعة ؟

فأسرع يؤكد لها إن الأمر على العكس ، وإنه لم يضجره الا الحبس وأن
بوده لو استطاع أن يخرج معها إلى الحقول ، فصفت وصاحت به وقد
اضطرم خداهما :

— ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبى .

— ولكن كيف يمكن ؟

— أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى .
ونخرجت لتجيئه بالطعام .

الفصل الحادى عشر

((حبيبى مد يده من الكوة ، فانت عليه أحشائى))

ما معنى هذا ؟

حار إبراهيم فى تفسير خواجه وما بجاش به صدره وهو جالس مع شوشو . ولم يكن ما قرأه فى أسارير وجهها وعينها العميقتين أقل تحيرا له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعام ، ونخشى أن تبيته به تلك الزنجية اللامعة كالقحمة ، وكره أن يرى وجهها بعد شوشو ، واختلج فى قلبه شىء من العطف عليها من أجل هذا الكره الذى يحسه لها ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويتجنب أن يواجه ما تضطرب به . فأسرع فأنحدر من السلامك إلى الفضاء الذى أمامه وتذكر وهو يهبط السلم كيف تركته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية فابتسم وهو يقول : « تالله ما أظرفها ! إن معين حيلها لا ينضب ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر إلى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتق بأحد ، فقال إلى الحديقة غير عابىء بالأحوال التى تراكمت على حدائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدة بعد الأخرى من الأحوال « أما لو أن الأرض جافة ! إذن لا استطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هذه الإحساسات الجديدة وأنفقها فيه وأحيلها عرقا يتصبب . »

ورأى رجلا جالسا على حجر فى آخر الحديقة ، فضى إليه فألفاه شيخا هراما فى يده العصا ، ونهض الرجل متوكئا على عضاه ورفع له يده بالسلام . وراق إبراهيم وجهه المغضن كالحصير وشارباه المتهدلان كأنما كلت شعراتهما وفترت ، فحياة ووقف صامتا لا يدرى ماذا يقول ، وأحس كأن بينهما جونا يتعاضم المجتاز ، واشتاق أن يفتح قلبه لهذا

الشيخ المتهدم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكىء على العصا الذى اجتاز
أدغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشواكها وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ
قلبه ، فيقول هـ — ماذا بشجوه مرة وذاك بشجوه مرة ولكنه لم يجد
الكلام حاضرا ولم يدر كيف يحجره إلى التحدث عن نفسه ، فاكتفى
بأن يقول :

— من أبناء القرية ؟

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ أنه من جدودها بل
جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصفير « أيوه » ووقف ينتظر السؤال
الثانى فقال إبراهيم : « أنا من مصر » كأنما أحب أن يبادلته التعريف ويشعر
أنهما ندان .

فقال الرجل : « ماشفتهاش يا أفندى » .

فقال إبراهيم : « لم تخسر شيئا » .

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكفه ويقول :

— بيحولوا أنها جميلة . ماشفتهاش يا ابنى .

— ليست أجمل من قريرتكم .

وسر الرجل هذا الثناء على قريرته وبدأ الارتياح فى هزات رأسه وفى

ازدياد عمق الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه وهو يبتسم وقال :

— بلدنا ؟ الشبان ما يعرفوهاش يا أفندى . يرحلوا ويجعدوا فى البنادير ،

يبعتوهم المدارس يحوموا ما يطيجوش البلد قانى . بيعدموا الصحة حداك
والمال كمان .

وتحمس فدق الأرض بالعصى وقال : « بجالى سبعين سنة عايش فى

الأرض ما هجرتها يوم . وأروح فىن ؟ » .

وابتسم ووقع كلامه من قلب إبراهيم فقال :

— وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— أيوه . زي؟ لع ! ما حد زي؟ شبان الزمان ده كيف يبجوازي؟
ما طيج أفوت ريحة الأرض .
وضحك الرجل أو على الأصح انفرجت شفتاه عن فمه الذى عاد أدرد
كالكهف الخاوى وقال :

— إنه زى البجر اللى تهزل وتهبط لما يتغير المرعى .
ثم رفع يده التى فيها العصا وقال مشيرا إلى نوافذ السلاملك :
— بينادم عليك يا افندى .

فتركه إبراهيم أسفا ولم يتحول إلى السلم بل قصد إلى نافذة غرفته مخترقا
إليها الحديقة ، وطاف برأسه العجب من أن تأسر الأرض رجلا كهذا ،
وتقيده إليها سبعين حجة : ما أقوى هذه الأرض التى لا يعود رجل مثله
يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عينيه فى الحديقة وهو سائر لا يلتفت
إلى شوشو التى كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه إلى المساحات
المترامية وراء السور ، ثم رده إلى جمال الغصون وسحر الألوان إذ تحفق
الأفنان فى ضوء الشمس . فلم يعد عجبيا أن يتدفق حب هذه الأرض فى
عروق أبنائها ويجرى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما
يزيدها خصبا ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط ألفها
لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطيء لحاظهم غضارتها ونضارتها وخضرتها
الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ، ومطرها
المهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض ، وماشيتها ، وكل ما حفلت
به من حيوانات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .

وصار تحت النافذة فأومأ لشوشو وقال :

— من هنا . أطمعنى من هنا .

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعمق عينيها ! لم يرها قط أصبح ولا أجل
منها اليوم . وكانت عينها تنتقل من الطعام إلى الأرض ثم قالت :
— ولكن كيف أستطيع ؟ تعال إلى . هذا أحسن .

فهز رأسه مصرا وأعلن إليها اكتفائه بلقمة وقطعة من الجبن أو بضع زيتونات ، واهتز كيانه سرورا بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق خياله أن تلقى إليه شوشو باللقمة بعد الأخرى ، وأن يتلقف ما تلقى ، بل أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل ما يعلق بها ، ولكن شوشو كانت تهم أن تلقى إليه برغيف كامل حشته ما لا يعرف فصاح بها :

— لا لا . لقمة لقمة . من فضلك .

فرمت إليه نظرة دل واغتيباط ، وضحكت وراحت تطعمه على نحو ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ، ولا يكاد يطبق الوقوف على قدميه . وكانت ربما أوهمتها أنها ملقبة إليه باللقمة فيمد كفيه ليتلقاها فتخيب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع . ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها :

— ليس في الحديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم ، فانزلى إلى . فنظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة وأطلت بوجهها وصدرها وتلفتت ، وكأنما اطمأنت فقالت :

من هنا ؟ أتلقفني إذا هبطت إليك ؟

فصاح يردّها وقد خاف أن تجازف :

— كلا . تعالى من السلم الآخر .

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده . ولم تلبث أن جاءت تعدو فخشى أن تزل قدمها في الزحاليق ، فدفع ذراعيه ليقبها العثور وهي تجري مقبلة ، فإذا بها ترتمى بينهما ، فكاد يقع بها ولكنه كان قريبا من الحائط فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشئ به سكونها بين ذراعيه من الرغبة في البقاء ، لظل يحتضنها . ولكنها كانت شوشو— بنت خالته وصديقتها الصغيرة التي كم داعبها وهي طفلة ، وخرج بها للرياضة والتزهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم

دفعت كفها الصغير في جيوبه باحثه عن الشكولاتة والحلوى واللعب الدقيقة التي اعتاد أن يشتريها لها ويتقيها معه حتى تتاح له فرصة يقدمها إليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسالت إلى سريرته وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الأصابع ، حتى يفتح عينيه ويتثائب ، فتلثم أقرب ما يكون إليها منه ، وكثيرا ما قبلت اللحاف ، ثم تضحك فيبتسم ويعجب كيف لا يغضبه منها إزعاجها له وإيقاظه ، وتشد ذراعه وقد تجر رجله لينزل عن السرير ويلاعبها .

طافت برأسه هذه الصور ومثات غيرها من أيام طفولتها فأحمر وجهه ، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه ، ولكنها كانت كالعصفور وجد وكره وإطمأن إلى عشه ، فلم يجد في قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس ما يشجعه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لإحساسها . فمسح شعرها بكفه — ايه ما أنعمه وأبدعه متوهجا في ضوء الشمس ! وهمس في أذنها « شوشو » فرفعت إليه عينها في فتور كأنما كانت تحلم فربت لها على كتفها وقال : « هلم بنا » ، فاعتمدت على كفيها — وكانتا على كتفيه — وحملت نفسها في ثقائل وبطء وبجهد واضح .

الفصل الثانى عشر

(فى الليل على فراشى طالبت من تحبه نفسى - طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن فى تلك الليلة ، وإن كانت - على خلاف عاداتها - قد بكرت فى الذهاب إلى مخدعها ، وتركت أختها نجية وحدها مع طفلها ، وزعمت أن جفونها مثقلة ، وجعلت تتشاءب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية :

- قومى يا حبيبتى . لا تتحامل على نفسك .

وكانت الأشجار ترى فى ضوء نافذة غرفتها . وأكثرها قد ذهب مع الربيع رونقه ، ولكن بعضها ، وأدناها إلى النافذة كان مورقا رفاقا منورا ، وكان ضوء القمر ينفذ إلى الأوراق الخضراء ، ويومض فى صفحاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة . واستراحت الأطيار والضفادع إلى سكون الليل وسهوم القمر ، فانطلقت هذه تنفق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو فى هذه الساعة لو أنها كانت عصفورا يذهب إلى حيث يشاء ويخلق فى الجو ، ويسبح فى الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء - عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر - عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر - عصفورا يحط على أعلى فن فى أسمى شجرة ، أو يهوى إلى الأرض وينخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه ، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت - عصفورا لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب - ساجدة تجوب الآفاق وفى

الأزهار والأشجار التي لا تكون إلا عطرة ولا تبدو إلا حالية موقنة ولا يعتورها خلق ولا يساورها اضطراب . آه ! لماذا تقلق النفس ؟ لأي شيء تطلب ما ليس في اليد وتريد أن تحس وأن تعلم وتبغى أن تحب وأن تحب ؟؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى اعتمدت بكوعها على النافذة واتخذت من كفيها كأساً لذقتها . لقد تغيرت الدنيا كلها في يومين اثنين ، لا بل في يوم واحد . نعم كانت تحب إبراهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن لها أخاً ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين إليه . ولا كانت تصبو إلى مشاطرة كل شيء بل إلى أن تهبه وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوز منه بالروح والراحة - الراحة في أي شيء ؟ أهذا هو الحب الذي تصفه القصص الفرنسية التي قرأت منها عشرات وعشرات ؟ كلا ! تلك حكايات لفقها الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف يثب القلب إلى الخلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذي يوشك أن ينفجر ويقذف بالحمم ؟ أليكون الحب طاغياً عنيفاً كما تجده هي ؟ ويا ليت من يدرى كيف صارت تنجل الآن ، وتشعر النار تندلع في وجنتها وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأت أنه بعد أن طما في نفسها هذا العباب الزاخر وهي بين ذراعيه عند باب الحديقة ! أن لهذا الحب ووعة ليست لسواه .

وابراهيم ؟ إنه وعر مر النفس - لماذا ياترى ؟ ألا تستطيع أن تستدرجه حتى يكشفها بما تنطوى عليه أضالعه لتحيط خبراً بدواعي هذه المראה ؟ ولكنه حتى كثير الجهامة ، وإن كان من واجبي أن أعترف أنه ظريف الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفو أفقه ، وآه من عينه على رقبتها ! لم تر شوشو أبجد منها ولا أنفد ، هي عين تأخذ كل ما دق وجل مما يقع تحتها فليس يفوتها شيء حتى ما هو مغيب في الصدور . ويا ما كان أحلاها هنية على تقصرها ، وأنا بين ذراعيه ورأسى على كتفه ! وما كان أرقه وأحناء وهو ينحني عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر

والورود البيضاء ترف في حوضها كأنها مضوغة من ذوب أشعة القمر ،
والأفنان تهتز وترنح فوق رأسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسما تبدو
من خلالها شتى الشكول ، وندى الصباح على وجهينا ، والسكون واسع عظيم
وكان الدنيا كلها في صلاة وتسبيح ، وقلبي مثلها يسبح بحمد الله . لقد كنت
سعيدة ، وأظنه هو أيضاً كان سعيداً على الرغم مما كان في وجهه . ما أشد
سحر هذا الحب الذي يحمل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة ما لم يكن لها ،
ويحيلها كالحلم اللذيذ لا بل كالصوت الجميل . . كالنغمة العذبة . . كالغناء
الملائكي . لكان روعي هائمة مع روجه الآن . . لم تعد روعي في بدني
فليت بها تظل معه هائمة ، فما أريد أن ترتد إلى جسمي . . لست أبغى أكثر من
هذا . أبدا . أبدا ! إيه أيتها الغبطة ، نشدتك الحب إلا ما بقيت معي !
لاتنقضي . . لاتذهبي عني !

ولكنه يفرغني . سباحات عقله تخيفني ووثبات خياله ترعبني فأتضاءل
وأتضاءل ، أحس كأنني لم أعد شيئاً ! ما أقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد
أن يلتهم بهما الدنيا . ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد . لا يحسن في تلك
اللحظات ولا أظنه يراني ، ويخيل إلى أنه يبصر ما ورأى من خلال
بدني . . وانتفضت كأنما سرت في جسمها رعدة فلفت شملة الصوف
التي كانت على كتفها وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها
ومضت إلى السرير ، وقعدت وتنهدت ، وقد طاف برأسها أن هناك سرّاً
هو علة هذه الأطوار الغريبة من إبراهيم ، فإن له ساعات يطول فيها وجومه
فلا تتحرك حتى شفتاه وأحياناً ينفجر غاضباً بما لا تكاد تفهمه فيحيرها
ويروعها ، وطوراً تنبسط نفسه إلى الحياة والدنيا وتهش روجه فلا يكاد
يطيق جسمه ، وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه جديد في الدنيا لا يعرف
إلا صفحتها المشرقة ، ليس كل هذا عفواً ! ترى ماذا يجيش في صدره هذا ؟

ألا يمكن أن أعلم؟ كلا ! لا أمل . فإنه كتوم ؛ كتوم متكبر كما يقول ، يعد الإفضاء بما في نفسه ضربا من الشكوى . وكل شكوى عنده ضعف لا يليق بالرجل . وأسفاه . لن أعرف أيجبني كما أحبه ؟ لن أسمع اللغة التي أود لو يخاطبني بها . لغة الحب المجنحة . لغة القلب النارية . كلا لا أمل في هذا أيضا . لأنه شيء ينكره خلقه الوعر .

واشتهت شوشو أن تقول بشجوها ، وإن تصب في أذن إنسان ما حديث حبها ، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتمان . ولكن لمن؟ الأختها ؟ وأسفاه ! إن هذا يكون جنونا مطبفاً ، فما تستطيع اختها أن تقدر الحب إلا بين زوجين ، وحتى بين الزوجين لا يليق عندها أن يجري كلام فيه . اختها نجية ؟ إنها ليست سوى كذا قنطار من اللحم ، وما عرفت قط إلا العفاريات والخرافات . ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شيء مما درجت عليه .

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كان لها عندها ثأراً . فمعبت لهذا وأسفت وانثنت تعتذر لها بنشأتها وجهلها ، ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل إلى أحد تبثه مافي نفسها ؟ وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم ، غير أن سميحة في الاسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن مكاشفتها بهذا الحب ، مسألة فيها نظر كثير . فإن سميحة أكبر من شوشو ، والكبرى تسبق الصغرى إلى الزواج ، وليس بمجهول أن سميحة ما انفكت منذ سنتين تتحجب إن إبراهيم وتحاول أن تستولى على هواه وتقننصر قلبه ، وابتسمت شوشو وهي تفكر في هذا ، فما يخفى عليها أن إبراهيم لا يطيق سميحة ، إنه على الرغم مما هو معهود فيه ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لا يحاول أن يداجي سميحة أويديها ، ولا يتكلف أن يكتمها أنه يمحقتها ، فهو يحرف اسمها ويدعوها « سوسه » ولا يكون إلا سيء الخلق في حضرتها ، بل لا يزال يفر من مجلسها كلما وسعه ذلك . وهي ؟؟ وأسفاه ! لا تنهزم ولا تبالى هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شدا عليه ومطاردة له ، ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن في

وسعها أن تكرر على يقين من أن «سوسه» لا أمل لها في إبراهيم ، وأن لها «أى شوشو» أن تطمئن ، إلا أنه لم يخف عليها أن كون (سوسه) لم تتزوج بعد ، سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ، ويجعل أملها هـى ، أى شوشو لا أقرب ولا أيسر . فنكست رأسها وقد أغرورقت عينها وزايلتها الغبطة التى كانت تحسها ، وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب فى صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذى يمكن أن يعطف عليها ويرثى لها فى هذه المحنة ؟ بل أين المخلوق الذى تستطيع أن تبيحه دخلتها وتفضى إليه بسرها ؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة فى هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أى حد أرضاها حبها لإبراهيم مستفردة وفى هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سنيكة ، وأن هذه الجدران الأربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وعن شمالها — محيطة بها مسدودة عليها فى حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله فى مصر ؟ ؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى إبراهيم لا يسعها أن تذهب إليه وتقول له : «إنى أحبك» كلا ! هذا أيضا مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأبى ذلك ولأنها لوائية الآن أن إبراهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن لها حبه ، ولكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب ، وما أدراك ؟ لعله الآن — فى هذه اللحظة بعينها — تؤرقه الحيرة والكمد — الا أن فى هذا العزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم أنه مثلها موجه بمكروب مهموم مؤرق . ولكن من يدرى ! حتى هذا العزاء التافه فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب إليه وترى ؟ ؟ والأسفاه ! كان هذا أمس — أمس فقط — ممكنا ! لشد ما يتغير كل شىء فى يوم وليلة ، بل فى ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاعتراف والإقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فلم تكن تخجل أن تجرى إليه وتدفع الباب فى جرأة وتوقظه إذا كان نائما ، وتجره من رجله وتمازحه وتداعبه ، وتكون معه كما تكون الأنثى المدللة مع أخيها الذى يحبها أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لا تدرى ،

وكل ماتدرية هو انها صارت تستحى حتى أن تلتقاه بعد أن عرفت مافى نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك إلى معرفة ماتصبو إلى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد . . من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . انها أمينة مخلصه وفيها وفاء . وانشرح صدرها فتسللت من غرفتها الى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة فى لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت إليها أن تتبعها فى صمت ولما صارتا فى غرفة شوشو قالت فاطمة وهى تفرك عينها .

— نعم ياستى .

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت :
— أريد منك أن تذهبي إلى السلامك وتنظري ماذا يصنع إبراهيم . فأفاقت المسكينة جدا ودقت صدرها بكفها وقالت : « أنا ؟ أنا ياستى ؟ » .
فأسرعت شوشو تزجرها عن رفع صوتها وقالت : « هس . لا تدعى أحدا يسمع ، نعم أنت ، وما الضرر ؟ »

قالت : « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلنى ؟ إن سيدى إبراهيم صعب لا ياستى ! » .

قالت شوشو : « لا عليك . سأعطيك فستانى الأخضر . إنه جديد » .

فقالت فاطمة وهى لاتفهم : « ولكن لماذا لاتذهبين أنت ؟ » .

نعم لماذا لاتذهب هى ؟ ! ياليت من يدرى كيف صار هذا عسيرا ؟ ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفى وجهها سهوم غريب . فأدركها العطف على ستها ، ولكن خوفها من إبراهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت :

— ثم إنه لا يلىق ياستى أن أذهب إليه فى الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول عني ؟ لا لا ياستى ؟ أتريدين أن يقتلنى سيدى الشيخ ؟

ولكن هذا العذر الذى تقدمت به فاطمة لتنجو ، هو بعينه الذى
الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت :

— لن تذهبي وحدك ، فسأرافقك ، وأقف فى الصلاة وأنت تتقد
إلى الباب وتفتحينه بلطف وتنظرين . فإذا سألك أو زجره أسرعت
نجدتك . افعلى لأجل خاطرى يا فاطمة .

— ولكنه لاشك الآن نائم ياستى .

لا لا لا .

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيما ترى أعوص . ولكنها ليد
مطالبة بالتفكير ولا بجل الألغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سي
لم يشتر لها فى هذا الشتاء كسوة ، وسيدتها نجية لم تخلع عليها شيئا من ث
القدمية ، فتوكلت على الله وخارجت تطلب المصباح فنعتها شوشو ، وما
معا فى الظلام والبرد ، وشوشو تسأل نفسها : « ما آخر هذا الحب ياترى ؟

الفصل الثالث عشر

((عهدا قطعت لعيني فكيف أنطلع الى عنراء ؟))

ما آخر هذا الحب ؟

في هذا كان إبراهيم يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره في الظلام ، وكان لا يستريح إلى النوم إذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة أو ألح عليه إحساس أو خاطر ، كأنما يخشى إن يفضح النور له سراً ، أو يهتك لما يخفيه سراً ، وكان امرء لا ينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان مذ أوى إلى مخدعه ، يدخن سيجارة في اثر سيجارة ، وكان يشعل الجديدة من القديمة ، ولا يجد للدخان طعماً ، ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهمها عما يكظ شعابها ، فشرع يلتمس تعليلاً لفتوره هذا جن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولاً أن الحواس - ولا سيما حاسة النظر - هي التي يرجع إليها الإرتياح إلى التدخين وأن المرء إنما يعتاد في الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويعقد سحباً صغيرة بعد أن ينفخه بفيه ، وأن يشمر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفثيه ، ولكن المهم هو رؤية الدخان ، لأن العين أهم الحواس وأوثقها اتصالاً بالدماغ . وأقدرها على إفادة الصور الذهنية .

ولكن هذا التعليل - على قربه من الصواب - لم يقنعه ، ووجد إبراهيم نفسه يتساءل : « هب النور مضاء ، ومعى . . . شوشو ، أكنت أنظر إلى الدخان خارجاً من فمي ومتلويّاً في جو الغرفة ، أم إليها هي ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكرر إلى ما يريد أن يتلهم عنه . وقال في عناد : « حسن . فلنواجه الموضوع » .

وواجهه في حزم وشجاعة واستعداد لاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من أخوى إلى جنسى ، ذلك ما لاشك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها ، وأن يقنع أهلها أن يزوجه منها ؟ كلا ! فإن في الطريق تلك البنت الخبيثة التي لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليها . وستكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهي ستشقى على الخالين ، ولكن أهون الشرين أن تياس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجها .

وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أن يخفقها ! وأنه لعذاب وأنه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفة التي يحاول أن يزرعها من قلبه . وطاف برأسه قول ابن الرومي :

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال : « صدق المسكين » ، وود في هذه الساعة لو أن معه ما طبع من ديوانه ، إذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ ، الذي ألهبته الحياة بسياط من نار ، وكربته الجواطر فراح يتساءل : « ما الحب ؟ وما الشهرة والحمول ؟ وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياء أن يهتدى إلى جواب مريح - وأي جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدى . وليس هذا بجواب . وإنما هو همسة الضعف ، ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومجدود ومكدود ، ومعروف ومغمور وعاشق وخلى ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بوقع الحياة ، والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هي ، واعتباره لها كاعتبارها .

« والخلاصة ؟ » وجلس إبراهيم على السرير ورد على سؤاله « والخلاصة أنى لن أذوق النوم في ليلتي هذه على ما أرى » وضابقه أن يكون أكبر ظنه أن يقضى الليل المقرور أرقا ، يناجى نفسه ويحاورها ويداورها على غير طائل . وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريده فينام .

فانطرح على السرير وتغشى وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولاً أن يتقى التفكير في أى شيء . ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافياً للنوم ، لأنه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى إلى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ . ولم يكن ضحكه إلا حركة غصبية لا عن سرور نفس ومراح ، فما عثم أن تجهم وهو يسأل نفسه وبعد ؟ وضاق صدره إذ لم يسمع مجيباً له على سؤاله ، فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ، ووثب عن السرير حتى إذا استقر على رجله تلفت وقال : « ترى أين المصباح ؟ ولم يسهه على كل ما به إلا أن يبتسم . أترى تجربة الأمس متعاد ؟ البقرة البارحة - ترى ماذا صنع الله بها - والليلة المصباح ؟ وألقى نفسه يعجب لحياة الريف التي لم ير منها شيئاً إلى الآن ، ويقيسها - متحاملاً عليها - إلى حياة المدن . ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذي تؤدي إليه سعة الأفق والقدرة على الإحاطة بالجوانب المختلفة - ردتبه إلى الإنصاف . فمضى يقول لنفسه إن المفروض أن المرء في المدن يصنع ما بدا له ، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة إلى التحرر ، ولا يدع للمرء مفراً من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد ، أما هنا في الريف فحياة أشبه بمناوشات مستمرة ، فالمرء يجد نفسه مثلاً يتناول طعامه وحده في أية ساعة . وقد تظماً في الليل فتجد القلة فارغة أو لا تجد القلة على الإطلاق . وهذا الشيخ على ، على كثرة ما أنفق على بيته هذا - بناء وتأثيثاً - لم يعن بأن يعلق مصباحاً في الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبترول ، ومرة لا يجد إلا قنديل زيت أو شمعة ، وقد لا يجد شيئاً من هذا كله . ويذهب المرء إلى الحمام فلا يستطيع أن يوصد الباب ، إذ لا مفتاح ولا رتاج ، وهذا عجيب ، إذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون في

الحوض عاريا فيفتح الباب بخادم أو واحد من هؤلاء الفلاحين الذين لا يدري إبراهيم أنهم نخدم أم اقارب أم من عمال الأرض . والواحد يذهب إلى حيث يشاء في الليل أو النهار ، فلا يسأل أحد فيما يرى إلى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش إبراهيم أنه لا يعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم في النهار راثنين غادين ، وداخليين خارجين ، وأدهشه فوق ذلك أنه لا يرى أحدا يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة ، بل لأحد يذكرهم أبداً ، ولم يذكر إبراهيم أنه رأى أحدا يلعب شيئاً خارج البيت - كل ما رأى من الألعاب ، وهو لا يعدو الورق أو الطاولة ، يؤدي داخل البيوت وعلى الكراسي أو الوسائد . ولم يعجب إبراهيم لهذا فإن الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذي يقضى يومه عاملاً في الحقل إلى كرة أو متوازين ؟ ولم يسع إبراهيم إلى أن يعترف على الرغم من كل ذلك بأنه يشعر أن هناك روحاً تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته - روحاً أو لعلها فتاة في ثوب قان من الصوف .. آه شوشو مرة أخرى ! تالله ما ألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس ! أتراه هجر السرير في هذا الليل المقرر ليعود إلى التفكير فيها ؟ أولم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة إلى وجوب القنوط والأقنط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرهمف أذنيه وتسمع ، وكانت حاسة السمع عنده قوية ، فخيّل إليه أن إنساناً يخلع نعليه . فهز رأسه ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب ووقف بجانب الحائط يترقب ويفكر . ما العمل إذا كان هذا الطارق لصاً ؟ ليس معه سلاح يدافع به عن نفسه ، ولا هو قوى مفتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فماذا يصنع ؟ وألهم في هذه اللحظة أن يستغل الظلمة فعاد إلى السرير فسحب اللحاف عليه وسواه لئلا كأنه نائم . تحته ليوهم القادم ، ورجع إلى حيث كان بجانب الباب واعتزم أن يدع اللص - إذا كان لصاً - يدخل في سكون ومن غير أن يعترضه ، وأن يتسلل

هو فيخرج ، وإذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا .

وسمع قرعة كأنما داس اللص المحتمل على بندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه : « سيكون هذا الظلام عوني وحليفي » ، لأن هذا الصوت تلتته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا . ونازعته نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الخاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدا مصراع الباب - وكان موارباً - يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعرض إبراهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل . إذن لن يوصد الباب على هذا الواغل ؟ وليس من الخزم أن يعالج لإخراج المفتاح والواغل منه قريب ، فلم يبق إلا أن يترك كل شيء للحظ ولإلهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأني له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلصق بالحائط جدا ، وحقق في هذه الكرة العجيبة التي بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ليس لها كف ظاهرة ، إلى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الأعضاء الغريبة ، فخطا بجرأة ، فما أسرع ما غير إبراهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى إلى ساقى الداخل وجرهما بقوة فوق صاحبهما على وجهه وندت عنه صرخة ايقن منها إبراهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن حماه عار الفرار من امرأة ، وحق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جباناً ، وتقدم إليها في ثبات وركلها برجله وصاح بها : « قومي أيتها اللعينة . »

فتوسلت إليه المسكينة : « في عرضك يا سيدى . في عرضك » فشد ذراعها بعنف وقال :

- ماذا تصنعين هنا يا بنت الكلب ؟ انطقي !

وركلها برجله .

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهي تنتحب « في عرضك »
وفاظ إبراهيم أنها تبكى وأنها لا تزيد على التوسل ، وأنه لن يقف على سر
هذه الزيارة ، فكاد يحن وقبض على عنقها وهو يصيح :

— سأقتلك إن لم تنطقي ، قولى ماذا جاء بك ؟

— أنا !

فدخل عنها وانتفض قائماً إلى مصدر الصوت في مدخل الباب .
ثم دفع فاطمة برجله وقال : « قومي هاتى المصباح » ومضى إلى الكنية
في سكون .

وقالت شوشو وتقدمت إليه : « معذرة يا ابن خالتي . لا داعي للمصباح »
أنا أرسلتها إليك ورافقتها حتى لا تخاف .

فلم يدعها إلى الجلوس ، وقال في جفوة متكلفة :

— أريد أن أفهم معنى هذا .

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شيء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف
عليها أنها كانت طائشة فيما فعلت ، وأنه مصيب في سؤاله ، محق في غضبه ،
ولكنها على عادة جنسها نسيت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت في نفسها
وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت تردد النشيج بجهد ، ولم يكن
إبراهيم ملتفتاً إليها لأنه آلى أن يتكلف الجفوة ، وأتيحت له الفرصة فاغتنمها
ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب في اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول
لنفسه وهو جالس لا ينظر إلى شوشو : « ان الحياة كالنظر الى الظلام .
والمرء لا يعرف أى شيء هذا المتبل عليه وإنما يخمن ويقدر ، كما يقدر
في الظلام ويخمن أى شجرة هذه التى تصادفه في طريقه ، وكما يحاول
أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شيء . . . والإنسان وحده هو الذى
يفكر ويتبرم ويعنى نفسه بهذا وذاك — وبالحياة والموت ، وبالمستقبل
وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، لقد كنت فى الصباح مع شوشو هذه فى

الحديقة، وما زلت أذكر وهى على صدرى تلك النحلة الصغيرة التى طارت فوق رأسينا ومضت إلى الحشائش وغرزت رأسها فنامت . فيا ليت أنا كهذه النحلة نحيا كل لحظة أتم حياة ، فإذا تعبنا ألقينا رءوسنا ونمنا ، أما لو أن شوشو ليست هنا الآن ! . مسكينة شوشو واقفة وحدها فى الظلام تحرق فى سواد اليأس الذى لا يتخلله حرق واحد من النور . . مسكينة مسكينة » .

ونفض ونمضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها . فتضوع إلى أنفه نسيم الروض العطر . ولم يكن يرى شيئاً ولكنه لم يشك فى أن كل ورقة على غصنها ، وكل زهرة وكل عود نابت - كل أولئك متأمر أن يذيع كل ما فيه من عبير وعطر ، وتنهّد وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيوّات الصغيرة متحابّة متعاشقة . وإلا لما اتسق جمالها كل هذا الإتساق . وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحداً فى الغرفة .

الفصل الرابع عشر

« حبيبى نزل الى جنته ، الى خمائل الطيب ليرعى بين الجنات ويجمع السوسن » .

- ١ -

كان أول مارآه إبراهيم من حياة الريف - غير ما فى البيت الأنيق الذى شاده الشيخ على - أحمد الميت راقدا فى حظيرة البهائم ، وكان إبراهيم قد اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وان يكثّر من الخروج الى الحقول والتجواب فى القرية ، على الأقل فى النهار ، حتى يجىء الشيخ على من الإسكندرية ، فقادته رجلاه الى هذه الحظيرة وهو لا يدرى .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة عرج عليها وارتمى فيها ، ولم يكن يدرى لاهو ولا سواه كم ساعة قضّاها هناك راقداً يغط ، بهامته وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ؛ وعلى أنه لم يكترث لذلك ، بل لم يكن يبالي كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك .

ولم يكن منظر هذا السكران الطافح بالغريب على ما يظهر فى القرية ، يدل على هذا أن إبراهيم رأى قريبا من رأس النائم حجرا منصوبا كأنما أراد واضعه أن يتماجن على النائم - وشهرته الميت - فرفع عليه حجرا كالذى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين إبراهيم ان أحمد أزعجه أحد آخر ، اذا استثنينا حمارا كان مطلقا فى الحظيرة وكان لا ينفك يذنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المداود أو بعض ما يوضع فيها . ويضاف إلى الحمار كلب - لم ينس إبراهيم انه رآه ليلة جاء إلى هذه القرية - مستلقيا عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس فى عينه فتختلج جفونه .

وقف ابراهيم ينظر الى هذا « الميت » ويفكر فيما ينبغي أن يصنع ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المجنون السكير وكيلا له ويعهد إليه في الإشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن عمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه وظن أن هذا قد يجديه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه ، وترك له فيه وائفه ليتنفس ، ولم يجد أن في وسعه شيئا آخر فأولاه ظهره ومضى ، ولكنه تلفت مرة قبل أن يخرج ، فإذا بالعمامة على الأرض مرة أخرى وإذا بأحمد الميت قاعدا يقول كلاما غير مفهوم .

والحقيقة أن أحمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف — لم يكن يطبق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن في اعماق نفسه بفائدة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حدوثه يأبى أن يضع على رأسه شيئا وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدودتان لم يستطع أن يفضي إلى ابراهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ولم تنفج شفتاه إلا عن تمتمة غير مفهومة ، ففكر إليه ابراهيم وزجره أن ينهض إلى بيته إن كان له بيت غير هذه الحظيرة .

فنهض احمد إلى قدميه وسأل ابراهيم :

— البيت ؟ لماذا اذهب إلى البيت ؟

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلقي على ابراهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو ممتعض من منظره :

— اغسل هذه الأقدام على جسدك ايها البهيم القدر .

ولم يكده يقولها حتى كان احمد الميت يخلع ثيابه ويقذف حذاءيه ويعبث في قبضه وسراويله المصفرين ، إلى النهر . فدهش ابراهيم وايقن أن الرجل لا مفر له من الغرق ، ولما كان لا يدري كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع إلى البيت ويخبر من فيه .

دفع إبراهيم باب الحديقة الخلفى بقدمه ، وانثنى إلى اليسار ثم وقف .
ذلك أن شوشو كانت حانية على حوض الزهر تقطف زهرة من ازهار
الأراولة وظهرها إليه ، فعض شفته وخطر له أن يتراجع غير أنه خشى
أن تنتبه ، فظل واقفا وقد بدأ المنظر يروقه ، فقد نفخت شوشو
الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثا وراحت تنزع غلاتها المستطيلة
المتحازية ، على مدار كأسها - واحدة واحدة - وتلقاها وهي تقول على
التوالى : « نعم ، لا ، نعم . لا .. » فوافقت « لا » آخر ورقة ،
فتجههم وجهها وتفلت ما بقى من الزهرة من بين أصابعها إلى الأرض ،
ولبثت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأة واقتلعت
زهرة أخرى وأعادت التجربة فكان ختامها « نعم » فى هذه المرة ، فلم
تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها وتضم كأس الزهرة
إلى فمها بكلتا يديها .

ثم كأنما طاف برأسها ان الكفتين متعادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا »
فالمسألة لم تتزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلا بد من
تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت فى انها بدأت التجربة الثانية كما بدأت
الأولى « نعم » فقد يكون عدد الغلات واحدا فى كل زهرة من هذه
الأزهار ، فإن كان هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعا لاختلاف
ما تبدأ به . وإذا صح أن البدايتين اختلفتا ، وان عدد الغلات واحد .
فهل غشت إلا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة إلا واحدة فى
كل مرة .

ولكن هل الغلات عددها متساو ؟ هذه هى المسألة ! ولحاجها حنت
على الزهر فقطعت اثنتين ومضت تشد الورق وتعد ، فاختلف الرقمان ،
فتهلل وجهها وبدأ السرور فى وقفها وحركاتها ، فقد صار التجريب

معقولا ، والأمر متروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم
بنتيجته من غير أن يتكلف المرء قطف الزهر وإفساده بتزع ورقه ،
وصاحت « لنبدأ من جديد » .

فعلم ابراهيم أنها محت التجربتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت
تنزع الورق في تودة وأناة وتثنى رأسها على صدرها في كل مرة ، حتى
بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها « نعم » طويلة ممطوطة كأنها
الصعداء تنففسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكنة لاتصنع
شيئا ولا تتحرك . ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذى
لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة وفي وجهها طول ، وفي هيتها
استرخاء كأن جسمها موشك أن ينهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك
الدراب .

فعجب إبراهيم لهذه التى كانت تطفو كالقراشة قبل دقيقة لماذا . وجمت
بغته وللنفس الانسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ، ولخفاء
البواعث التى تفضى إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى التقيض ،
وود فى هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد إليها البشر الذى كان ينضح به
وجهها ، والخفة التى كانت فى روحها ، والمرح الذى كان فى سلوكها ،
والضحكات الكروانية والدعابة التى كانت تركب بها الحياة نفسها - فى
ليال معدودات - غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفراح التى
لم تحتج يوما أن تفكر أو تمد بصرها إلى ما وراء اللحظة التى هى فيها .
ولكن هذا ليس فى وسعه ، وما هو بأحسن منها حالا ولا بأقل حاجة
إلى الغوث ، نعم الغوث ، ولكنه رجل مجرب وهى فتاة غريبة ، وهو
قد خاض العباب وغالب التيار وتدرّب على المكافحة ، وهذا أول عهدا
باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التى تعانيتها وهى تغوص وتطفو وتختنق
وتشرق وتدفع باليدين والرجلين وتحاول أن تصيح طلبا لانجدة فيخرسها

الماء الذى يملأ فيها ، وتومىء فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يغيث فى هذا
الحضم الطاغى ؟

أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟
ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى ، فقد شاء إبراهيم أن
يتجاهله وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلا لتوه ،
وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت الباب ، وتكلف البشاشة وفى
صدره أظافر تمزقه وبسط اليها كفيه وقال وهو يسرع اليها :

— ما أبدع الجو فى البكور ! هل أفطرت ؟

فماحتته كلتا يديها وسألته بصوت خافت :

— أين كنت ؟

فأبقى كفيه فى يديه ونظر اليها وقال بلا تكلف :

— ما أبدعك !

— إبراهيم !

— إنك تفرغين على الحديقة جمالا جديدا . أحب أن أخبرك أنى
اليوم مجرم . . لماذا تتراجعين ؟ أنتخلصين عني فى محنتي ؟ نعم لقد قتلت
رجلا . لا تراعى ! انه ليس إلا أحمده الميت ؟ غرق او هو يغرق الآن
أو لا ادرى فقد يعود إلى الحياة للمرة الثانية ! على كل حال ليست هذه
أول ميتاته إن صبح ما تحكون عنه .

ولما رآها حائرة مضطربة قص عليها ما حدث وبالحق فى الوصف
فسرى عنها واغرقت فى الضحك وجعلت هى تطمثنه وتؤكد له ان
لا خوف ان يقاد به .



وجاءت هى اليه بالطعام فى غرفته ، فلما جلس إليه على البساط
استندت ظهرها الى الكنبه فنظر اليها فقالت : « لا أحس جوعا » فالتفت
اليها وقال بلهجة الجدد الصارم :

— سأرعى لحيتي احتجاجا .

فقلت وهي تضحك :

— ولكن لماذا ؟ ما علاقة لحيتك بأن آكل أو لا آكل .

فقال : « تصوري منظر قريبك وقد ارسا حول خديبه وتحت ذقنه
لحية كثة ! إنه منظر يوقظ الضمير النائم . وما اظنك تترتاحين إلى لقائي
بعد ذلك ولحيتي في يدي . أفهمت الآن ؟ » .
فانتفضت ، فجرها من ذراعها إلى الطعام .

وبعد ان اصابا شبعهما قال : « والان أين القهوة يا فتاتي المهمة ؟
الا تعلمين ان لي معك حديثا خطيرا يتطلب كل ما في رأسي من ائزان وحكمة ؟
فلم تدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عتمت أن عادت
لا بالقهوة بل بأدواتها : بحق البن وحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت
أمامه تصنعها .

وقال دون أن ينظر إليها بصوت لا يكاد يسمع فكأنه يتنفس أو
يحدث نفسه :

— شوشو أيتها الفتاة الرائعة ، لقد رأيتك اليوم تنزعين ورق
« الأزاولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفاتنة ، تسألينها
عن مصيرنا . . .

فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم ، فأراح ذراعه على كتفها ومضى في
حديثه أو مناجاته .

— هممت أن أصرفك عن استنباء الزهر ، ولكني قلت أدع لها ذكرى
حميدة تنعم بها في الأيام . . . المقبلة . . . أترك لها حلمها الجميل وإن كنت
في شك من أن الأحلام ليست خطيرة . شوشو ، ان أنفاسك لا تتعلق أو
تحتبس حين ترينني مقبلا أو مدبرا . . .

فتمتت في حياء : « ولكني أسر . . . »

فقال « ربما » فرفعت اليه عينيها بسرعة فلم يعبأ بهذه الحركة ومضى إلى غايته) « على أن هذا أشبه بأن يكون شعورا أخويا منه بأن يكون أ. »
أ. تعرفين ما أعني ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الأقرباء في العادة . ولكن هذا ليس معناه أننا .. أننا .. أكثر من ذلك ..
اصمعي يا شوشو . لقد أخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت ، ولكن هذا لا ينهض عذرا لي : أنا المألوم . ماذا جرى ؟
أتبكين ؟ يا لله ! .. »

وجذبها اليه فأسندت خدها إلى صدره وهي تنشج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفا عليها وعلى نفسه أيضا ولم يسعه إلا أن يهمس في أذنها :
— شوشو يافتاني الساحرة . ازجري العين عن بكائها . أنك تعلمين أنني أتصنع . أنا كاذب . لا أعني ما أقول . إني مجنون بك وسأظل مجنونا . هذه هي الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسي إلى غيرك .

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فالتفت ذراعها بعنقه وقالت هامسة :
— أعرف ذلك .

وهدأت الأعصاب ، وبعد لحظة أدار إليها وجهه ولثم شفيتها ثم قال :
— اصغى إلى ، فما استطيع أن أرفع صوتي ، سأبكي إذا فعلت .
فلدنت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى خيل اليه أنه صار كالصخرة ، ولكن صوته ظل متهدجا على الرغم منه .

— أنا أكبر منك سنا وأكثر تجارب ، ولم يكن من جقي أن ادع الأمر بيننا يبلغ هذا الحد ، وعلى أن لك على صغرك وغضارة سنك وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم وأنا لأعلم كما تعلمين أن بيننا .. تفاهما .. تفاهما مباركاً .. ولست اعتقد أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعي . كلانا نخلق لصاحبه ، ولكن

لهذه الأمور . : مقتضياتها . : مستلزمات لامفر منها ولا معدى عنها ، إذا لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم أنه تحد للطبيعة : أن يتحاب أثنان ثم لشيء . الشأن شأننا في الحقيقة . والأمر لا يعنى سوانا ولكن الأيام مقلوبة ، والعادات والتقاليد سخيصة منافية للعقل والواجب . صارمة أيضاً . ونحن نوشك أن نحدث في سورها ثغرة . : أن نفتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل . . . ولست أراك تقوين على ذلك . ولا أحسبني خيراً منك . ينبغي أن نفتح عيوننا . عاجلاً أو آجلاً . أنا أؤثر أن يكون ذلك آجلاً . وهو أحلى وأعذب وأندى على النفس . ولكنه لن يكون الا حلماً مهما طال . ونحن ننسى أحياناً مصير كل شيء لا يساير التيار ، ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام . وإذا كان لابد من التحطم على صخور التقاليد فليكن ذلك . . اليوم .

فخنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت ، وكلتا ذراعيها محول عنقه ووجهها مدفون في صدره :

— لا أقدر . . لا أقدر . . مرة واحدة . . كلا لا أقدر

فسح لها شعرها في رفق وقال : « لا بد . . وانك لتعلمين ذلك . لا بد أن نكسر قلبينا » .

فقالت : « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا . : دعني أياها . . أمهاني وقتنا كافيا ، لا هكذا في دقيقة واحدة ، بالتدريج . ابراهيم . بالتدريج . . ليبقى لى شيء أذكره . أحلم به . أدخره للأيام السود . دع لى شعاعاً واحداً من النور ، لا أكثر ؛ لاتهمش حياتي كلها اليوم . لاتمخ دنياى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجاً ليحتمل » .

فابتسم لها — في عينيها .

وكما أن لمسه جسمها ألامه وفتره وسرى عنه أيضاً ، كذلك ضعفها قواه وأمرعزمه فقال :

— كلا ! يا شوشو . ليس هذا خليقا بك ، يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نخلق فوق مقاديرنا . وسيفسد كل شيء إذا لم نختم هذه الحكاية الآن ثم نهض مبتسمين . لقد غرسنا معا أجل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت مني النفس وريحانة العين والأنف — حسن منظر وذكاء مشم . وقد آن أن نقطفها . . يجب أن يكون قطفها كما ينبغي : لا ورقة ورقة ، فلا تبقى هناك زهرة . وتصوري جمال الذكرى ؟ ذكرى الزهرة الجميلة التي كانت لنا والتي لم نخف أن نقطفها . . لما أينعت . . سنزهي بذلك ونسعد أيضا .. حين نذكره نذكر زهرتنا التي لم ندعها تدبل أو تموت . . ويجب أن نقطفها بابتسامة يا شوشو من أجلك وأجلى . .

— أوه ! ان هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه .
— بل تقدرين معي . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أي شيء . وماذا يعيننا من الموت مادما نستطيع أن نسير في الحياة بقلب سليم ؟
فرفعت شوشو رأسها وقالت :

— أنت محق : يجب أن نسير بقلوب سليمة .
وتحولت عيناها إلى النافذة وارتفعت منها إلى السماء ، ثم ارتدت إليه ومدت يدها البيضاء ولمست شعره ومشطته بأصابعها إلى الوراء :
وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهي باسمة وفي صوتها حنو دافق :

— فلنقطف زهرتنا الآن ؟

فابتسم لها . .

والتقت شفاههما في قبلة طويلة ودارت الأرض حولهما : ثم أرخى ذراعيه فتخلت عنه وتناول كفها فلم أطراف أصابعها ثم اضطجع على

الكنبة وأخرج سيجارة وأخذ يلعب بها وهو يفكر ويبتسم ، ثم رفع رأسه وقال :

- شوشو ، ماقولك في مكثي أياما أخرى ؟ لقد كنت معترما أن أرجل ، لكنني أظن أننا نستحق أن نبقى معا قليلا : كأخوين ! .
فقلت وهي تنهض وتشده معها : « لقد ترفقت بي على الرغم من قسوتك » .

وغادرا الغرفة معا الى حيث أختها ،

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الخامس عشر

« قد دخلت جنتي يا اختي العروس »

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنأ ما عرف ابراهيم وشوشو في حياتهما : لا تفكير في شيء ولا أسف على شيء . وتلك لإحدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فافتر الحب بينهما بل زاد اضطرابا ، ولا كبر الأمل بل صار أضعف ، ولا أمحت الحوائل بل تكاثرت وغص بها الطريق • ذلك أن نجمة لم تكن لا عمياء ولا بلهاء ، ولو كانتهما لكان حسبها غريزتها تدرك بها ما لا ترى ولا تظن إليه بذكائها ، فما هي إلا أيام حتى لاحظت تخن شوشو على ابراهيم ورقة ابراهيم لشوشو ، فلم تروح الى ذلك وإن كانت لم تر طريقها إلى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لإبراهيم وواجبها نحوه وهو ضيفها دون التفكير في تعكير الأيام التي يقضيها عندها ، وتنغيص الوقت القصير الذي ينعم به في دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتيابها من أن ترى مقام إبراهيم في بيتها يسبغ عليه الصحة . وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار إلى الناحية التي هي آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للثقالة ، وقد كان رأيها دائما أن من واجب ابراهيم أن يتزوج مرة أخرى لتنظم حياته ويجد الروح والراحة في بيته ، وإن كان هو لم يشك اليها ولا بدت منه أية رغبة في هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها ما دام أن في الدنيا فتاة صالحة للزواج . وهل ثم فتاة غير صالحة ؟

فكرت نجمة اذن في تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تعن نفسها بما

يبدو من ميل إبراهيم لشوشو ، وما قيمة هذا ؟ ان هذا الميل عندها لاقيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن إبراهيم عاد بعد ثمانى سنوات يفكر فى المرأة ويشتاق إلى حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها ؟ إنها بنت خالته وليس بينهما حجاب فى مقدوره دائماً أن يراها وهذا كاف جداً . ثم إن الفكرة أن يتزوج أختها الوسطى « سميحة » والأختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصالح ، ودلما يستوجب أن يعود الشيخ على من الاسكندرية بهذه الأخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ؟ أو أن يبعث بها ويطلب شوشو بدلا منها ، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفتن إبراهيم إلى الأمر ويرى فيه تعمداً فتحبط الحيلة ويفسد التدبير ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنف بل تمرد . إذن فلتبق شوشو ولتعد أختها سوسو لتكون إلى جانبها ، وعليها أن تصرفه إلى نفسها شيئاً فشيئاً ، وهى فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، ومستكون نجية فى عونها ، ولا بأس — إذا استدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفاً ، والمهم على كل حال أن لا يدرك إبراهيم أن هناك مؤامرة لثلا يفلت العصفور ، والباقى على الله وبه التوفيق ،



وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسة » كما يسميها إبراهيم ، كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يتعارفا — يتعهدان الحديقة ويقطفان ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينا بها الحجرات ، ويستدرجان الأرانب من السرايب التى تحفرها فى جوف الأرض ليقتنصاها للبيت ، ويجلبان البقرة — وفيما عدا ذلك ينعمان بالقرب والحب ، فإذا أتعبا الجرى أو المحاورة قعدا على الأرض أو البساط أو غير ذلك تبعاً للأحوال والمكان

الذى يتفق أن يكونا فيه ، فيقول إبراهيم ، وهو يلهث ، وقد شعر بالجوع :

— كفى اغواء ، إيه يا حواء إنك لا تزالين كما كنت ، بل شرا مما كنت ، مصدر اغراء وفتنة ! بعد كل هذه البصير أيضا ! لا بأس ! أظن أن من سوء الأدب فى حقك أن أذكر الطعام لأن منظرِكَ ساجر وأنت مهالسة هكذا . ولكن ..

فتقول شوشو : « لقد أذكرتني ! إني أكاد أموت جوعا . كلا كلا ! لست أعنى ما أقول ! ان النظر إليك يغنى عن وليمة ، أليس كذلك ؟ ! » ، ويضحكان .

وفى الليل بعد أن يأخذا حظهما من السهر تهيم بالقيام إلى مخدعها فينهض إبراهيم ويرجو منها أن تبقى ويرتب لها الوسائد على الكنبه ويقف - وهو متكئ على النافذة فتسأله :

— ولكن أين تجلس أنت يا آدم ؟

فيقول : « أقف رشيقا . كما ترين مستندا إلى النافذة وأقص عليك أسطورة » .

فتقول : « أما الأسطورة فهاتها ، وأما الوقوف فلا . كن طفلا واقعد على البساط » .

فيجلس إلى جانبها ويقول : « طفل ! أنسيت يا حواء انى قديم كالجبال ؟ » . فترفع حاجبها وتبتسم وتقول : « وأنا أيضا يا آدم » .

— كلا ! على التحقيق .

— ولكن ...

— لا أبالي هذا التبثيل . إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه .

فتصمت برهة ثم تقول :

— قل لى يا آدم .. هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟

- من يدري ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء رأتهما هذه الجدران !
- ولكنها لا ترى .
- صحيح ولدت كفيفة ومن أجل هذا تكون أحد سمعا ، وأقوى ذاكرة . ان هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيرا من المر والحلو ، والعنيف والرقيق ، والمضحك والمبكي .
- أظن الجدران تبتسم الآن يا آدم .
- تبتسم ؟ نعم . ولكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا عاشقين — آدم وحواء في جنتهما .
- لقد نسيت . إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا —
- فسنخرج من الجنة يا آدم !
- شش ! ان الجدران تحب العشاق ، فترفضي بها ولا تخيبي أملها والاكسرت قلبها . هذا جدار يريد أن ينقض من الآن .
- فتضحك وتقول :
- ولكن الحيطان ليس لها قلوب تكسر ؟
- بالطبع لها . إن قلوبها خير القلوب وأمتها أيضا .. قلوب من الحجر .
- ليت لنا مثلها .
- ويشعل سيجارة فتقول له منذرة :
- بعدها أقوم .
- أمرك يا حواء ،
- وبعد برهة تقول :
- لم تقص على أسطورتك يا آدم .
- فيقول : « أظنك تعرفينها . إنها أسطورة جندي طارئ وصف له الناس ما في المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن الملك والأميرة الجميلة ابنته . . فسألهم كيف يستطيع أن يراها ؟

حصن عظيم له أسوار عالية ومن حوله القلاع . لا يدخله أو يخرج منه غير الملك . لأن المنجمين قالوا إن الأميرة بنت الملك ستزوج جنديا بسيطا ، فغضب ولم يستطع أن يحتمل ذلك . فقال الجندي لنفسه : « لاني أريد أن أراها » .

ويسكت فتقول : « وبعد ؟ »

فيقول : « وبعد . . فإن الأساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها » .

فتسأله : « أنا اذن من خيالات الأساطير ؟ »

فيقول : « يوشك أن تصبحي ذلك يا حواء »

فتقول : « واأسفاه ! وأنت أيضا يا آدم . ولكنها نعم الخيالات تعمربقية العمر ! أليس كذلك ؟ »

— نعم .

وتنهض قائلة : « جاء وقت النوم نومى على الأقل »

فيتناول المصباح ويقول : « سأرافقك إلى بابك »

ويلف ذراعه بذراعها ويمضى بها ، وتقول له وقد بلغا رأس السلم :

— آدم .

— نعم .

— « أكان آدم — آدم الحقيقي — يقبل حواء قبل أن تنام ؟ »

فيقول : « أه . . آه . . هكذا ؟ »

القسم الثاني

إذا امتلأت السحب مطرا

أراقته على الأرض

الفصل الأول

(في عنقه تبيت القوة ، وأمامه يدوس الهول)

— ١ —

« هل قرأت دumas ؟ اعنى الفرسان الثلاثة ؟ » .

فهز الدكتور محمود رأسه أن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد الى اليمين ليعطفه ، وقال « لماذا » .

فقال إبراهيم : « اذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم في غير ما يمكن أن نسميه سرورا أو حالا عاديا . فقد كان بورثوس محنقا نائرا ، فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها وصار هم كل امرئ أن يرضاه ويتألفه ويسرع الى خدمته وأن يلبي طلبه بأسرع مما ينطق هو به » مخافة أن يحدث ما هو شر من ذلك « — أى من وجوده — أهو يريد قشدة ؟ اذن يندفع الموجودون ليجيشوه بها . أم الجعة طلبته ؟ فهم يحملون على البار » .

ولما كان لا يقنع بشيء ولا تقف مطالبه عند حد ، فان القيامة قائمة في الحانة ، وبورثوس يخور كأن في جوفه ألف ثور ، ولم تعد الحانة حانة ، بل صارت هيكلًا لبورثوس ، وكل من عداه من خلق الله مذهوب به الى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على — أو على الأصح — بعد أن زلت قدمه وهو يطارد أحمد الميت ، واحتجنا أن نحمله الى غرفته .

فضحك الدكتور وسأل : « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليئني كنت حاضرا » .

فقال إبراهيم : « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظرا لن أنساه ما حييت ، الشتائم والأوامر التي كان

يصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدرى أبد الدهر ، أوكد أنه كان منظرأ « هومريا » إذا كنت تفهم ما أعنى ، ليس فى وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذى كان يحيط به . وللشيخ على الفضل الأكبر فى خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عمليا فى « محاولة » نقله إلى غرفته . وكان بحكم العادة فيما أظن ، يصدر الأوامر ويجهده — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذى يقع من خدامه فى تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الأكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالمخالف أو المخطئ . أراد فى خلال هذه الرحلة أن يصل إلى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يخنق ، وكاد يتخلى عن كتفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل لكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأني بأن أمرني أن أدفن نفسي حيا ! .

فقيهه الدكتور ثم قال : « إن عمى غريب ، لعلك لم تغضب ؟ »

فقال ابراهيم : « أغضب ؟ كلا . أولى أن أغضب من العناصر الطبيعية أنه مثلها . ولكن الكلاب هى التى ضايقتنا . فقد اختلطت بالموكب وجعلت تتوثب وتنبج . ومن الغريب أنها كانت تسبقنا إذا صرنا إلى مكان فسيح ، حتى إذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها إلا أن تمشى بيننا وإلى جوانبنا وفى حيثما يكون وجودها صخرة فى سبيلنا ، والشيخ على يصيح بنا أن نخمس الكلاب الحق أن صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد خارت قوى اثنين أحدهما ذلك العبد العملاق . ولست أدري ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الأمر لأحمد الميث بأن يفرق نفسه فى التربة — الليلة — وأن يجيئه فى الصباح جثة منتفخة . وأمر « زناره » بأن ينارله سكيناً ليذبحه حالا وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدبت رجله بشدة ، فأمر أن ان يقطعها بالمنشار : وأخيراً وضعوه على السرير ووقفوا يمسحون العرق المتصبب بأكمهم الزرقاء ، وأيديهم الأخرى على صدورهم الصاعدة

الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الاعياء فلعنهم وأمرهم أن يجلسوا على الأرض وأنذرهم بالشنق بعد أن يستريحوا . الموت كان أقل ما يتوعد به أو يأمر .. ثم دخل النساء والأطفال بعد ذلك فأسر إلى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذين حملوه بمقادير متساوية من السمن والجبن والقمح ، وهكذا هو أبدا .. »

— ٢ —

لم تكد مركبة الدكتور تبلغ الدار حتى كان أحمد المييت يحل الجواد الذي وقف يهز جانبيه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شدد به ، والدخان يتصاعد من جسمه على الرغم من البرد والضباب .

وأسرع الدكتور وإبراهيم وراءه إلى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالزراية والتهمك . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « في يدها الردة » — كما يقول أهل القرية — فدلكت له قدمه ولفتها ولكن الدكتور جسها مع ذلك فألقى الأمر هينا ولا كسر هناك . وأوصاه أن يلتزم رقدة نخاصة سبعة أيام على الأكثر فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على أن يسجن سبع سنين على الأقل .

ولما رآه لا يحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه .

ولم يبالغ إبراهيم في الوصف فقد كان الشيخ على مثل بورثوس : ضخما هائل الانحناء قوى البنية كثير الارعاد والإبراق سريع الغضب حاد الكلام ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ، وكان يسمى الشيخ على لأنه جاور في الأزهر زمنا طويلا ثم انقطع عنه بعد وفاة أبيه . وتزوج بنت عمه نجية ، وتخلى لزراعته الواسعة وكثر ترده على الاسكندرية فاشترى له بيتا في ضاحية الرمل على شاطئ البحر وخلع الجبة والقفطان والعمامة واعتاض منها ثياب « الأفندية » غير أنه كان إذا عاد إلى « البلد » يكر إلى جلاباب من الصفوف والطربوش .

وتلقى وهو فى الأسكندرية كتابا من أحمد الميث ينبئه فيه بأن زوجته
نجية تطلب أن يبعث إليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له
فعادا معا .

غير أنه قبل أن يؤوب بها أحس بألم فى أحد أضراسه فرأى أن يعالجه
قبل السفر ، فقصده إلى طبيب يعرفه وكان الخادم جديدا حديث العهد
« بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم خطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض
له فدفعه صاحبا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتراحم
وهى خارجة من فيه وانحط على أقرب كرسي .

وكانت فى الغرفة سيدة تنتظر الطبيب ، فأفزعتها الزلزلة التى أحدثها
الشيخ على ، وهاجها اقتحامه الغرفة عليها فنهضت ودنت منه وصاحت به :
— أخرج من هنا يا قليل الأدب .

ولكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر
على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب .
— أقول لك أخرج من هنا يا وحش .
فوثب إلى رجله وقال :
— أتعيننى ؟

قالت : « نعم . وان فى بقائك هنا وردك علىّ لدليلا آخر على أنك
سوء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس فى قفص »
فغلا الدم فى رأسه ولكنه تماسك وقال :

— بأى حق تجترئين على مثلى بهذه الألفاظ ؟
فلم تراجع وصاحت به :

— أترد على ؟ أتحدث ؟ إن هذه عيادة طبيب وليست ميدان
مصارعة للثيران ثم إن هذه غرفة للسيدات وليست مجلا للفقلة . أخرج
من هنا .

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما يبيحث عن شيء ثم رفع وجهه المحتقن وقال بصوت متزن :

— إنك تعتمدين على امتيازات جنسك . ولكن هذا لا يبيح لك أن تصفى الناس بمثل هذه الألفاظ . على أنى آسف لأنى دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه إلى أنها للسيدات وأعتذر لك . ولكنى أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثلى بهذه العبارات . .
فقاطعته :

— ولماذا قرعت الباب ؟

فقال وهو فى دهشة :

— لأدخل

— ألم يكن الباب مفتوحا ؟

فسكت . فأعادت عليه الكرة :

— انطق . ألم يكن الباب مفتوحا ؟ ألا بد أن تحدث ضوضاء تمزق الأعصاب لتعلن إلى الدنيا إنك داخل ؟ ولماذا شتمت الخادم ؟

فرجدا لسانه وقال :

— لأنه حاول أن يمنعنى

— أنه كان يحاول منعك من أن تسيء الأدب بالدخول فى حجرة السيدات . ولماذا ضربته ؟

— بأى حق تسألين ؟ إنه كان وقحا .

— ولماذا تدخل الغرفة كالقنبلة ؟

— لم يحصل هذا منى .

فقالت : « لا تكن سخيفا . لقد دخلت كالوحش وارتميت على الكرسي كالوحش ولم تكلف عينيك النظر ... »

فقال مصرا : « لست كالوحش . ولا جق لك في هذا الكلام . »

فألقت إليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب .

وظهر الخادم في الباب فخرج الشيخ على ولم ينتظر الطبيب وسافر مع سميحة إلى البلد . فلما بلغها كان ما حدث له لا يزال يحز في نفسه ويهيجه فلم يكذب يلقى أحمد الميت ويرى منه بعض التلكؤ في تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فزالت قدمه وكان ما تعرف .

ولم يفث الشيخ على أن يقص ما حدث له وأن يؤكد أنه سيخطفها لا محالة يوما ما .

فقالت نجية : « تخطفها ؟ يا خبر اسود . »

فصاح بها : « دافعي عنها . . لك الحق . . الكلب لا يعص أذن أخيه . . ولكني سأخطفها فإنها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور - وكانما أراد أن يطمئن نجية - : « ولكنك لاتعرفها »

فقال الشيخ على ملغزا : « ابق معتمدا على هذا . سري »

الفصل الثانى

(المرأة التى هى شباك ، وقلبها اشراك ويدها قيود)

نظر إبراهيم إلى ساعته فالفأها الثانية عشرة فقال : « أوه »
ونفض .

فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة : « ماذا ؟ »

« النوم يا صاحبي . جسمى متعب .. وهذا الدفء يزيدنى تفتيرا » :
فقد لهُ الشيخ على يده وهو يقول :

بـ طبعاً . طبعاً . ساعد لك ثلاثة أضعلك فيها الليلة الآتية

وانحدر إبراهيم إلى « السلامك » وهو يعجب أين ذهب الباقون :
الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ونجبة وأختها ، ولما لم يهده
التفكير إلى شيء خلع معطفه وارتمى على السرير وتغطى ونام .

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع فتكرر
النقر .. يا عجباً .. فى كل ليلة حادث ؟ مرة تكون البقرة وأخرى
تكون الزنجية واليلة ماذا ياترى ؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف
يمكن أن يكونه ! من عساه أن يكون غيره .. شوشو .. لا لقد قطفا
زهرتهما وانتهى الأمر .. قطفاها ولم يذبلها .. واحتملت شوشو أن
تقطفها ، ولم ترتجف يدها وإن كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة :
ولم ترق دمعة ولم تنهد وإن كان فى جوفها بركان مضطرم . ولم يشحب
وجهها وإن كانت حيانها قد جفت واستطاعت بقوة حبها أن تسمو وتحلق
فوق « الحياة » فيا لها من ..

نقرة أخرى

فرمى اللحاف ووثب الى الأرض في خفة ومضى الى الباب وقال من ورائه
— دون أن يفتحه — بلهجة السأمان :

— من هذا ؟

— أنا أفتح يا بن خالتي . .

صوت سميحة — أو « سوسه » — كما يسميها . . ماذا تبغى ؟ . لأى شيء
تجىء في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بباليه إلا كبل سوء ،
وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لا يكاد أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلمها
ليست سوى رسول .

« افتح امال ! » بلهجة الضجر .

ففتح — وهل كان يسعه خلاف ذلك ؟ . ووقف في مدخل الباب
— حجر عثرة — فألقى في يمينها مصباحاً ، ولمح شبحاً عند باب السلم .
فهي ليست وحدها اذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق . .
وقال : « ماذا جاء بك الآن ؟ » .

فابتسمت له — ولم تكن دميعة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها
نبرات :

— ألا تمهلنى ربّما أدخل ؟ أعوذ بالله ؟ ماذا جرى لك يا بن خالتي
تتركنى واقفة أنتفض من البرد ؟

وأدرك ابراهيم أن لاشيء هناك يدعو الى القلق على أحد ، وساء
هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضاً تعتمده وخاف
ما قد يجر اليه سبماحه لها بالدخول في هذا الوقت ، من التأويل
والتخريج وهي تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خمار ، ولا يبعد
أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطارده التي اتعبته وأرهقته وبغضت
النساء جميعاً اليه . وإذا عرف أهل البيت أنها زارته على هذا النحو وأنه
تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شيء لا يفهمونه ؟ كلا ؟ يجب أن يمنعها مهما

كلفه ذلك ؟ وماذا يخشى ؟ إنها داهية خبيثة ولكن شر ما يدخل في طوقها ،
وقد وطن نفسه عليه ، وكذلك شوشو .

وقال : « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً » .
فضحكت ولم تنهزم وقالت وهي تدفعه لتفسح لنفسها طريقاً .

— بلاش دلح ، أتحسب أنى بجئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت
معى فاطمة وهي تنتظرنى .

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفاً في مكانه فلما وضعت المصباح
وجلس قال :

— اذن أخرج أنا :

فقالت : « عجيب هذا ! ؟ وبعد أن قلت لك إن أختى تعلم ؟ » .
فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة
النبرات :

— إنى سأصعد إليها وأبلغها أنى لا ارتاح إلى هذه الزيارة وأن الإذن
بالدخول علىّ — وان كنت ضيفاً عليها — يجب أن يكون منى أنا
لا منها او من سواها . ليس احد وصيا علىّ ، اذا كذت انت تحت
الوصاية .

فدقت كفها بكف وقالت محاولة ان تنقل المسألة عن هذا الوضع :
— ولكن أى ضمير في حضورى وانت ابن خالتي كأخى ؟
فقال : « إن كونى ابن خالتك أو عمك أو من شئت غيرهما لا يجيز
لك هذا ! » .

فلم تراجع وخيل لابراهيم ان كل غرضها أن تقضى ذقات عندده والسلام ،
وانه لا يعينها كيف تقضيها ، ما دامت تقضيها .

وقالت : « كأنى لم اعد من الأسكندرية اليوم ، ولم ارك منذ
شهور ؟ » .

فعاظه إلحاحها وازداد مقتته لها ولم يعد يتقى ليجاعها بالكلام الصريح
وقال :

- هذه الزيارة في الليل - بعد منتصف الليل - يسهل جداً أن تعد خلوة
مدبرة . وأنت تعلمين أنى برىء من ذلك ولا يدلى فيه . وتعلمين أيضاً أنه
ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لا تجيز توريطى فى مثل هذه المواقف
التى لا أرتاح إليها ولا أستطيع احتمالها . ثم إنك فى قميص النوم أيضاً فكيف
أنظر إليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين
يعلم . .

فقاطعته وقد فزعت :

- أثنوى أن تخبره ؟

وكان سؤالها هذا وما نم عليه من الفزع زلة منها ، فأدرك أن الشيخ على
لا يده له فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن
يعرف إلى أى حد يسعه خوفها من الشيخ على فقال :

- من واجبي أن أخبره . .

فأقبلت عليه تتوسل إليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بآبائه ، وقد أخذت
الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ولكنه أبى أن يعد بالكتمان وقال
ويده على مفتاح الباب :

- إني أريد أن أنام .

فخرجت .

- ٢ -

ولكنه لم ينم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة مأكرة . ويحسها بكل جارحة فيه ثقيلة
بغيفية ، ولم تكن دميمة ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضاً ،

ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجرا حين تكون معه ، كان إذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هي محمد الله على الغضون وتشكر له إن لم يعث في ووجهها لحية . وسر هذه الكراهة التي نمت كالسرحة ، أن سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحجب إليه ولبت في محاولة « توريطه » أمام الأقارب والمعارف لثوهمهم أن كلا منهما - هي وإبراهيم - يصفو إلى الآخر بما هو أقوى من الود بين الأقارب ، ولم تكن هي تحبه أو تعباً به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فحزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعوضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة محمد في الرجال ولا تكون في النساء - عوضاً عن الحياء - إلا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين : إبراهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن إبراهيم أسمى مقاماً ثم إنه آثر عندها لأنه قريبها فلتهد إليه سميحة ! أما الدكتور فثم شوشو تنتظره إذا شاء ولا يضيره الانتظار لأنه أصغر سناً من إبراهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففى وسعهما أن يصبرا ومن أجل هذا جعلت تلقى سميحة على إبراهيم وتغريها ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو ومحمد لشوشو في سرها أنها تنفر منه ولا تقبل عليه فإن ذلك منها اعون على شحذ رغبته وادعى إلى إطالة « الحبل » حتى يأذن الله وتزوج سميحة .

ولم يكن إبراهيم يعرف كل هذا - وأنى له أن يعرفه ؟ - ولكنه كان يلمح امارات الرضى من نجية عن سلوك سميحة ويشعر شعوراً غامضاً أن بينهما تفاهماً أو اتفاقاً - قد يكون صريحاً وقد لا يكون - على مداردته وتوريطه ، فكان هذا يستفزه ويستثير نغمته ، وينفره ، ولو أن الأمر جرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر إبراهيم في سميحة ، أو على الأقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت .

وكان الله شاء ان تكون حياة إبراهيم كلها حرباً ومشاكل : فما طلب

أمرا أو اشتهت نفسه شيئا إلا اكتظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أذى أمها . حتى ماري - آه مسكينة ماري ، لقد نسيها - غرقت قطرتها في الأفيانوس الذي أزخره حب شوشو . ولكنها قد تسلت عنه ولا شك ؟ - حتى ماري كانت علاقته بها مشكلا . هو الان . تقف سميحة في وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه . ويسد شيطان خبثها كل فج أمامه . ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو إلى الوجود وتقدمتها في الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون له زوجة ؟؟ كلام فارغ . وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هذا القضاء المالحق ؟

ونهض إبراهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذي قسم لشوشو ، سيزوجونها يوما ما ، واحدا لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه . واحدا كالدكتور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض . وهما استطاعت أن تجترىء وحبست نفسها عن التزوج فإن هذا لا يكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لأنه هو - إبراهيم - أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق - تحترق في الجحيم الذي أضرمه بيده . ثم قذف بها فيه ؟؟ الا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وإن تبعته لعظيمة . وهبه غير مسئول فإن عليه واجبا لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة ان تعترض طريقه وتأخذ عليه متوجهه ؟ ما سميحة ؟؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ؟ من أجلها يترك شوشو تعاني الغصص ؟ من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ؟ لا يفصلهما شيء . غير ان أيديهما لا ترتفع ، وشفاهما لا تلتقي ، وانفاسهما الحارة لا تبرد ؟ كلاهما يجب أن يصرع رغبته في الحياة ، كلاهما ينبغي أن يغيب - وهوحي جدا - في فراغ الموت المظلم - يجف ويدوى . ويرفض الماء الذي يرويه ، - ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق وتغور عيناها وتعمق الكهوف حواها ، وتنقلب تغريداتها نعبا وفتنة صوتها حشرة ، لأن سميحة تشاء هذا ؟؟

لأنى انا ضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحترقهم من أعماق قلبي ،
لأنى لست من طراز بروميشيوس ؟ لأنى لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة
شخصية أنانية ؟ « أنا » دائما ، و « أنا » فى كل شيء ، يحسبى أن فزت منها
بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تغرق فى اللجة الطامية
التي دفعتها اليها ! أتركها تحترق فى النار التي أوقدتها وعجزت عن
إخمادها .

كلا كلا ! لن يكون هذا .

وارتاح لما انتهى إلى ذلك ورمى إلى الحديقة نظرة مطمئن إلى ما صمم عليه
وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت
السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف خافق فكأنما هناك
أشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الأشجار الجاملة
« فترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

« اما خاطيء واحد فيفسد خيرا جزيلا »

- ١ -

— آه زوزو .

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بحبيب جلبابه وتخرجان لإزاراه من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيها ، ولم يكن أحب إلى الشيخ على ولا أثلج لصدره من أن يصبح على وجه فتاته « زوزو » ولم تكن وحيدته ، فإن له غيرها ابنا هو محمد ، ولكن « زوزو » آثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيراً ما كان إبراهيم يعجب لذلك منه ويقول له إن الولد — لا البنت — هو الامتداد الطبيعي لحياة المرء فيزال الرجل الطيب رأسه ويقول :

— كلا يا صاحبي وليس لي ثأري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضاً . أنت شاب . فن حقلك أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي لا يؤثر فيه . فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه — بصوت خافت متهدج :
— للحياة كما للأيام فصول . ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل فقد يكون الربيع أياماً والتخريف أعواماً ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء التخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له في عمره ، وأن ما بقى من رحلته . في هذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجوداً » منه بأن يكون « حياة » . استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجرى فيه « الحياة » . الأولى ، كما يجرى النازل من « الترام » خطوات إلى جانبه بقوة « القصور » الذاتي عرف المرء أن أذنه التي كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع

بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس . هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن انتظام . وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها : ونضارتها ، ويهن استيلاؤها على نفوسنا ويضعف إغراؤها لخيلنا ، وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفى وتتساقط على اليد ويطيها . نسيم هنا وهنا - متى صرنا إلى هذا فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب ، إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم انها إنما تحبى « ذكرى » ذلك . ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء .

ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الكلام :

- وأنعم بالصبيان . يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا يحملون الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقا فى هذه الدنيا . ويفوزون بحسن الذكر وطيب الأحداث ويشرف بهم الأصل الذى هم فرعه ، ولكنهم يا صاحبي بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « اصولا » لأنفسهم ولا يعودون « فروعا من غيرهم » . . . ثم . . - هذا يا صاحبي أوجع ما فى الأمر - . يحتلون المكان الذى نخلية نحن ، ويجعلوننا نشعر أننا أخليناه لهم . وما أكثر ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلائه . أن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل هذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على الدنيا - نعم يحتملوننا ولا يبخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا ويحترمونا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأننا محسوبون على الماضى مضافون إلى آثاره - يصغون إلينا - هذا صحيح - وقد يطبعوننا ولكن بلا حماسة ولا اقتناع بل على التسامح .

فيقول إبراهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعذوبة لهجته على الرغم من المرارة التى فيها .

- صحيح ه لقد كان يوليسيس فحلا في زمانه . طوف في الدنيا بشجاعة
وغامر بقوة . ولكن تلماك هو الذى نجعل بالنال إليه ونوقظ له قلوبنا
وعقولنا .

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

- ولكن البنت شيء آخر مختلف جدا ، ويظل أبوها - حتى يحل زواجها
محلها - مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه من طفولتها ، لايزويه
في نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجته العادة . كل صفاته المحبة تزداد على
الأيام رقة . اخوتها الصبيان - على حبها لهم - ليسوا سوى صور ضعيفة
فاترة من ذلك الأصل العظيم وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو
محور وجودها وقطب الرضى في حياتها . وجه لها سماوى ملائكى . .
ليس من هذه الأرض . لا يشوبه ولا يعكر صفوه الاحساس بأنها ستحل
يوما محلها ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير في نفسه ذكرى مهذبة لحبه
القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الأبوى الذى هو من أسعد
وأقدس أسرار الحياة .

وكانما يتذكر فجأة شيئا يرفع رأسه ويقول وهو يحرق في وجه
إبراهيم :

- كيف تستغرب ؟

فيقول إبراهيم : « ماذا ؟ » .

فيقول الشيخ على مستأنفا : « وأنت القائل - لا أذكر في أى كتبك - إن
المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى »
ويضحك .

فيقول إبراهيم : « هذا أكثر مما كنت أعنى . واعترف أنه لم
يخط لي » .

وبينا كانت « زوزو » تداعب أباه وتفيض عليه من حبها وإشراق نفسها ، كانت أمها نجية قاعدة في غرفة أخرى على الوسادة ، وأمامها الموقد على مستداره أباريق القهوة كبراه وصغراها ، في واحدة منها القهوة ، وفي الثانية ماء مغلى وهى ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماسا للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لا تزال مستلقية فى سريرها ، وسميحة تروح وتجيء وتدخل وتخرج ، وفى يدها مكنسة وهى لا تصنع شيئا وكأنها تصنع كل شيء .

وكانت نجية وهى قاعدة على الوسادة وكفها على كرشها « والشال » يغطى رأسها وأذنيها وظهرها ويجمع طرفاه على صدرها . تفكر فيما يكربها ، وهى لا يكربها شيء سوى مستقبل سميحة ، ولا تحتاج أن نقول إن مستقبل أية فتاة فى رأى نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم . لأشياء غيره ، وقد أدارته فى رأسها مائة ألف مرة واجترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الأحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق ، ومن حقها أن تولى الأمر هذه العناية ، فإن حادثة حياتها الوحيدة هى زواجها ، به استغنت عن الإقامة فى مصر بعد وفاة والديها ، وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ، وأن تكفل أختيها ، وأن تعلمهما فى أرقى المدارس الفرنسية فى الإسكندرية ، وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ، فقد كان هذا خاطرا مخامرا وما خلت إلى نفسها لحظة إلا راحت تتصور أختها هذه معقودا لها على واحد ومزفوفة إلى آخر ممن تسمع بهم أو من لهم بزواجها أو بالأسرة صلة ما ، ولم تكن أحلامها ، على خلاف المألوف فى الأحلام ، منطقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن

يخطر على بالها ، فترى بعين خيالها واحدا وقد تقدم إليها ليلبسها سوار « الشبكة »
وجاء ثان في حفل من الأخوات والأقارب والأصهار ليعقد له عليها ،
وأقيمت الزينات وجيء بالمغنين والمغنيات وأحاطت « العوالم » بسميحة
يزفونها إلى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شابا رابعا فتجعله
هو الداخل عليها ، حتى إذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب
في خيالها شخصا خامسا وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار ،
ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه .

وكانت نجية أذكي وأحزم من أن تدع أحدا يطلع على هذه الصور التي
تتعاقب على ذهنها وترسم واحدة بعد واحدة في نفسها ، وإن كانت هي
لا تكف عن إحضارها وتمثلها في خاطرها لتنعم بها وحدها ، ولم يكن أحد
من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم أزواجا لأختها ، يتوهم أنه بعض
ما تدور عليه هذه المناظر العجيبة في رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة
ولا كان يجرى لهم في بال - وهم جلوس في بيت الشيخ على يشربون
القهوة ويتحدثون في شتى الشئون ، أو وهم في حقولهم أو أمام مكاتبهم أو
في دورهم - أنهم ينقلبون أشخاصا آخرين فتتنضى عنهم ثيابهم العادية
ويكسبون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قبض أبيض وربطة بيضاء ،
أو جبة سوداء وقفطانا مخططا وإن ألبسهم واحدة بعد واحدة توضع في يد
الشيخ على الكبيرة وأن أفواههم تتمم في حياء « قبلت نكاحها » وأن
السراقات تنصب فوقهم وتزدان ، وأن أصوات المغنين ترسل فضية
« النغمات تجاوبها أصوات السامعين بآهات الاستحسان ، وإن الموسيقى
تعزف مرحة بالقادمين من المدعوين .

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهي مرة زوجة
« باشا » يغنيها ويرفعها مقاما محسودا بين أترابها ولداتها ، ثم تستحيل زوجة
« وجيه » موسر له مصيف في الاسكندرية ومشتى في القاهرة وضيفة طويلة
عريضة يقصدها إليها كلما سثما حياة المدن وتبرما بضجائها وحفلاتها

حواسها ، طلبا للروح والراحة بين أحضان الطبيعة ، ثم هي بعد ذلك
 زوجة الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تتسع دائرته
 ويتسامع به الناس ، إلى رمل الاسكندرية فتكون قريبة منها ، ويغنى شيئا
 فشيئا ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها وأذنها وجيدها
 ومعصمها وأصابعها وصدرها أيضا ، ويلبسها كل ما يشتهى شبابها من
 الأفواف والأوشية ، - ثم يهتز الكليد سكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون
 فيبدو مع سميحة إبراهيم الحازم العطوف ، يبيعها قلبه ويقطعها حبه
 ويلزمها طاعته ويحكمها كما يجب أن تحكم المرأة ، وكما لا يحسن غير إبراهيم
 فيما تعلم أن يفعل وتتهدد وتهتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح
 إليه وإن كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهي ترسم
 خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو إلى إبراهيم وتحبه ، وتنحى
 عن خاطرها أن إبراهيم لا يبادلها هذا الحب ولا يبدو منه مثل هذا الود ،
 وتقول لنفسها من يدري ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا
 من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى أن إبراهيم يعرف
 سميحة وأنه يمتقتها ، فلا أمل هناك إذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتشعر
 بوجوب التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت إليه بغريزتها وأدركته
 بما رأت من شوشو وإبراهيم . وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن
 تحطيم قلبها وتخيب أملها إذا كانت تحب إبراهيم ، شئ لا يعينها ، ولكن
 صورة إبراهيم وشوشو تأبى أحبانا إلا أن تبرز ، وتذكر عليها صفو
 أحلامها فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحدا بله إبراهيم ،
 وتقول لنفسها إن هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى
 تعلم البنات الكلام الفارغ قبل الاوان ، وتنحى على نفسها باللوم هى التى
 أصرت على تعليم أختها - وفى مدرسة فرنسية أيضا - ولكن سميحة كانت
 معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الأدب
 وفساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الأسرة عارا ؟ أتريد أن يذاع فى البيوت أن

شوشو أحبت إبراهيم ؟ ياللفضيحة ! يجب أن تضرب على فيها . نعم لا بد من زجرها عن هذا وإلا فاللفضيحة لا محالة واقعة .

ويزيدها هذا تصميها على إهداء سميحة لإبراهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للإشكال ، والسرعة هي كل شيء ، وليس أجدى في مثل هذه المسألة من قطع الأمل .

وأفرغت في الفنجان الذى كانت ترشف منه القهوة ، نقطة من الماء وهزته . ثم صبت على حافة الموقد ، ووضعته بين اخواته ثم صفقت فجاءت سميحة . تسبق فاطمة فقالت نجية :

— قولى للبنات ترفع هذه الأشياء ، ألا تزال شوشو نائمة ؟ يالها من مكسال !

فقالت سميحة : « أنا عارفة ياختى ! إنها لا تريد أن تقوم . وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة ؟ أكانت تدع الرجل يفطر ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهي منطرجة في السرير ؟ ولكن الكلام معها لا يجدى وقد تعبت معها وهي لا تسمع لى كلاما . فلا شأن لى بها فلنأكلها لا تقبل منى كلاما ، فأنت وشأنك معها » .

فهزت نجية رأسها ومصمصت بشفيتها ولم تقل شيئا ونهضت — على يديها أولا .

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسي إلى جانب سريرها قالت لزوجو : « ردى الباب يا بنتى » .

فالتفت إليها الشيخ على ورفع رأسه عن الوسادة واتكأ على كوعه وقال : — هل من جديد يا فيلى الصغير ؟

فلم تجعل بالها إلى مزاحه ووضعت ذراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهي تتلفت إلى الباب بعد كل كلمة :

— نريد إبراهيم لسميحة .

فاستوى الرجل قاعدا وصاح بها .

— ماذا ؟

فارتدت مذعورة حتى كاد الكرسي يقع بها فما كانت تتوقع ذلك وقالت
وهي تشير بكفها مستهجنة :

— يا أخى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفرعتنى ؟

فقال اليها الشيخ على وقال بأنخفض أصواته :

— ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟

فقالت مستغربة : « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألسنت موافقا ؟ »

فقال : « موافق ؟ أنك عمياء ! »

فقالت : « عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك ، ألا أستطيع أن أكلمك

من غير أن تثور كالزوبعة ؟ » .

فلم يعبا بهذا وابتسم وهو يقول :

— لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترفى بالحق .

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت ؟ سل إذن فاطمة ؟ » .

فضحك الرجل وقال :

— الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة .

فقالت ملحة *

— نعم سلها . فقد بعث إلى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد أن

يقوم من عندك ، فاستأذنتنى فأذنت فاستصحبت فاطمة فسلها إن كنت فى

شك . انك لا تصدقنى أبدا فلعلك تصدق الخادمة .

قلم يكثرث للمرارة التى فى لهجتها وقال :

— إذن أنا لا أعرف ابراهيم !

فقالت وقد أزعجها أن أحست أن زوجها يعرف ما تعرف هى « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أعنى أيتها الفيلة العمياء ان ابراهيم يمقت سميحة بكل جارحة فيه » .

فكأنما طمأنها هذا وسرها أنه كل ما يعرفه فقالت :

— يمقتها ؟ انك تبالغ دائما . ومع ذلك فإنه سيحبها شيئا فشيئا وهى ذكية

وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله ، دع هذا لها ولي أيضا .
فأرسلها زفرة طويلة ثم قال :

— ما أشد غفلة النساء واعظم لجأتهن في الخطأ . يا عمياء انه لا يمقت
سميحة فقط بل هو يحب شوشو . أسمعت ؟ أكان لا بد ان اشق لك جفونك
بالسكين لتفتحي عينيك فتبصرى ؟

فريعت كأنما كان هذا نبأ جديدا وأسرعت تقول :
— شوشو . كلام فارغ ، لا والنبي ابدًا . والله لو ملأ لي حجرى ذهبًا .
مستحيل .

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على ان قال بلهجة قاسية :
— قومي من هنا . واسمعي . أحذري أن تقولي أو تفعلي شيئًا فاهمة ؟
فنهضت طائعة وهي تقول :
— أجنونة أنا ؟

فقال : « بل أنت مستشفى مجاذيب بأسره . إن إبراهيم حساس جدا .
ولا أريد أن اخسر صداقته مهما كلفني الاحتفاظ بها . اتفهمين كلامي هذا ؟
فشورت بيدها وخرجت وكرشها امامها .

الفصل الرابع

« في النهار ادعو فلا تستجيب ، في الليل ادعو فلا هدوء لي »

الوقت الصباح ، و ابراهيم يتمشى في الحديقة ، ولا يرى شيئا فما يكظ ذهنه الاموقفه الذي لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ ، فهو اذا بقي يخطيء ، وإذا سافر يخطيء ، وإذا خطب شوشو وعيناها العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبي المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل « كيف يكون الكبح وكيف يكون الانقياد ؟ إن المسألة ليست ألفاظا ألعب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ »

وثني رجله إلى السلم ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو . وهي تعدو اليه منه وتكاد تقع فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتستريح ! فعصر قلبه الألم ولجت به الصبوة إلى شوشو وهاله « القحط » الذي ينتظره في أيامه المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر في شوشو وسوء حالها ، بل في الدم الذي يغلي في عروقه هو ، وفي النار المندلعة في جسمه وفي رغبته الثائرة ، وفي حنينه إلى قبلتها . إلى جسمها الرخص . . إلى حبها الحار . . في ظمئه اليها كما كانت وهي تطعمه من النافذة . . كما بدت وهي واقفة تنزع أوراق (الاراوله) وتعددها وتستنبثها حظه . . في صدرها على صدره . . وشفثها على شفثيه والليل باسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع القمر في آذان الشجر ، والضفادع تنفق ، والبوم ينعب من بعيد ، ووجهها هي تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر .

تعاقبت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الأرض يكابد حمى الحنين ، ثم خطر له أن شوشو قد تخرج إلى الحديقة فتراه واخلق بذلك أن يضاعف ألمها ! فنهض ومضى إلى غرفته .

وتذكر ما كان من سلوك سميحة وزورتها له تحت جنح الظلام ، وما
يمشى به ذلك من القصد إلى توريثه ، فتسور الدم إلى رأسه وأيقن أن الرحيل
لامناص منه .

وصعد إلى الشيخ على وكاشفه بعزمه ، وكان هذا أعرف بإبراهيم وادرى
بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده ، وكفته نظرة واحدة إلى
وجه إبراهيم المربد أن يوقن أن سميحة واختها كاذبتان وأن اثماهما به هو
الذى يرجع إليه اعتزامه السفر .

وقال الشيخ على يمازحه :

— ملنا أم نبا بنا أم جفانا ؟

مشيرا إلى بيت البحتري . فقال إبراهيم :

— كلام أكن أريده ان اعتاض منكم سواكم ولكنى مللت . لا اكتملك
هذا . كأتى فى سجن . لا أرى أحدا غير السجانيين . . . أعنى بنات خالتي
وخدمهن حتى أنت شاء الحظ أن يعلبك عن مرافقتى إلى حيث أشتاق أن
أكون . . . أعنى فى الحقول . . . مللت والسلام .

فنظر الشيخ على بنخبث وقال :

— أهذا كل شيء ؟

فرفع إبراهيم رأسه وقال « وما سؤالك هذا ؟ » .

قال . « صدقت لأمحل للسؤال فإنى أعرف كل شيء . ولكنى أرجو
ان لا تكون مغفلا . كلا ، لا تشكرنى .. »

فقال إبراهيم بلهجة الجدد الصارم « إن من واجبي أن أخبرك . . . »
فقاطعه الشيخ على بدوره : « لا تفعل . فلن تزيدنى علما . أو تحسبه
ليس لى عين ترى ؟ »

ولكن علمك قد يكون مشوها أو غير مطابق للحقيقة .

فضحك الشيخ على ضحكة حافلة بالقرقرة ثم قال :

— أرجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفسير . : أبقها إلى أن
أنام ، أو أكتبها بأسلوبك الجزل وضعها في ظرف واختمه بالشمع الأحمر
واعطنى إياه . ولك على أن امزقه قبل أن أقرأه أو إذا كنت تحرص على
آثارك الأدبية ، احفظه لك إلى أن تكبر وترشد لتتاح لك في كهولتك
فرصة تضحك فيها من حماقات شبابك .

فابتسم إبراهيم ولكنه قال بلهجة اليأس : « لا أرى في صلاحك
أملا » .

فقال الشيخ على : « سألق بك بعد غد . فأنا أيضا قد مللت
البلدة . »

ولم يكن هذا ما يريد إبراهيم ، ولكنه كتم ما في نفسه وقال
للشيخ على :

— أو لا تزال مصرا على خطف تلك المرأة ؟

فلم يكثرث الشيخ على وقال :

— قل لمحمود إنى سأدق له رأسه ، ولفرج البواب انى سأشنته ييذى
هذه ، ولأم الخير . . ولكنك تستطيع ان تنوب عنى في إنذار الخدم
جميعا ، إذا عدت فوجدت أن الأجراس لم تصلح ، أو أن واحدا منها
لا يندق بأعلى من جرس الكنيسة . أما أنت فلا تخشى أن أجيء لك
بسميحة وان كنت لا تستطيع أن أعدك بأن أحضر معى شوشو .

فنهض إبراهيم كأنما كان قد كواه بمسمار محمى وصاح به (قبحك الله) :

- ٢ -

حلم إبراهيم وهو نائم في بيت الشيخ على في رمل الاسكندرية ،
أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شيء ، (جعة) مثلجة في زجاجتها ،
وان محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « الجنبرى » وانه — أى
إبراهيم ، احتج في حلقه او وقف فيه ، ولكنه اكرمه على الانحدار

في جوفه فلم يزل يجاهد ان يقات - اعنى ان يرتد - حتى أصيب المحافظ -
بانتفاخ دائم جعل له كرشا كروية ، أكسبته سمثا وابهة ورشحته لعليا
المناصب التي لا يصلح لها النحاف العجاف ، وانه - اى المحافظ - سر بذلك
كثيرا فأقام - على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة - « سيلا » يستطيع
من شاء أن يرشف منه اعذب السم الزعاف بلا ثمن ، وفي كل ساعة من
ساعات الليل او النهار إذا شاء ، وطلبه بلسان « سريانى » فصيح .

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سداة »
الزجاجة ، وكانت الدنيا ملفوفة في شملة سميقة من الظلام تفيض على
الليل سحرا ورهبة ، واندمج كل موجود في ظله ، ولم يعد شيئا بعيدا ،
وآخر قريبا . والبحريهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسم الوانى
يهمس في آذان الشجر .

وحانت منه التفافة إلى حيث كتلة البناء - وكان هو في جناح متصل
بها ومرتفع عنها - فلمح شعاعا من النور باديا من خلال الشمسية ، في
غرفة المائدة ، فاستغرب ثم قال : « لعل الخادمة جهزت لى طعاما ثم
قامت تنظر هل اصببت منه » ولكن النور لم ينطفئ ، فأشفق إبراهيم على
الخادمة أن تخي الليل كله في انتظار من لا يجيء ، وخطر له ان الواجب
ان يصرفها لتنام ، فانهلر حافيا وقال لما بلغ الباب :

- لماذا تنتظرين يا

ولم يزد ، وان كان فيه قد ظل مفتوحا ، ذلك انه لم يبلغ « يا » حتى
كان مسدس مضوبا إلى رأسه ، وكان الذى رفعه إلى وجهه أشبه بالعمالقة
منه بمن رأى إبراهيم من الناس ، وهوى وذراعا إلى جانبيه وتخلخلت
ركبتاه وجحظت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم إبراهيم ،
لا سرورا ، بل لأنه صار فيها يعلم آلة حاكية ، وقال :

- سوف . كلمة واخذ . وقروخ بلاس .

فلم يفهم مراده ، وحار في هذه « الكلمة الواخذ » مامعناها هل .

هى مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد أم تشمل الكلام العادى أيضا ، ولكنه أثر الخدر والاحتياط ، لأن التفسير - ولا سيما إذا كان من جانب واحد هو الجانب الأعزل - غير مأمون المغبة ، فأطبق فيه وكان لا يزال مفتوحا ، وهز رأسه مرات إعلانا للاشتغال .

فقال له : « نحس » .

فود ابراهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحملته رجلاه خطوات فى خط مستقيم حتى صدته المائدة ، وهو وراءه ، وأدار له وجهه وحده مستفهما ، وأشار بعينه إلى كرسى ، فابتسم العملاق وسأله وأصبعه على فيه :

- لسان مفيش ؟

فتشهد ابراهيم ، وعلم أنه يبيع الكلام أيضا ، وعادت الطمأنينة مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة فى منعها الآن ، وإذا لم يحدث ما ليس فى الحسبان فما من شك فى أنه سيمضى بما يجمع .

وقعد على الكرسى الذى أوما إليه فى زاوية بعيدة عن الباب ، وانصرف هو إلى عمله فى هدوء رائع ، وكان يجمع الأواني الفضية ويفحصها ويرتبها ويضعها فى حقيبة معه ، وتبين ابراهيم وهو ينظر إليه ان على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس ابراهيم وهو قاعد ، واشتاق ان يدخن فقال :

« معك سيجارة ؟ » .

فرفع العملاق حاجبيه كالمستغرب ، ثم ابتسم وقال :

- آه بردون يا خبيبي .

ومضى إلى « البوفيه » وعاد بسيجارة وأشعلها له ، فشكره ابراهيم وهو ذاهل ؛ فما رأى لجرأته مشبا ، ولا سمع بمثل سكينته وتنظيم جهوده وقصرها على ما ينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ما سواها ؛ وبدا له وهو جالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو

والسرقة ليس أسهل منهما فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا الرأى ، وفى مأموله أن يجره إلى الكلام فبطول الوقت لعل شيئاً يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ما جمع أو يؤدى إلى القبض عليه ، وكان ذلك أملاً بعيداً ورجاء محقق الخيبة وما دام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الكلاب الحارسة — ترى كيف دخل ؟ — فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة ، ولكن المشفى على الفرق يتعلق بقشة .

وأدرك اللعين المدرب غرضه ، فقال وهو ماض فى عمله :
— أنت مكار .

فأكد له إبراهيم أنه كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياساً على ما يرى ، فقال للعملاق :
— سوف ، أنت على البر .

فقال إبراهيم : « بل فى قاع الجب ، أو على كل حال حيث لا أحب أن أكون » فلم يلتفت العملاق إلى هذا ، ولم يجب بأكثر من ابتسامة ، ثم قال :

— أوتخس حاجة ال . . . ال . . . اسموايه ؟ مس يسبع ؟

فقال إبراهيم : « الطمع » .

قال مثنياً : « برافو » .

فقال إبراهيم : « أحسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الإحسان وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ » .

فقال العملاق شارحاً : « سوف ، فيه كثير راخ فى داهية سان لازم كان . . مس يسبع » .

فأعرب له إبراهيم عن إعجابه بهذه البلاغة وقال :

— كنت أظن لبلاحتى أن اللص ياتى كل ما يجمع فى غرارة ، ثم

يلتجئ من حيث جاء ، ويفعل الباقي في مخبئه ، ولكنك علمتني شيئا ،
وإني لأعجب الآن كيف فأنك أن تجيء بالأدوات اللازمة لصهر
المعادن أيضا .

فقط العملاق فه مستخفا وقال : دمس سغلى دى .
فهز إبراهيم رأسه وقال : « آه ! أنت اخصائي في السرقة فقط ؟ »
فقال العملاق : « أنت فاهم دى كله يروخ كاسورة ؟ »
فقال إبراهيم : « لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك فعذرة »
فلم يرد العملاق ، وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيبة
وأدار المفتاح في قفلها ، ثم أومأ إلى إبراهيم وقال : « من فضلك » .
فنهض وهو يقول :

- هل أطلب لك عربة ؟

فابتسم العملاق وقال : « مرسى ! انت كوينس » .
فقال إبراهيم « شهادة قيمة ، ألا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟ »
فلم يلتفت إلى هذا وقال : « بس مس يلزم تخاف كده دوغرى » .
فقال : « معذرة يا خواجه ، سأندرب على لقائك » .
فربط له يديه وراء ظهره ، ووضع له بين أسنانه بكرة خيط صغيرة
وتناول قبعته وقال :

- ليلتك سعيدة يا بيه .

ولم يستطع « البيه » أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى بمثلها ، ولكنه
استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن أو الدور .
وعاد « البيه » يعدو كأحسن ما يستطيع موثق مكبم ، إلى غرفة
الخدمة فوق السطح ، وأنه ليركل بابها برجله ، وإذا بنباح يوقظ
الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكذب يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره وأسنانه مفروزة فى عنقه ، وكان كلبا أرمنيا ضخما كالسبع ، لا يدري أحد أين كان رابضاً ، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكناً ، حتى يصير اللص أمامه ، وعلى مسافة كافية للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى الليل ، وقد ردت وثبته صاحبنا آخر الأمر بشر من - خفى حين - أى بقطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه .

وكان من الطبيعى أن تحضر الأسرة كلها إلى الاسكندرية لا الشيخ على وحده .

الفصل الخامس

« اين الطريق الى حيث يسكن النور ؟ »

في الصباح أيضا ، وإبراهيم يتمشى وحده في حديقة الدار ويمد يده من حين إلى حين - وهو يروح ويحيى - إلى وردة يلعبها ، أو فلة يشنها إليه ليشمها دون أن يقطعها ثم يعود إلى المشى .

وحده ؟ كلا ، بل معه .. كيف تقول ؟ نفسه . تحاوره وتداوره وتناوشه وتناوشه أيضا ، وتقول له فيما تقول :
- إنك تحبها . ألسن تحبها ؟

فيقول : « أحبها ؟ ويحني إلى لقد كان لي ثوب رجولية زين ، فأين الآن وفائي للخلاق الرزين ؟ تجملني أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس إذا جمحت ، على مكروهاها ؟ أحبها ؟ وآسفا ، لقد صرت عارى الهوى ليس لي ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحسن الناس فيها . لا حياء ولا عزة . وما دامت الأرض في عيني خرابا مأمونا فمن أستحيي ؟ وماذا يبعث في النفس الشعور بالعزة ؟ .

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبومة فتقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟

- نعم :

- جسمها ؟

- يفتنى روحها فيه .

- طبيعتها ؟

- نادرة . نادرة .

- ويرسل آهة :
- فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول :
- إذن لا شك في النتيجة ؟
- فيقول : « لا أدري ! » .
- فتعيد عليه الكرة .
- ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟
- فيهز كتفيه ويقول :
- ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .
- وتكف النفس هنية ثم تعود فتسأل :
- أليس كل حب إلى ملال ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟
- نعم .
- ولالقلب جمحة ، أليس كذلك ؟
- نعم ..
- أليس أولى بك أن تجعل العقل لجاما ؟
- فيسألها بدوره « كيف » ؟
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !
- ماذا تعنين !
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق :
- أى فكرة !
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟
- فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى بجانبه ويقول :
- ياله من سؤال !

- إن حولك الأرض والسموات تغرى العقل بالتفكير .
 فيقول مستخفا « نعم ؟ » .
 — كان حقلك أن تصقل عقلك لا أن تصدته !
 — يعنى ماذا ؟
 — يعنى أنى أراك تطلب الحسن لتغنيه . أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟
 هيه ؟
 — لا تسخرى بى من فضلك !
 — لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الإنسان أيضا .
 — نعم ولكنه فى الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيرا .
 فتقول النفس : « أحسبى فهمت : لا بد لك أن تسند صدرك القريح
 إلى شوكة الورد إذ تغنيها ؟ »
 فيثور بنفسه يلعنها فلا تعباً وتقول :
 — كنت أظنك أحق بأن تحاكى النسر لا القمارى !
 — النسر ؟
 — نعم ترفع الطرف مثلها فى سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها
 الباكى الشادى بغناؤه الذى لا يعجب الأحرار والطلقاء . وأحسب أنك
 معذور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك لا بأس ، أرسل
 صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم . غن وتسل كما يصيح الصبي فى
 الظلام ليطرده عن نفسه المخاوف . واحلم على الرغم من الرق والأسر —
 بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب لا أدرى ماذا
 أيضا ؟ ولكن ألا تسمع لى أن أسألك ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟
 أو كيف تغدو الأشجار رفاقة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى
 الينبوع فاضت به الاصلاد ؟ لا بأس . غن يا عبد الأيام والعوبة اللبالي !
 فلوح بذراعيه وقد ضجر وقال « أوه ! العقل العقل ، ليت إذن
 المقادير حرمتنا هذه النعمة التى لم نغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت

تركنا نرعى الكلاء ؟ ماذا كانت تخسر الدنيا لو كانت الحياة حمتنا « فكرة »
السماء وسمرت لحظتنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتاً وننشق ملء
الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ، ونحيا
ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة في كل حال
راضين ناعمين جاهلين ابتداءها ؛ وانتهاءها ؛ ولكن المقادير أفاضت علينا
نعمة الحس فهيأت ينفع العقل . نحن أحياء الأحياء فلو أحسنا الحياة
بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . . والمرء يظالم الله ويحسد فضله إذا
خزن ما منحه الله ونحياً ما وهبه ، لا لا . انك تريد نعمة ليس فيها حلم .
وعلى أنه يأنفس ، ما الفرق ، آخر الأمر ، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض
ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ولكن ... »

أو بعبارة أخرى ، ما الفرق ما بين زينون وابيكتور ؟ لست أعنى أنى
أحدهما .

فقاطعت النفس وقالت : « على ذكر هذين وما داما سين فاسمع
مشورتى » .

وكانت لفنة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباحثات أو الوثبات
فيسألها بإبتسامة :

— ماذا ؟

قالت : « شوشو لا حاجة بها إلى صدحاتك » .

فقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول أنه ليس ما يضطرها أن تعانى الأصغاء إلى « سحر »
غنائك . لا تعجل . أن دهرها لم يرعها ولم يشبع أنفاسها إلا استواء .
ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يأتى أن ينحدر . فليس جميلاً منك أن
تنقل صدحاتك بالدمع لعين لم تذق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى
الغريزة الرقيقة التى تشكو الإنداء ، وأن تزعج ألحان حسنها بكلام تغصه

«بالضوضاء ، بل ليس من العدل أن تحيط بجمالها بأنقاض حياتك . إنك
زلزال يا صاحبي فاحذر .» :

فطأطأ رأسه وقد راعته هذه الصورة ، ومضت النفس في كلامها
وقالت :

— فانفض يدك من هذا الحب . اسرع . عد إلى ماري . التقطها :
إن قلبها « كالاستراحة في إقليم الحب » .

فابتسم وقال : « بالضبط . استراحة خالية مجعولة للنزهة . . ولكني
تعبت ومللت أن أظل أحمل حقيقتي الملائى بمؤونتي . شمت أكل الأطعمة
المحفوظة واللحوم الباردة ، ولذلك سامضني في رجلي مع شوشو .
فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر » .

فقال بحدة : « هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعني بهذه العمليات
الحسائية وهو يتلأأ بجانب كليو باترا ؟ » .

فعادت تسأله . « ولكن المسئولية » .

فقال : « إنني أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لا سبيل إليه
الآن ، ثم أني لا أريد أن أراجع » .

فسألته : « ومتى تخطبها ؟ » .

فقال : « قريباً . في أول فرصة » .

— « وإذا رفضوا ؟ » .

« آه . إذن أدفن سري في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة . »

الفصل السادس

((مشرقة مثل الصباح ، جيلة كالقمر ، طاهرة كالشمس ، مرهبة
كجيش بالوية))

غرفة شوشو- وإبراهيم واقف على عتبتها مترددا ، ومن حقه أن يتردد
فلأن غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيبتها ، أحلامها
الجديدة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشيهها بمختلف الصور التي تتعاقب
على ذهنها في ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وضبط أعصابها
ودخل . وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أو شباكان من أرق نسج ،
وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى
حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فجموعة ومربوطة
بشريط بنفسجي وإلى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على
بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها إبراهيم واحدا واحدا
وقلبها ، وهو يعجب فقد ألنى دى موباسان إلى جانب برناردشو ، والفونس
دوديه مجاورا لاسبينوزا ، وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و
« لانفان دى فولبتيه » تحت آخر كتاب له هو ولم تقع عينيه على كتاب
مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هستيريا البنات ، ولفت عينيه إلى السرير
وجعل يفكر في شوشو وهي راقدة عليه ، ومعانقة مخلوقات خيالها أو مرسله
لحظها إلى المستقبل تستشفه وتستنبئه عن حبها وتمثل سكرة القلب بخمر
التسليم . وتصور لنفسها أغماءها من فرط السكر ، وحلاوة التخدير
والتفتر في جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها
ونهوذه لنحن خيالاتها - ثم إستدار ووقف ينظر إلى أدوات الزينة ،
فرأى مكحلة فارغة سدادت مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردية.

مما يغرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء في أوعيتها وميلا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين ، وكوما من الأشرطة على كل لون ، وبقايا شعر وزجاجة كولونيا .

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط ، فقالت :

— يا قريبي المسكين أهذا أنت ؟

فالتفت إليها فراعته شحوبها وتقدم إليها باسطا يديه فتناوأتها وقالت وهي تجره إلى السرير وتقف مستندة بظهرها إليه .

— اتعرف انى كنت اقرأ كتابا في تربية الارادة ؟

فابتسم ، ولم يسهه على الرغم من كل حبه لشوشو الا ان يستخف بها ، وقال بلهجة مبطنة بالسخر . « هل قررت ان تشتغلى بالتنويم المغناطيسى ؟ »

فقالت . « لا تسخر ، فان تربية الارادة والتغلب على العواطف ، شيء يستحق الاحترام . »

فقال . « نعم . . نحتق القلب وانماء العقل ؛ اليس كذلك ؟ »

قالت . « نعم مارأيك ؟ اعنى رأيك الجدى ، بصراحة . »

فقال . « بديع جدا وضرورى ايضا ، لرجال السياسة . »

فسألته . « وللمرأة ؟ »

فقال : « جمود . كفر صريح . تمرد على الطبيعة لاطائل تحتها

ايضا . امرأة بدون قلب ؟؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشيا »

— هل قرأت ما قال « اوفيد » في « فن الحب » اعنى قوله « ان

الفضيلة أنثى . هى كذلك بشبابها وبلطفها » وانا اضيف اليه ، وأزيد

عليه ان الحب لقلب المرأة كالارج للزهرة . :

فقعدت على السرير ودلت ساقها ، وقالت وهى تهزهما .

— إنك تعرف جيدا أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » ، إذا فتخته انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب .
فمعجب لشوشو ، ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ، ولكنه كتم خواطره وقال :

— يجب أن تتعلم الواحدة منكن كيف تفتحه بحذر .
فتفتحت عينيها العميقتين ، ففتحتهما جدا وقالت :
— ماذا تعنى بالحذر ، أتريد أن تقول : أن على الفتاة منا أن يكون في مقدورها أن تقرأ الغيب ، وأن تنظر في صدور الرجال ، فإذا قلوبهم لوح مكتوب تطالعه ، هل تدعى أنت ان لك هذه القدرة على النظر في هذا الكهف العميق المظلم ؟
فزادت دهشته ولم يستطع أن يهتدى إلى الباعث لها على هذا الكلام ، ولكنه سايرها وقال :

— اسمعى يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطيرة ولكنى أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة . ان الألم لا سخيـف ولا بشع .
أنظري هذه الشمس التى تنحدر للمغرب . ان للشمس بقعها . والشمس على الرغم من بقعها هى حياة الأرض . هى وحدها حياتها . والسعادة أيضا لها بقعها . ولك أن تسميها آلامها ، ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر السعادة التى نفوز بها . والحياة بالقلب هى الحياة الثامنة . أما من يبلد قلبه ، من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة . واحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس فى عالم تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات لحي أو شراب ، والنساء ملاحق لها ، والحب لو غارتما للـرغبات !

فقالت له : « ابراهيم . ان فصاحتك لا تقنعنى اليوم ، إني أنا فتاة دون العشرين ولكنى بكيت أنهارا وتأملت . . بكيت ليالى بأسرها على آمالي الميتة .. »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة :
« شوشو . ان دموعك التى سكبتها فى ظلام الليل هى التى تجعل المستقبل
مخصباً . آه يا شوشو . لا تدبلى زهرة نفسك .. ان الحياة تدخر لك ساعات
من أسعد الأوقات واحلاها وأنداها » .

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لى أيضا دموعا مرة .. »
فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبني فهل لم تتألم قط ؟ ! »
فقال « ياله من سؤال ! كأنى لا أتألم الآن ! أولى أن تسألى سمك
البحر هل ذاق طعم الماء المالح ؟ نعم . تألمت يا شوشو . بسبب قلبي أيضا ..
القلب الذى تريدن تربيته ؟ وسألت مرة أخرى . ولا يزعجنى علمى بهذا ..
بل أنا راض به ومستعد له » .

وذهبت إلى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها فجأة :
— شوشو !

فأسرعت إلى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر إليها :
— لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سر حضوري إليك .
فتراجعت خطوة وقالت ويدها على صدرها المضطرب :

— تخطبنى ؟ اليوم ؟
قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »
فرمته بنظرة عتب وقالت :

— أرجو ألا تفعل . ليس الآن . تمهل . انك لا تعرف . أظننى فى
هذا . لا تقض على هذه السرعة . انتظر حتى تكون أختى مرسو فى ...
فى ... الريف — بعيدة عن أختى نجية .. أرجو .. الخ .

وكان ينبغى أن تحلل عزمه لهجتها وإلحاحها وتوسلها والفرع الذى فى
عينها ، ولكنه غاظه واسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة

مثل هذا السلطان ، وجرح كبريائه أن تكون لمثل هذه الفتاة التي يعقها
قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه ، والحيلولة بينه وبين أختها . ولم
يبد له — فضلا عن ذلك — أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة ،
فسميحة ستقاوم على كل حال ، فخير أن تنشب المعركة الآن فليس من
وراء أرجائها أى أمل فى انقائها . وما دام أن الحرب لا محالة دائرة على كل
حال . فلتدر والمعسكران متقابلان . . وهو بين أنصاره . . أنصاره ! أين
هم ؟ ليس له من نصير غير الشيخ على ، ولكن اليس فيه الكفاية ؟ إنه جيش
وحده ؟ وماذا تستطيع امامه مائة ألف سميحة ونجدة ؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجة المصمم :

— لقد سمعت منك إنك تقرئين كتابا فى تربية الإرادة ! يل اليوم
أخطبك يا شوشو !

الفصل السابع

(لذلك اسمى هذا ايتها البائسة والسكرى وليس بالخمر)

قالت شوشو لإبراهيم :

— هذا أنا .. قد جئت ..

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

— أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟

— لا كبر ولا جفوة .. وانما أنا مغیظة .

— منى ؟ ..

— كلا !

— ممن إذن ؟

— لماذا تسال ؟ .. من نفسى .

— مسكينة يا فتاتى ! ماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟

— لست آسفة على شيء .. هذا ما يغضبنى .. ولو وجدت للأسف

مسا لكبرت فى عين نفسى .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من

صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته فقال :

— انت فى عينى كبيرة وجليلة دائما .

فلان ما كان متجمدا من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقى

حاشيتها ، وانسجم صوتها ، وجذبها تكلفة البشر ودنت منه ووضع

يمنىها على كتفه واقبلت عليه تسأله أصحیح ما يزعم ؟ احق انه يكبرها

وسیظل يكبدها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ إنها لا تسأله

عن حبه لها فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به ؛ أن يحبها أو لا يحبها ، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها فى يده :

— وماذا فعلت يا فتاتى أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟

فرفعت وجهها إليه ورمتة بعين مفتوحة كمغمضة وقالت .

— أو هذا كل شيء ؟

— كل شيء الآن . . الآن وإلى الآن .

ولبثا هنية صامتتين تحت هذه السماء المهيولة المتلامحة النجوم ثم قالت .

— وماذا كنت تريد أن تقول لى مما أجهل ؟

فأريد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبة من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

— كنت أريد أن أقول أن هذا للذيذ (بابتسامة متكلفة) .

— ماهو ؟

— كون يدك فى يلى .

فانتزعها بحركة لدنية وبلا تعتمد لذلك وقالت :

— لقد أنسييت أنها فى يدك .

— أنسيها مرة اخرى .

— لا أستطيع ان .

— ماذا ؟

— ان أنسى . .

— تناسيها اذن .

— كلا .

— هل من سبب ؟

— « لا » مخطوطة طويلة « سوى ان التناسى ليس كالتناسى »

وتناول يدها وسكتا مرة اخرى وتكلم بينهما الهوى .

* * *

وطال سكوتها لأن الليل عظيم وقعه في صدر ابراهيم . وكان مما يرفه عن اعصابه ان يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليل حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في اجوازها المربعة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد اشد هولاً . وكذلك كانوا واقفين في ليلتهما تلك . هي مفتونة بجمالها ؛ وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضالته اذ يجيل عينة في فيافي السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل اليها احساسه بهول السماء وضالته الانسان وكل ما يتعاق به أو كأنما كان يعنيه أن ينقص عليها متعتها بهذا المنظر .

— ثقي أن هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهما تكن علة وجودها انه لا شيء في الارض أو في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته او لاشيئته اذا شئت .

فأدارت اليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما في لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد ان تصرفه عن هذا الاسلوب من التفكير .

— ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد » ان صح التعبير

بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ،
وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يحمد الفكر كلما حاول أن يتصورها
— هذا ما يوجد ! .

وضحك مرة أخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق
في السماء وقد شعر فجأة — على كل حبه لها — كأنما بينه وبينها بعد ما بين
الأرض والمشرى . ومضى يقول :

— وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن
يقذف به في أجوازها اللانهائية . . ليس جلالها الذي يسحرك بالخاطر
ولا الباقي ! ها . . حتى هذه مرجوع وهجها رماد ! « وجذبها من كتفها »
أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر
كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من
دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها — كلها — قد خمدت ؟ تصوري
عقلك يتلمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري
عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحى عينك !
غضى بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك .

ففرغت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها
على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الأخرى فأفاق ومسح لها شعرها
حتى زایلها الخوف ، وإن كان لم يزایلها هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور
بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل ما بينهما
فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له في هذه اللحظة أن مما
يعزیه ، لو أن هذا مما يعزى ، أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من
كانوا قبلنا . وأن الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، ونخفق فيها
قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وأنها ستشهد أشجاء طريقة
تندب ، ومسررات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعزبها ، على حين نعود
نحن ، كما سيعود كل شيء ، قبضة من تراب .

وقالت شوشو : « لن أفعل هذا مرة أخرى » ؟

— لن تفعل ماذا يا فتاتي ؟

— ألقاك هكذا ! إنك مخيف . هي الأولى والآخرة .

فابتسم إبراهيم ابتسامة فيها من الخنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صباية الحب ، وقال وهو يتهدد :

— لا أدري أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض

نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عيني تأخذك حتى يتحلل العزم !

في كل يوم أعالج أن أرد نفسي على مكروها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو تخاطر

في القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شيء سواك . ولا يبقى لي مني إلاك .

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن السماء إليها :

— وماذا تريد أن تصنع بي ؟

— ماذا أريد ؟ أن أحملك معي وأخفيك حتى عن عيون أهلك . هذا

ما أريد . إن رأسي ليدور حين أرى واحدا من الخلق ينظر إليك . ولكن

لك قدرة على المبالغة والمجافاة حين تشائين . وفي هذا عزاء لي ، وإن لي خيل

إلى أحيانا أن تناسخ الأرواح حق وأنت أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها

سور النار الذي حولها .

— ليتني كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار تحمي به قلبها

وتتمحن من ينشده .

— بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار .

— ولكن ألم تعرف — ألم أقل لك — أن ماتبغى عسير لا يقع في

الإمكان ، فما جدوى هذا الذي نحن فيه ؟

— أعرف ؟ من أين لي علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حتى وأنهم

يفضحون بك في سبيل أختك .. لا تضعي يديك على في ! دعيني أتكلم ! لأنهم

يحولون دوننا تقدما لها عليك ، وقد علموا أنك لي لا محيد من ذلك ! عن

رضي منهم أو محمولين على مكروهمهم .

وفي هذه اللحظة دفعها الريح إلى صدره فأسكره قربها ، وأخذ منه

شذا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها إليه وأهوى على فمها
يقبله في بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من
عناقه ويأبى هو أن يدعها .

— انك ! .

وعضت شفتها وردت اللفظ الذى همت به .

— أنا أى شىء ؟ قولها . اقلنى بها فى وجهى كما قذفوا .

— وحش . فظيع . هذا أنت . دعنى .

غير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجدل وسكر حتى
همست فى أذنه :

— لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم .

فقال : « لم تعنه أبداً بالطبع » .

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

— كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟

— أنا ؟ متى وعدت ؟

— كيف تسأل يا . .

— يا وحش . قولها ؟

— ولكن أليس لك ضمير ؟

— ضمير ؟ ياله من سؤال . بالطبع لى ضمير .

— لأراك تحفل به الليلة .

— أنا فى شغل عنه . قبلينى .

— أى فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟

— افعلى .

— مستحيل .

— من فضلك .

— مستحيل . قلت مستحيل .

— إذن تعالى أقبلك .

— ولا هذا .

— ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبة ؟

والثف جول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ أنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلاً ، فياليت من يديرها ماذا أصابها ففترها وأفقدتها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكثر لذلك أو تفكر فيه ، فقد كان الدم يتدفق كالخجون فى عروقها .

— أمصغ أنت ؟

— « نعم » بصوت تخنقه عربدة الشفتين فى نحرها .

— إنى أعلم عظم حبك لى وإلاما فعلت الليلة ما فعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة ، وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ، ولأن يسهل أن تلهيك عنى وتعلمك بالدنيا . ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل ادكارك لى — ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأناية . . .

— بل قولى إنه الحب .

— هو هذا وذاك بلاشك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . .

— أو تحسبن أن نفسى ستطيب عنك ؟

— أخشى .

— لماذا ؟

— كل امرئ ينسى القبلة بعد أن تبرد شفتاه .

— من علمك هذا يا . . .

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خدييه بين راحتيها وقالت :

— دعنى أذهب الآن :
ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! إني أعتشى أن تنسربني
في الهواء إذا تركتك » .
— كلا لا تخف .

وعاطفته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهي تلح عليه أن يدعها
فسألها :

— أواثقة أنت أنك تريدني أن تمضي ؟
— كلا ! ولكنني واثقة أنه « يجب » أن أذهب .
فخلها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت إليه
وهي تقول :
— لا يشق عليك ما تقول أخفى .. وأيقن أني .. ولكن ليتني أكون أنا على
يقين من وفائك !

ومضت أخف من الفراشة .
وسافر هو في الصباح الى الأقصر .

الفصل الثامن

« من هو جاهل قليل الى هنا ؟ »

أدار الدكتور محمود ظهره إلى المركز حيث عيادته وقصد إلى الإسكندرية ، وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غبا لبيت الشيخ على في القرية ، ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة ، وأمره معها عجيب ، فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثرا عميقا في نفسه أو أن طلوع وجهها في مدار حياته قد أضاف إلى هذه الحياة شيئا ، ولكنه بعد أن رحلت مع بقية الأسرة إلى الإسكندرية وجد نفسه كثير الشroud وأدرك أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة أخرى مألوفة ، أنه يحبها .

وهكذا أحب شوشو اثنان : واحد بمعاشرتها وتوالى النظر إليها والآخر بالبعد عنها والالتقاط عن رؤيتها .

أما كيف أحبها الدكتور ، متى كان ذلك فهذا مالم يستطع أن يهتدى إليه ويحل لغزه ، والمحقق عنده على كل حال ، أنه لما تركها آخر مرة قبل أن تغادر القرية - لم يشعر بذلك الأسف والاكتئاب المهودين ساعة الفراق . فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى وراها معتمدة على حاجز السلم ؟ لقد أعجب بها حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه يذكر مع ذلك أنه وجدها « جافة » . أم ترى أحبها لما أكرهته بعد ذلك بقليل على مبارحة المنزل والعودة على الرغم من المطر والأحوال إلى المركز ؟ لقد راقه حديثها قبل ذلك ولكن نجبها أفزع ومكيدتها أسخطته . أم هو اكتئابها وتفترها وما عراها من الدبول بعد رجوع الشيخ على إلى القرية ؟ لقد وقع في نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لا تكاد تتكلم أو تضحك ، ولا تميل إلى ترك غرفتها إثارة للوحدة . . ترى لماذا ؟ وقد

كانت تصده عنها في ملل وضعف فماذا كان يكرهها ؟ وكيف حالها ياترى في الإسكندرية ؟ .

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهدا على أن هذه العاطفة ليس من الضروري أن تكون نتيجة لتلاقى العيون وتلامس الأكف . وذلك أن قلبه لم يصب إليها إلا بعد أن نأى عنها واستحالت في ذهنه خيالا ومعنى ؛ فأدرك أنه يحب روحها التي لازمته في رقاده ويقظته واستبدت به حتى صار يرتجف اشفاقا من العواقب التي قد تترتب على ادخال هذا العنصر الجديد في حياته الهادئة المنظمة ؛ فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشرد فكره ويتعلق بصورتها وراح يجد لذة في التفكير فيها .

وكان يوما في القرية يعود مريضا فلم يطق أن شوشو ليست فيها فصمم على الذهاب في هذا اليوم إلى الإسكندرية ؛ واعتدل في مقعده في المركبة أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد الأصيل فانطلق بخطف ، وسره عزمه الجديد وأنعشته المناظر على الجانبين وراح يتصور نفسه بطلا غازيا سيدخل الإسكندرية فاتحا - يومئذ - بأصبع فيهرع إليه الخلق ويحرك شفتيه ، فينطلق مائة رجل في خدمته ، ويتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . .

وهنا صادف الجواد مصعدا وصار السير بطيئا فتساءل من أين له هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟؟ وفكر في النجاح أولا فما هي فرصته ؟؟ وقال لنفسه : « لا أدري . . من أين لي العلم بما يبطنه هؤلاء النسوة . أنهن جميعا يلاطفنني إلى آخر ذلك ، ولكن هل هذا من المرأة له قيمة أو دلالة خاصة ؟ » وجره ذلك إلى التفكير في السعادة ، فجنى يقول : « لست أذكر شيئا معيناً قالته شوشو يبعث على الأمل ، نعم تجرى أحيانا لاستقبالي وتظهر السرور بوجودي ، وهذا كل شيء . وأحسبها تجاملني لاني قريب الشيخ علي ، ثم اني طيب والمستقبل أسمى حسن ، ومكاسبى الحالية ليست بالقليلة ، فهل يتقدم لها منى هو خير منى ؟؟ »

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط ، وعاد الجواد ينحب ، ومضى هو في مناجاته لنفسه : « صحيح أنها لم تختصني بشيء يروق ويعجب ، ولم تهد لي إيثاراً ، ولكن ما دلالة هذا ؟ ، وماذا انتظر غير الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ واذا كانت قد صدتني عن مغازلتها ، أفليس هذا أولى بأن يرفعها في عيني ؟ أكنت أحترمها أو أفكر في الزواج بها لو أنها أسلمت لي قيادها ومنحتني زمامها ؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . . أمد يدي لأقطف الزهرة . . وما يزيد سروري أنها فيما أعلم لم تحب أحداً قط . صحيح أن علاقتها بإبراهيم وثيقة ، ولكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تكبره وتحبه ، ثم إنه ضيف وإن يطول مقامه على كل حال ، وهو بعد رجل حاد حكيم قوى فخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذي ينقصها . وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبي ولم تخالط غريباً فهذه مزية ، فليس أبغض إلى من أن أنصوب نفسي أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فإن من المستحيل أن يطمئن المرء إلى زوجة كانت لها برجل آخر . علاقة حب » ،

وابتسم وهو يتصور شوشو خالية القلب مستعدة أن تثنى عنان قلبها إليه .

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور تباعاً لذلك فقد خطر له أن سميحة قد تكون عقبة في طريقه وشوشو . نعم إن الشيخ على رجل واسع الذهن ، طيب القلب ، ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس إليه ، بل إلى زوجته ، وهي سيدة مؤدبة ولكنها لا تفهم شيئاً ، ثم إنها عنيدة جداً ، فهل تقبل أن يتخطى الدكتور سميحة ؟ هذه هي المسألة . لماذا لم يخطب أحد سميحة هذه ؟ إنها ليست أقل جمالاً من اختها ، وإن كانت . . اوه ! مالي أنا وماها ؟ أتمكن ما

شأت فليس لي بها شأن . ولكن هذا لا يحل العتدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على في ذلك فقد يسخر مني . فن استشير ؟ ليس أمامي سوى إبراهيم ، فهو الرجل الذي له من الاحترام والتوقير ما يجعله خير معين لي في هذه الورطة . ولن أعدم لحظة أخلو فيها به في الإسكندرية .

ولما صار في الاسكندرية قادته رجلاه إلى دكان صائغ ، فانتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهذهما إليها . واتخذ مجلسه في قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجبا بهما مستغربا من نفسه هذه الجرأة . . . الجرأة ؟ نعم . وهل يجوز أن يتقدم بمثل هذه الهدية إليها وليس بينهما ما يسمح بالتهادي ، واضطرب وأضاع نصف ساعة في التفكير في هذا ، واستسحف نفسه جدا لأن هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشتري الهدية ، فقد أيقن أن ما هم به ليس إلا عملا ينكره العرف والتقاليد بل العقل ، وكيف يفاجيء بهدية كهذه فتاة لا يزال ينقصه أن يعرف ما تنطوي عليه له ؟ وكيف يتخطى أهلها ويقصد إليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته في (لبيون) ينسى بلاده وعاداتها والأصول المرعية فيها ؟ وتناول العلبة وفتحها أسفا وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجرى بباله خاطر آخر كان تنغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتبهنا من القبول حتى نفكر في الذوق الذي حدا إلى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد ، وفي الظل وفي ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشتري - فضلا عن حماقة العمل في ذاته .

والآن ماذا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدتهما ، وود لو يسرقهما منه لص ، وأخيرا استوقف مركبة وثب إليها وقد خطر

له حل جميل . واشترى قرعین آخرين ، وخرج بالزوجين وقال أهدى
كل فتاة واحداً ، فلا يبقى هناك اعتراض ، ويكون عمل هذا إشارة
صريحة إلى أنى أفكر فى مصاهرة الأسرة . . ولكن رأسه تدلى وقلبه
هبط لما تنبه إلى أن أول ما سيخطر لأى امرئ هو أن سميحة هى طلبته .
مسكينة سميحة . . لو عرف إبراهيم هذا لأدركه العطف عليها . .

الفصل التاسع

« ابتعدوا عني يا جميع فاعلي الاثم »

كانت شوشو راقدة في غرفتها وعيناها مفتوحتان ، تديرهما فلا ترى أثراً لإبراهيم ، لا صورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة . جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلف إلا مثل ما تخاف من التحطم — وأين هو الآن . في الأقصر ! يدفن الحب الذي خيبتة نجية — « نجية أختها ويحبها — فكيف لو كانت امرأة أبي وضرة أمي » يدفنه بين أطلال طيبة وهو متكبر وعز الطبع فأما أن يختنق هذا الحب ويدفنه وأما أن يقضى نجية معه « لا شك في ذلك . ولن يرجع من طيبة ، إذا رجع إلا بقلب سليم ما في هذا أيضاً شك . كرامته عنده فوق كل شيء وهي أحق بالمراعاة من كل عاطفة . ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفوه « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت زجلي فكيف أوسخهما ؟ » متمثلاً بالنوراة .

وظفر الدمع من عيني شوشو وهي تتصور عناد إبراهيم وصلابته ومراة نفسه وانتساخ كل أهل في لينه أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على إبراهيم . إذ كيف يقسو عليها هذه انقوسة ؟ ماذا صنعت هي حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس في أذنها الأنصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس المحقق أنه إذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه ينزف ؟ » .

فقالت « نعم . نعم . » ودفنت وجهها في الوسادة وتركت دموعها تنهمر . وأفافت . . مريضة . كل أعضائها يخلد بعضها بعضاً . وماذا يكون المرض إن لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطاً وروحها مسحوقة وألمها ضائع والعزاء لا سبيل إليه . نعم هو يحبها . وهل

يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذى فى عينه ، والنبرة التى فى صوته ،
و وفاؤه لها . إن فى وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه : ولكن ما جدوى
وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ماخير أن يظل يحبها وقد اثمرت بها أختها -
كلتاها - ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : ان بها حاجة إلى قليل من
الراحة ! آه لو علم ! إن حاجتها إلى ما هو أكثر من الراحة ، ولورآها وهى
تبكى وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبها يتمزق لأدرك أن الراحة
لا تغنى !

ولم يكن يمسكها فى هذا اليأس الأسود الذى يخيظ بها والنقمة الملاحقة التى
تشعر بها لأختها ، إلا يقينها بأنها محبوبة ، والا ذلك المقدار من السعادة الذى
ينتج عنه هذا اليقين . بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزرخ وصدورها
تعيث فيه عواصف الألم . ومن الذى يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما
حدث ؟ قد تكون الأقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاماً جديدة فى
حياتها ولكن الأقدار نفسها لا قدرة لها على حرمانها الشعور بأن إبراهيم يحبها -
كلا ولا اليقين بأنه لن يحول أو يتغير . فقد فطنت شوشو بسرعة إلى عنصر
الثبات الهادئ الرزين فى أخلاق إبراهيم ، وحتى لو تغير إبراهيم أو حال عن
عهدها فإن ذلك لا يغير الحقيقة الراهنة ولا يمحو السعادة الحاضرة ولا يجرمها
كثرة الذى تضمن به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهى فى هذه الحالة
النفسية التى يختلط فيها الجدل والألم « أكنت أستطيع أن أحس هذا السرور
الخفى الدقيق بمثل هذه القوة لولم أتعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح
والزائف ؟ لولم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لا توهم أختها نجية أن بينها
وبين إبراهيم خبأ ؟ أكنت أعترض بحب إبراهيم كما أفعل الآن ؟ أكنت أعتد
بحبه لى - لى أنا وحدى دونها - عزاء وذخرا لى ، وكترأ أطويه فى أعماق
أعماق قلبى وطلسمأ أدفع به الشقاء ، ورقية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلى
القلب لحظة وتنسبه أن كل رقية عبث وكل سلوى محال ؟ »

ودخلت عليها أختها سميحة وهي على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت !

— « ماشاء الله . ماشاء الله . طبعاً ياستى . معذورة . ربنا يكون في حونك » .
فاحست شوشو بالرغبة في خنق أختها ، أو على الأقل في جلدتها بالسياط .
أليست مجرمة ؟ ألم تقض على نفسيين ؟ ألم توكل بهما الشتاء طول العمر ؟
ألم تقمع خيائهما في شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت
وقد زهاها أنها هي المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم
تكسب ، ورمتها بنظرة اختقار مرة ونهضت متثاقلة إلى المرأة فاصلحت
شعرها في صمالتها ثم التفثت إليها وقالت :

— أنا المعذورة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لاتلعبى دور الأم .
لست أكبر منى إلا بعام ، فلست أقبل منك أن تعدى نفسك مربية لى . أكبر
منى ؟ ليتك كنت الصغرى ؟ أعنى ليتك أنت مكافى ، أنت المطلوبة بدلا منى ،
ولكن بختك هكذا وأحب أن تكونى واثقة أنى لأعيا بك ولاأحترمك ، اعلىجى
هذا لترى نفسك وإلا فساكون مضطرة أن أسىء أدبى عليك أمام الناس ،
إن مايعنينى يعنينى وحدى ز

ورضيت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنغص
على أختها انتصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن
هذا تأثير ابراهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلاشك روحه
التي أوحى إليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا
التمرد لأنها ألفت الطاعة والانصياع والأدب ، فاذهلها ما سمعت وصددها
وآلمتها الوخزة ، وكان فيها جبن — والجبن والمكر صاحبان — فاشفقت
أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها إذا لم تراجع ، وأيقنت
أن العصفور لم يعد فى القفص ، فاقبلت على شوشو تسمح لها شعرها وتلاطفها
وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها بما قالت وأنها
لاتحب لها أن تدبل زهرة خمسها بالبكاء .

ولكن شوشو لم تلتن ولم تخدع بل زادها تجول سميحة إلى الملاطفة شعوراً بأنها وفقت إلى ما يجب عليها فنحت يدها عنها وقالت : « كفى نفاقاً . لا تحاولي أن تخدعيني : أأست أقول لك بصراحة أنني لا أحترمك ؟ فإذا تبغين مني ؟ ان ملاطفتك أبغض وأثقل من سلاطة لسانك فاذهي عني من فضلك وإلا فانا غير مسئولة » .

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت :
— كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود جاء وسيبقى الليلة هنا . وقد يسأل عنك فإذا نقول ؟ ان الأوفق أن تنزلي فما يليق أن يطلع على شيء .
فضحكت شوشو وقالت :

— الدكتور محمود جاء . يالها من فرصة ، أعني لك طبعاً •
فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقياً لا تكلف فيه وثارَتْ بشوشو ثغرها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة :
ولكن شوشو كانت تجد لذة في إيلاام سميحة فسرهما غضبها وحملت أن الوخزة شكت قلبها وقالت :

— مهلاً . مهلاً . أليس الدكتور كإبراهيم .. أعني رجلاً ؟ كل ما أخشاه هو أن أخرج للدكتور فيقع في خبائلي وأقنصه كما قنصت إبراهيم فتضيع عليك فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنتي بالفرصة الجديدة وأعدك أن لأرى الدكتور وجهي :

فلم تطق سميحة هذه المكايدة ومخرجت .
وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .

الفصل العاشر

« ثم سمعت صوت السيد قائلا : اذهب »

« آسفة ! »

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لأنها... ماذا قالت ؟؟ أوه لا أدري ! لم يعد لي عقل أدري به شيئاً .. آه لا تريد أن ترى أحدا .. هذا « الأحد » هو أنا ، لا سبب غير ذلك لا تريد والسلام . مامعنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرني أنها متعبة فأظهر قلتي وأعرب عن استعدادي لعيادتها فتبعث إليها بسميخة تبلغها أني سأعودها : سأعودها .. هية ، ليست زيارة ولكنها عيادة .. عيادة طبيب لمريض . شيء عادي جدا ، ولكنها ترفض رؤيتي ، تأتي أن تراني ، لا تريد أن ترى أحدا ... وأنا هنا واقف كالبلبل ، مامعنى هذا ؟ هاها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ما حدث ، وله العذر ، وكلما أطال التفكير في الأمر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ما حدث له من هذا القبيل باعتباره طبيبا ، وأول ما جرب الصدمات لرغبته في الحياة فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهابا ويحاول أن يضبط عواطفه ويقبض على الزمام الذي تغلت من يديه ويحدث نفسه بأن لهذا السلوك سرا لعله غير راجع إليه ، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، ربما كانت الصدمة التي تلقاها ليس معنيا بها على وجه التخصيص ، وإنما هي صدمة كان أي إنسان عرضة لها بدلامنه ، لو اتفق أي إنسان آخر كان بدلا منه . ولكن الذي لا يفهمه هو أن كل من في البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو أن يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبعبارة أخرى مريضة ، فهل هذا معقول ؟

كيف ينلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض ، أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟ ؟ ليست هذه عادة الأسرة ، فان الطبيب أول ما يفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة ، لأتفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب إلى القرية ، ولو كانت المصابة به فاطمة الزنجية ! ولهم هنا فى الإسكندرية طبيب لا يعودهم سواه ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لا بعد كل زيارة فما معنى هذا ؟ ما الباعث لشوشو على الآباء ولأختيها على السكوت ؟

ووقف أمام البيانو ينظر إلى الصورة واللعب المرصوفة فوقه ، وأخرج سيجارة وقده عودا من الكبريت ورفع له ليشتعل به السيجارة ولكن خاطرا جال فى ذهنه فنحى السيجارة عن فمه قبل أن تشتعل وسأل نفسه : « ولكن هل هى مريضة ؟ ان شكى عظيم ! كلا ! لا يمكن أن تكون متوعكة وتأتى أن يراها طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الأسرة كلها يحملنى على الاعتقاد بان المرض دعوى » . وهز رأسه كأنما أوشكل أن يهتدى إلى السر ويقع على حل للغز ، وأشعل السيجارة وزم شففيه وأرسل الدخان خيطا طويلا إلى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح إلى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لأنه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه أن يعودها ، وتقول له : « أوه يابنى والنبي كتر خيرك ، أحسن البنت مش عارفه جرالها إيه : لو تشوفها ماتعرفهاش . مابقلهاش شكل . روحى باسميحة ياخنى قولى لها الدكتور جاي يشوفها . إياك على الله يابنى امال ، لحسن موريانا الصديد » فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام أختها ، وتلك لهجتها ؟

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال :

— يادكتور ابن عمى هنا ؟

فالتفت إليها وقال : « لا . اسمعى . »

فدخلت وحرار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتقن أن يثير شكوكها
بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال :

— كيف أخذك الآن أرجو أن تكون حقيقة في غنى عن الطبيب
فقلت وهزت كتفها :

— أختي وو ..

فلم يفهم هذه اللغة ، لغة الأكتاف الممزوجة ، والشفاه الممطوطة ،
ولم يدر أبطمئن لما يتبينه في لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تم عليه
بحركتها من الامتناع والضيق .

فقلت سميحة « لا » ممطوطة جدا — « إنك لا تعرف شوشو يا دكتور
هي هكذا دائما . دعك منها فلا أمل في صلاحها » :

فقال : « إني آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن أنها أعقل .. »
فقاطعت : « أعقل ؟ ها ها ! ليس في رأسها رائحة العقل . هل
يغرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولكن الكلام عيب ، أرجو
أن تدع سيرتها ، فإنها تؤلني ، أتي أتخسر كلما رأيتها كل يوم . ولكن
ماذا نقول ؟ ربنا هو الهادي ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول ردا على كلامها وتنقصها لشوشو وآله
أن يسمع هذه الزراية ، ولكن كيف يدخل بين الأختين ؟ وسميحة هي
الكبرى ، فأسفها معقول . إذا صبح أن شوشو كما تصف ؟ كيف يمكن ؟
لأنها تبالغ ولا شك ..

وكأنما أدركت سميحة أن الشك يخالج الدكتور فقلت :

— أنت معذور إذا لم تصدق ، لأنك لا ترى شيئا . ولو كنت غريبا
عنا لما كاشفتك بما في نفسي من الأسف والألم ، وقد ضاق صدري
ولم أعد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختي نجيه وهي كأمي أحييتها الحيل ،
بالطبع ليس هناك شيء معيب ، هذا بديهي ولكن تصور أنها مثلا
لا تعرف شيئا عن شئون البيت وتديره ولوازمه ، يكون معها الشيء

فتلقيه حينما اتفق وتكون غرفتها « كسوق الكانتو » والخادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها ، ولو ظلت شهرا على هذا الحال ، وتعطيها مبلغا فإذا سألتها عنه كيف أنفق اكتفت بأن تقول لك « في البيت » حتى كتبها التي تحبس نفسها في غرفتها أياما لتقرأها أنا التي أرتبها وأنظفها وأنفض التراب عنها ولا تستطيع أن تشتري لنفسها منديلا أو تفصل ثوبا .. وهذا كل ما استفادته من المدرسة ! الكتب ليس إلا ، وماذا أقول ؟ أقول تتفكر تتحسر ؟

وتهدت .

ووقف هو كالأبله .

وظهر الشيخ على في الباب فسد فضائه .

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر .

وقال الشيخ عل وهو يدينو من الدكتور ، أو على الأصح صاح به :
— في الحديقة يكون منظر أحسن . ليس هنا مكان التماثيل ، الغرفة أضيق من أن تتسع لتمثال كبير ! في الحديقة . تعال نختبر المواقع وننتق أوفقها ، أوه ما هذا ؟ .

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة .

وقال الشيخ على : « أتفاح هذا ؟ لماذا تحمله في جيوبك ؟ لا ليس هذا تفاحا . أهو فحم كوك ؟ » .

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل في جيبه فحم « كوك » .

فابتسم الدكتور وقال « فحم ؟ لا لا » ولكنه لم يمد يده إلى جيبه ولم يخرج مافيه ، وكيف يخرج علبتي الحلقات ويربهما للشيخ على ؟ ومع ذلك لماذا لا يفعل ؟ هل كان ينوى أن يقدمها سرا ؟ كلا ولكنه لم يكن يفترض أن يكون الشيخ على حاضرا ساعة الاهداء ، ولا بأس بان يعرف الحكاية بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع إلى المركز .

واستحيا أن يخفي الأمر عن الشيخ على ، وخطر له أن هذه قد تكون

فرصة أتاحت للتخلص من الحلقات التي أنسبها لما صدمته شوشو برفض عيادته ، فأخرج العلبتين ، ومد بهما يده للشيخ على ففتحهما هذا وقال :
- حلقات ؟ ها ها ! تكاثرت الظباء على خراش ! ! بل على العكس ، تكاثر على الظبية الخراشون .

فلم يفهم الدكتور ، وخيل إليه أن قريبه يهذى ، خراش وظباء ماذا يعنى ؟ ورفع إلى الشيخ وجهها كله علامة استفهام .

فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيده الكبيرة « لم يخطيء ظني يا صاحبي ! وسأصف لك دواء هو خير من كل طبك الذي لا ينفع أحدا ، طبك الذي يخونك الآن ، طبك الذي ترفضه شوشو . . آه . . لقد فضحك وجهك . . فاسمع : دواؤك أن تخرج إلى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقات ، فتلقهما فيه وتلقى نفسك وراءهما هذا هو دواؤك . فلا أمل لك في شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقها فذهب إلى البحر . تعال معي فقد تحتاج إلى معونتي . »

القسم الثالث

لأنى دعوت فاييتم ، ومدت يدى وليس
من يبالى ، فانا أيضا أضحك عند بليتكم

الفصل الأول

كيف أصف لك عن هذه

لو رأى القارىء إبراهيم فى الأتصر بعد الذى سرددناه لك فى الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أو على الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله فى الهياكل والمقابر ، والهزيع الثانى من الليل مكباً على الكتب . أو مدوناً ملاحظاته وآرائه فيما شهد فى يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيرة من الكتب التى وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الأجانب التابعون للحكومة المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الأطلال ويذهب يفكر — لا فيما يحيط به من المعاهد الدارسة ، بل فى هذه الصحراء العارية التى تكتنف كل شىء ، والتى عظم وقعها فى نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه فى حلة وترحاله وفرشها وبسطها حوله فى حيثما يكون من الأرض — نعم ليت هذا فى وسعها ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها وأن يلفها مع ثيابه وأشياءه فى حقائبه ، حتى إذا نزل مكاناً واستوحشت نفسه أنس بأن يخرجها وينشرها أمامه ويتأملها ويذكر بها ليلاليه فيها بما اشتملت عليه — فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكرت تغذوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها ، فظاهرها مجذب ووجهها أجرد ، ولا علم لأحد بما فى جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض ، وكذلك هو : أخطأه الحظ فى ناحية ، فأجذب ظاهره وبقي باطنه زائحاً بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب إبراهيم نشوء هذه « العاطفة » فى نفسه للصحراء ، فقد قرأ — أين ياترى ؟ ما أخون ذاكرته فى هذه الأيام — أن بعضهم

كان يقرأ وصفاً للصحراء الكبرى فأدهشه أن يحس أن أنفه قد غطته البقع فأهسل عن القراءة مخافة أن تخرج على بدنه الحصف من لفح ما يصف الكاتب .

وهز رأسه وتساءل وهو يدير عينه في الفضاء والخراب حوله .

— ماهي هذه المدينة؟ أهي شرط مرتبط « بالإنسانية والمروءة »؟ بانقطاع العذاب أو التعذيب؟ كلا فقد كانت أشور على حظ عظيم من المدنية وكان أهلها مع ذلك يسلخون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا يقعدونهم على الخوازيق وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون كما يموتون في حومة القتال !! وروما أيضاً كانت مركزاً للحضارة في أيامها ، ومع ذلك كان أبناؤها يلتذون برؤية مناظر الفتك — فتك الحيوان بالإنسان والإنسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما . ومصر التي تهرني آثار مدنها ماذا تقول نقوشها على جدران هياكلها؟ ماذا يقول الهرم وحده؟؟ في كم سنة بنى وكم روحا زهقت في سبيل حجارته؟ .

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية؟ ولا هذا أيضاً فإن أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما تستخدمان الجموع المدربة والجماهير المنظمة في جيوشهما وفي اتحادات الحرف فيهما وبذلك يتيسر تحقيق مآرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ، ويبلغون غايتهم كما يفعل زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » ؛ وبفضل الكثرة المدربة على الطاعة . والرأي العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق في ظل الديمقراطية؟ .

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة؟ حتى ولا هذا فإن الفساد والرشوة فاشيان في أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على استفاضةتهما .

« ماذا إذن؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية؟ » .

أيها ابتسم وقال لنفسه « إن جو المدينة أصلح ما يكون للرزائل الجنسية »
وتلفتت عينه إلى ناحية الفندق الذى ينزل فيه .

ومل هذا السرد والنفى . ونهض وهو يقول « إلى أن يجيء ذلك اليوم
الذى يدرك فيه الناس - كل أحد - أن الرقى العقلى وحده ، أن الكولتور
الذى صدع رؤوسنا به الألمان - إن المدنية التى نلهج بها ليست هى الآخر بل
الأول ، ولا النهاية بل الابتداء ولا الغاية بل الوسيلة ، ولا الحصاد بل
التربة - إلى أن يجيء هذا اليوم فلن يكون رقى الإنسان مستحقا للذكر
إن روح الإنسان هو المهم » .

وانحدر إلى مقبرة أمنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر
وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر ، ودخل القاعة ذات
العمودين ونزل سلم أخرى إلى قاعة ذات ستة أعمدة ، وجدرانها مغطاة
بالنقوش والمناظر المنقولة عن « كتاب ما فى الآخرة » ، ومضى إلى آخرها
وأطل على تابوت الملك وأشار إلى الحارس فأطفا الأنوار الكهربائية ولم
يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقدة وكأنه نائم ،
وقال لنفسه وهو يتأمله .

- إن هذه الأعضاء النخيفة المعروفة كانت فى حياة صاحبها مكسوة
باللحم قوية العضل ، وكان هذا ملكا قوى الجسم وكان ينزع قوسا لا يقدر
أحد من حاشيته أو جنوده أن ينزعها . وكان حاكما قويا شديدا البطش
عظيم البأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العديدة والشعوب
المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبله فى دائرة ملكه ، وكان قاسيا على
خلاف أبيه حتى ل قيل عنه أنه ذبح بيده عدداً من الأمراء الذين ثاروا
عليه وربط واحداً من رجليه وعلقه مقلوبا يتدلى من السفينة - رأسه إلى
الماء وربطه إلى السماء - هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرنا ومع
ذلك يحس المرء وهو ينظر إلى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن
مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور - ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة

فوقها ليست شيئاً — يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كان هذا الزمن لا شيء على الحقيقة ؟ هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الابد ، وهم ليس إلا ؟ عجيب .. عجيب ! » .

وانثنى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الأصحاب : مومياء عجوز لا يزال شعرها الذي أشابته الأيام يلمع كالفضة ، ومومياء فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة على صدغه خصلة من الشعر .. »

ونحى إبراهيم عينه وهو يقول : آخر كل شيء هذا .. آخر الحزن . والسرور .. آخر السعادة والشقاء ... آخر المجد والعزة والذلة والحمول ، آخر الشهرة وآخر الخفاء .. باطل الأباطيل الكل باطل .. صدق ابن داود .. صدق سليمان .. » .

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

— ٢ —

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع حنينه إليها ؛ لكن بضعة أيام بين هذه الأطلال والمقابر والمومياءات والصحراء قللت من حدة غصبه على أختها نجية وإن لم تنقض عزمه المبرم ومكنته من أن يتدبر ما حدث وهو ساكن . فاستطاع أن يقنع نفسه بأن رادها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء أن يكون له محل ، وماذا قالت له ؟ أنها لم تزد على أن قالت أن إبراهيم كشقيقتها وليس أبعث على سرورها من أن يكون زوج أختها ، ولكن شوشو هي الصغرى ؛ هناك سميحة وهي أكبر منها ؛ فإذا تزوج شوشو فقد قطع الطريق على سميحة ، وخلق بالأسنة السوء أن تذهب تحتلق أسباباً شائنة لتخطى سميحة . فهل يرضى هو هذا ؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى .

لشوشو على سميحة ، فإذا شاء أن يتزوج سميحة ، فهي له بلا مهر ولا قيد ولا شرط .

هذا كل ما حدث ، وهو عين ما كان يتوقع ، وصحيح أنه بلغه أن نجية جلفت أن لا تعطيه شوشو ولو ملأ حجرها ذهباً ، ولكن لماذا قالت ذلك ؟ ما الذي أنطقها بهذه الكلمة الجارحة ؟ إنه الشيخ على ! نعم هو . فقد أراد أن يحملها على القبول والتساهل ، وكان عنيفاً كعادته ، وهاجها بسخره ؛ فغضبت وقالت ما قالت ، ولا يزال صحيحاً أن عدواً عاقلاً خير من صديق جاهل .

وابتسم . . الشيخ على صديق جاهل ؟ كلا ! إنه الإخلاص مجسداً ، واللبكاء مصوراً ، ولكن ذكاءه خانه هذه المرة ، فندت الكلمة الجارحة عن صدر نجية أكل ما تنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناطه . ومن يرد الكلمة بعد أن تخرج ؟ من يعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟ .

هذه هي المسألة ، فلا سبيل إلى إعادة الكرة . نعم لم يذهب الأمل ، ولكنه هو لا يستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالبا أو خاطبا . كلا . هذا محال ومحال مثله أن يرى شوشو . . . وكيف يراها وأين ؟ وإذا لم تقىء نجية إلى المرضى ولم تتقدم من تلقاء نفسها إلى إبراهيم ، فكل رجاء عبث ؛ ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان ؛ واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلي في عروقه وهو يفكر في كلمة نجية ، كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ لو ملأ لها حجرها ذهباً ؟ نجية تقول هذا . . . وهي مع ذلك مستعدة أن تزوجه سميحة بلا مهر ! ها ! وأدار وجهه . كأنما أراد لينقى أن يراها ، وتصاب وجهه وثبت حلاق عينه

وصرت أسنانه وهو يقرضها من الغيظ وصار منظره مفرعاً ، وكانت فتاة مصرية تمر به وهو لا يراها ؛ فوقفت وارتفعت يدها البضة إلى قلبها ، ثم رجعت من حيث جاءت ، وولت هاربة .

وزايلته النوبة ؛ وعاوده السكون ورجع يسأله نفسه « كيف ؟ كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لا تلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه .

غير أن الاضطراب لم يطل ، لأنه كان أصبح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط ، فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها « ما سؤالى هذا عن الكيف ؟ إنه لا محل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح ، فالفراق موجود ؛ أما العذاب فهل لم أحتمله إلى الآن ؟ لا أدري . كيف ؛ ولكن الذى أدريه أنى احتملته والسلام ، ولست أرى أنى خرت أو وهنت فيجب أن أضع حداً لتخليط النفس . نعم لا يجوز أن أسمح لها بأن تحيلنى امرأة لاتعرف إلا البكاء » .

وشوشو ! مسكينة مسكينة ! حزنها دفين فى صدرها . وليس لها ما يعينها على التسلى ، بل كل شيء يؤجج النار التى فى قلبها ، ولا صديق بجانبها أو صديقة ، كل ما حولها عدو لها ؛ ما خلا الشيخ على وهو لا يسعه كثير ، ولو كان فى مقدوره شيء لما حدث ما حدث ، فخطبها أدهى ، ومصيبتها أعظم ، ألا أبرق للشيخ على أوصيه بها خيراً ؟ يحسن ولا يحسن ، ولو أمكن أن ترسل البرقية إلى غير بيته . . ولكن هذا غير ميسور ، وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعاً بأمره ويسألونه عنه ، وربما كان الآن فى القرية فيفتحونه ويطلعوا عليه فيقع المحذور . كلا . ومع ذلك ما الحاجة

إلى إيصاء الشيخ على ؟ ثم إني . . نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . كل القطع . . وفي خلال ذلك ماذا ؟

لا أعلم سوى أن قول القائل :

إن من مائة الزمان بشيء لحقيق إذن بأن يتسلى

يدور بنفسه ، صلت . ولكن ذهني لايسعني باقتراح . فلندع الأمر للمصادفة ، وبحسبي الآن كأس من الويسكي .
وصفق .

الفصل الثانى

« كل طرق الانسان نقيه فى عينى نفسه »

— ١ —

كان الشيخ على لا يزال راقدا فى سريره وإن كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ، وكان سريره يسد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة وأختها الكبرى نجية فيها ، وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقعاً أسود تسدله على وجهها حين تريد أن تخرج متنكرة ، لأنه كثيف يغطى الوجه كله ما عدا العينين :

— أعوذ بالله من البيت يا أختى ! لم أر فى حياتى أقدر منه ولا أضيق :
غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالحصير والهواء ينفذ منها . والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الحصير ، وفى أصابعها خواتم من الفضة ، وفى أذنها قرطان كبيران من الفضة أيضاً ، وعلى ساقها خلخالان من الفضة كذلك . لا شئ من الذهب أبداً . كل ما تتحلى به من فضة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ولكنها لم تنزل إلا بعد أن أزدحم البيت — الغرفة والسلام — بالنساء . وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضاً من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها إلى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعن لى رأسى . ومع أنى كنت لابسة هذا الإزار الخلق الذى استعرتة من فاطمة ، فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة .

فقاطتها نجية قائلة :

— وماذا قالت لك ؟

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فألقته على الكتبة وهمت

قليلاً لتسحب الإزار من تحتها ثم جمعتها وكومتها وقذفت به وراء البرقع وتنهدت ثم قالت :

— قالت ؟ لقد قالت لي كل شيء ! روت لي الماضي كله وكشفت لي عن المستقبل أيضاً . كيف عرفت يا أختي ؟ إن هذا لغريب والله ! لكأنني كنت في حلم حتى ما كنت نسيته أذكرتني به . لقد ذهبت إطاعة لك فقط ، ولم أكن أعتقد أنها ستعرف شيئاً ، أو أنها ستنبئني بماض أو حاضر ، وكنت أقول لنفسي في الطريق : ومن أين لها العلم بشيء ؟ إن هذا كله دجل ولكني لم أكد أجلس إليها وأناولها المنديل حتى قلبته في كفيها وقالت : « هي ! لا تصدق ! إيش عرفها دي رخرة ؟ معلهش ! يمكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ! أهو حانشوف بعينا ونسمع بوجدنا » وأقول لك الحق يا أختي لقد دهشت ونججت من إنكارى قدرتها على الإنباء بالغيب ، وضحكت مستغربة لأنها كانت تتكلم وهي مطرقة وكأنها تقرأ في كتاب .

فقالت نجمة :

— ألم أقل لك ! ليس مثلها ، كل من رآها يروى عنها الغرائب ، ولكن ماذا قالت لك !

— « قالت لي ! وهل تركت لي شيئاً لم تقله ! حدثتني عن شوشو وعن إبراهيم ابن خالتي وعن الدكتور محمود . ليس بالإسم طبعاً ولكن بالوصف . أيوه قالت لي « آل ! طيب ماعلهش ! بكره نعقل ونرجع نقول ياريت اللي جرى ما كان ! لكن نقول إيه ونعيد إيه ؟ هو الضفر يطلع من اللحم ؟ هيء لكن ده مش ممكن . ولا لما تشوف لبن العصفور . وازاي ده بجي ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين ، واهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام » .

نجمة مقاطعة . « شوفي يا أختي ناصحة صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ » .

فقلت سميحة : « آه ! قالت لى فى الآخر هاتى حاجة أقرا لك عليها ثم خديها واعطيها له ليأكلها فيفك العمل بإذن الله . فقلت لها إنه مسافر وبعيد جداً ، فقلت إنها تعرف ذلك ، فهاتى الحاجة أولاً وبعد ذلك تكون إرادة الله .

فوضعت نجية كفها على خدها واثكأت بكوعها على ركبتيها وقالت :

— ولكن أى حاجة ؟ ألم تفكرى فى شىء يصلح ؟

ووقفت سميحة وهى تقول بصوت أعلى قليلاً :

— لقد فكرت فى كل شىء ، وهل يربكنى شىء ؟

ثم مالت فوق أختها وقالت :

« فكرت أن أشتري شركولاته — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية . أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله فى البوستة إذا كان لا يزال باقياً فى الأقصر . فما قولك ؟ »

فدت نجية يدها حتى لمست رأس أختها ومسحته وقالت بلهجة الإعجاب :

« يحرسك ربى من العين . يحرسك ربى من العين »

وتلفتت يمينا وشمالاً .

— ٢ —

قال الشيخ على لما سمع هذا :

« همهم ! شكولاته مسحورة ! تحبب فيها إبراهيم ! » .

واستوى قاعدا على السرير . وكان الشيخ على — على الرغم من نشأته الأزهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم — لا يؤمن بشىء من ذلك ولا يطبق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن زوجته أغرت أختها بالخروج خلصة فى البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه

أن زوجته تتغفله وتدور من وراء خديعته وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجديها وأنها ستحمل إبراهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهي إذن لم تعبأ برأيه ولم تكثرث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين إبراهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها إن إبراهيم لا يطيق سميحة وأنه إنما يحب شوشو ، ثم هي لا يكفيها أنها حالت بين شوشو وإبراهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن أطلقت لسانها بما أطار إبراهيم إلى الأقصر وهو موغر الصدر مهيض الكرامة ، وأن جعلت إبراهيم حقيقاً أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا إرادة ولا سلطان له في بيته ، لا يكفيها كل هذا ، بل يجب أيضاً أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجرب أختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتخزيها بهذه المساخر التي لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر في هذا ، ويتأمل ما صار إليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهية والنفور ، واثنتي خاطره إلى شوشو المسكينة التي لا صديق لها ولا معين سواه في هذا البيت ، والتي لا تبارح غرفتها مادام هو بعيداً عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها وتهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه وليته ومرونته .

ووفق .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يجب أن يراها وإذا جاءت إليه صرفها من غير أن يرفع وجهه إليها وأمرها أن تدعو الخادمة .

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق :

« شوشو » .

فخرجت في طلبها .

ودخلت « زوزو » إبنته وقالت :

— بابا .

— نعم .

ورفعها إليه وأجلسها على رجليه — فوق اللحاف . وقبلها .

— متى نذهب إلى أبي قير ؟

— اليوم .

— صحيح ؟

وصفقت يديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتيها وطوقته وأوسعته
تقبيلًا في عينيه وأنفه وخدييه وأذنيه .

ونفرت شوشو على الباب ثم دخلت متثاقلة متحاملة تجر رجليها ، وعلى
شفتيها ابتسامة ليست في عينها فقد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه
الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى يمينه وأهوت عليها تلمسها ، فانتزعها
وهو يتكلف الابتسام :

— بل هنا . أسرعى فإن جلدة وجهي تأكلني .

فابتسمت له وقد شعرت بشيء من التسرية في حضرته ، وطبعت على
خده قبلة بنوية صامته ، ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ولتمتها كأنها تفيض
عليها من ذلك الحب الدفين في صدرها المحبوس بين ضلوعها ، وأغرورقت
عينها الشيخ على وهو يراها وقد تعلق كل منهما بالأخرى ، ثم رفع وجهه
إلى السقف وقال متمتمًا : « الله يجازيك يا نجية ! » .

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال :

— شوشو .

فلففت إليه وجهها الساكن الحزين وقالت :

« نعم » ولم تزدد .

فقال وهو يردعًا زوزو :

— زوزو تقترح أن تذهب إلى أبي قير ونقضى بقية النهار هناك ، وقد وعدتها فما قولك ؟

فقلت : « أمرك » .

فقال وهو يميل نحوها ويكاد السرير يميل معه :

— أنت معنا ؟ قولى نعم .

ولكنها لم تقل نعم ، وإنما قالت كالمستغربة .

— أنا ؟ حاضر .

فأحس الشيخ على كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لها ، على أنه ملك نفسه وقال :

— لا أراك يسرك هذا .

فقلت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن في الدنيا ما يسر .

— يسرنى ؟ أوه . لماذا لا يسرنى ؟

فلجأ الشيخ على إلى المزاح ليرفه عن نفسه وعن شوشو أيضاً وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ في التقليد

— لأنك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا .

فابتسمت شوشو — بشفتيها فقط ، فقد خبا الضياء الذى كان في عينيها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت :

— ماذا كان ينبغى أن أقول إذن ؟

فمضى الشيخ على في مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال :

— لا تقولى شيئاً . كان ينبغى أن تقبلى على وتطوقينى بذراعيك

وتقبلىنى هنا وهنا . هيه ؟

فضحكت ، ورنت ضحكها فضية النبرات ، ولكنها كانت ضحكة

قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولكن الباعث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيها ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هذه « الدبة » ، وجمال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه ، فارتج السرير وفزعت زوزو في أول الأمر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهي تضحك مسرورة جدلة .

الفصل الثالث

« من هذه الطالمة من البرية ؟ »

— ١ —

مضى أسبوع على إبراهيم وهو في الأقصر — وحده — لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد سوى موظفي الفندق الذين أفضى إليهم — كما هي العادة — باسمه ومهنته وما إلى ذلك ، حتى طعامه كان يتناوله وحده في أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن ينفرد بها على الرغم من ازدحام الفندق بالأجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك ، وقد لفت الأنظار إليه بإثاره العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل ما يجري حوله كأنه لا يرى ولا يسمع ، وإكبابه على القراءة والكتابة ، وعنايته بالآثار ، وقد التقى به كثير من النزلاء — رجالا ونساء — في معبدى الأقصر والكرنك وفي وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشروء نظراته واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاخطوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الإنسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق فعلموا منه كل مدون في سجله — وما أقل ذلك — وما كادوا يعرفون أنه أديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لإبراهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما في هذا الفندق ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة .

واتفق أنه كان عائدا مرة من وادى الملكات ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع ، حانت منه التفاتة إليهما فإذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها في ثياب أجنبية وقد مدت رجلها وأسندت ظهرها إلى قاعدة التمثال وحدثت في الأفق بنظرها ، فكبح البغل الذى بجر عربته —

وكانت من النوع الذى يسمونه « السنكارة » وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين - ووثب إلى الأرض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم إليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت ، مؤكدة له أنها لامتعبة ولا تائهة وأن له أن يطمئن وأن يثق فى أنها ستعود سالمة .

وكانت الفتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، وكان قدها نحىلا ولكن جسمها ناضج ، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها ما يدل على العامية ، وكان لونها على سمرة رائقا صافيا ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سياها ما ينبئ أنها فكرت كثيرا وعرفت فوق ما يعرف أترابها ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ، ولكنه محيا أبجل مافيه ما ينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفها ، فقد كانت العينان عسلتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العين واسعة ولكنه لم يكن فيها شىء من المكر ، وكانت إذا رفعتها فجأة يباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لا يسع المرء إلا أن يقتنع بجمالها وفنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين وجبينها واسعا عريضا يخيل للمرء أن لصاحبه ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل ملتوية يعبث بها النسيم . ولكن أغرب مافيه فها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولكن الشفتين كانتا حادثين حاسمتين باردتين ، وكان لونهما سريا ولكنهما لا تفتران عفوا مع كل خاطر ، وإنما تتحركان بالإرادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صلابتهما على الرغم من لينهما ، شىء يجعل الفتاة تبدو أكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان العسلتان ، وخداها المستديران - هذه هى كل معارف الفتاة الصغيرة . أما جبينها وفها فتلك معارف المرأة التى خلفت الشباب وراءها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الأقدار أن تمطر السماء فى ذلك المساء رذاذا ضعيفا بعد أن

ركب إبراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطئ الأقصر قبالة الفندق ، وقلما ينزل من المطر كثير أو قليل هناك ، فذكر إبراهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى التمثال ، فأسرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود إليها ليقلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها. أو يفكر فيها بعد ذلك .

- ٢ -

دخل إبراهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخرا في تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كعادته من غير أن يلتفت يمينا أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لورآها لما حفلها ، وكان جائعا وألوان الطعام شهية والنبيد حسنا ، فأقبل عليه ياتهمه بشره غير معهود فيه ، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل إليه القهوة في حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى ابنه ، فتناول القلم فجرى بضعة سطور به ثم توقف ، ثم أمسك وأبى - أى القلم - أن يخط حرفا . فقرأ ماكتب وزاد نقطا هنا ووضع حرفا هناك . وأنه لكذلك وإذا بالخدام يضع أمامه صينية عليها إبريق فيه القهوة ، وإلى جانبها فنجانان ، وخرج الخادم لإبراهيم يفكر في رسالته التي استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانيين فصدّه هذا ، وخطر له أن الخادم ربما كان قد أخطأ وجاء بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سيرجع الآن بعد أن يظن إلى خطئه » ورح ينتظر ، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خيلت إليه أطول مما هي ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « أنظر في إبريقها فإن كان مافيه قليلا فهو لي وحدي وإن كان كثيرا فلا شك أن هناك خطأ » وتناول الإبريق ورفع الغطاء فإذا به ملآن .

ولما رفع وجهه عن الوعاء التفت عينه بعين الفتاة التي صادفها في الطريق

وأرسل لها المركبة ، فارتد إلى الوراء ، وكاد الإبريق الصغير يسقط من يده ، لكنه استطاع بجهد أن ينهض والإبريق بين أصابعه وقال :
« لقد كنت أنظر في الإبريق هل مافيه لواجد أو لاثنين » .
فنظرت إليه مستغربة ، ثم رأت الفنجانيين وابتسمت وقالت :
ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا ، فاختصر المسألة على ما يظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ » .

فقال إبراهيم : « لقد كنت أفحص الإبريق الآن . وكان ذلك أشبه بالمقامرة ، فإذا كانت القهوة لواحد أهملت الفنجانة الأخرى ، وإذا كانت لاثنين انتظرت » .

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالة فقال :
— بسكر ؟

فقالت : « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك » .
فقال مغالطا : « على الانتظار ؟ » .
قالت : « كلا . بل على .. » .

فقال مقاطعا وقد أدرك مرادها :
— على أنى لم أشرب القهوة كلها ؟

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فرارا من الشكر وقالت :
— ألم تمر بي اليوم عائدا من وادى الملوك ؟

فقال : « نعم . برغمى ! »

ففتحت عينها جدا وقالت : « برغمك ؟ » .

قال : « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التماثيل على الحشائش فى المطر ؟ أتسمحن لى أن أدخن » .

فأذنت له بابتسامة ، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر مذهبة ، وقالت بعد أن أشعل لها السيجارة :

-- ولماذا لا أجلس هناك . . في المطر ؟
فقال : « لا أدري ، سوى أنى لا أعرف أن الناس يحبون التعرض
للمطر ، على أنك لم تكونى تعرفين أنها ستمطر » .
فقالت : « هذا صحيح . ولكنى أحب المطر . ما أقل من يحبونه
أو يذكرونه بالخير . والفلاحون . .
فقال : « إنه فى مصر دائماً ، إما أكثر من اللازم وإما أقل من
اللازم » .

فقالت : « إن المطر يعبد فى بعض البلاد » .
فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر إليها :
— إن ذلك يتوقف على المطر .
فقالت : « ماذا تعنى ؟ » .
قال : « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الإنسان الرمازم .
أما أنا فأصارعك أنى أحب أن أنظر إليه منهنرا — ولكن من وراء
زجاج النافذة » .

وكانا قد شربا القهوة — باردة — فنهضا وذهبا يتمشيان فى حديقة الفندق
الواسعة والناس ينظرون إليهما فى دهشة ، كأنما استغربوا أن يروا إبراهيم
ومعه إنسان ، والتفتت إليه فجأة وقالت :
— لقد كنت أفكر . .
فقال : « وأنا كذلك .. »

فصت فى كلامها من غير أن تعبأ بمقاطعته :
— كنت أفكر فى أنك أقل الناس فضولا أو أكثرهم عدم مبالاة .
فقال : « أنا ؟ ربما ! أعنى أنى حقيقة لأبألى سوى ما أنا فيه ، ولا يجاوز
فضولى ما تأخذه عيني » .

فالتفت إليه لتبين فى وجهه هل يتكلم جاداً أو هو يريد أن يثنى

عليها ضمنا ، ولكن وجهه كان خاليا من كل أمارات المزاج فصدمت
هنية ثم قالت :

— لقد كان ينبغي أن تسألني عن السبب . ان المرأة حين تنهم
الرجل بقلّة الفضول أو قلة المبالاة يكون معنى هذا أنها تريد أن تخبره
بشيء .

فقال : « أهذا صحيح ؟ » .

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل إليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما
من الكلفة .

وقال : « إذن أرجو أن تخبريني » .

فقالت : « إنك تتعب المحادث — لاتنهرز فرص الكلام التي يتيحها لك » .
وابتسمت ، فقال :

— ولماذا ترينني رجلا عاديا جداً ؟

قالت : « لم أقل ذلك ، إنما قلت إنك قليل الاكتراث ، قليل
الفضول » .

فقال : « ولماذا ؟ أعني أرجو أن تذكر لي السبب » .

قالت : « ألم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجذ : « ولكنك عابدة المطر . فماذا أريد أن أعرف

فوق ذلك ؟ » .

فضحككت وهي تقول :

— لكن أبي لم يسمني هذا الاسم !

فقال : « إن آباءنا لا يعرفوننا كما نحن » .

فهزت رأسها موافقة فقال :

— إذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فما عليك إلا أن تخبريني .

فقالت : « إذن أنت لاتعرف اسمي » .

فقال : « لا أعرف الاسم الذى اختاره لك أبوك » .

فقالت : « اسمى .. اسمى .. ليلي .. » .

فقال : « اسم جميل ولا شك .. ليلي .. نعم ، ولكنى أرجو أن تظلى عابدة المطر ؟ » .

فقالت : « لماذا ؟ » .

قال : « أخشى .. أخشى أن أصبح أنا المخنون » .

فضحكوا . وعرفها بنفسه وهما راجعان إلى الفندق .

الفصل الرابع

« أن تكن سورا فنبني عليها برج فضة
وان تكن بابا فنحصرها بالواج أوز »

— ١ —

بدأ ابراهيم يلاحظ أن الناس — ونعني النازلين في الفندق يتبعونه بنظراتهم ؛ وان رعوسهم تتداني حين يظهر في مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن ان معرفته بليلي هي التي يرجع إليها اكثر انهم له والتفاتهم اليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وهناك تبين منها ان نزول هذه الفتاة في الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها اكثر من ان اسمها ليلي وانها سارت على الأيام تصحبه في روحاته وغدواته .

ومن العسير ان نقول ماذا كان احساس ابراهيم نحوها على الدقة فقد كان يجد في محضرها روحا وايناسا ، ويحس ان الوحشة قد زابت عنه ، ولكنه لم يكن يشاقها حين تغيب ، وكان ربما قضى النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى اذا التقى بها شاع في نفسه السرور ولم يعن هو بأن يحلل عواطفه ، لأنه على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة الى ذلك ، ولم يحس بأن لهذه العواطف الحاحا او ضغطا ، وكل ما هنالك ان وقدة نفسه كانت تهدا حين يراها ويحادثها وان الاضطراب الذي في صدره كان يسكن ، وان ألسنة الهوائف كانت تنقطع ، وان النجاوى كانت تخفت ، وانه كان كالذي صهرته الشمس ورأى شجرة قنواء فال إليها يستروح في ظلها ..

وراق ابراهيم بعد ان فطن الى اهتمام الناس بليلي ان يلاحظ مظاهر

ذلك . وان كان قد ظل عاجزاً عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية وأكثر النزلاء أجنب على أن الأجانب كانوا محتشمين في التفاتهم إليها . وكان الأمر لا يعدو التهامس والنظر — خلسة على الأكثر — أما المصريون فكانوا أجراً ، وكان أمرهم معها يشبه المطاردة وقد رأى ابراهيم أحدهم مرة يعترض طريقها ويخرج من جيبه منديلاً فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات كأنها كانت في هذا الجيب مصادفة ، أو كأنما صاحبها قد نسيها فيه ، فسارت ليلي في طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض ما في البساط من النقوش ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفي مرة أخرى كانت ليلي تتكلم على التليفون فاندفع شاب إلى غرفته وفتح بابها ولما رأى ليلي شرع يعتذر إليها ، كأن ما وقع منه كان عفواً ، ولكن ليلي مضت في حديثها على التليفون وكأن الباب لم يفتح وكأنما لأحد في مدخله يكلمها معتذراً متأسفاً .

وكان هناك آخر لا تجلس ليلي في مكان إلا دار به ينظر حوله باحثاً عن شيء كأنما من خواص ما يفقد أن يكون على مقربة من ليلي .

ورجل آخر في سن الكهولة كان يخيل لإبراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع طربوشه ويضعه على الكرسي الذي تهمل ليلي بالقعود عليه ، ليجرها إلى الاعتذار أو إلى الاصغاء إليه وهو يعتذر لها . وهكذا ..

وعنى ابراهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحكون بليلي ، فقد منهم تسعة عشر ، فأطلق عليهم رقمهم ، وسماههم التسعة عشر وكانوا جميعاً تنقصهم شجاعة الإقدام على مخاطبتها ، أو لعل الأصح أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ، ولكن شيئاً في وجه ليلي وهيئتها كان يصددهم ويزجرهم ، فقد كان في هيئتها احتجاج ، وعلى وجهها وقار مستغرب ممن هي في مثل سنها ، وكان الناظر إليها لا يسعه إلا أن يحس ذلك .

ومن غريب ما حدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت فجأة بعد

أن نزلت ليلي في الفندق وصاحبت ابراهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف ابراهيم مواطنيه جميعا وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبل فإذا دخل الصالون ، ألح عليه كل من يكون موجودا منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجائر عليه وتقديمها اليه والتبرع باشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا في أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الأسئلة عن ليلي ، فعلم أنه ليس محترما لذاته وأن مجده مستعار ، والضوء الذي عليه منعكس عن تلك المرأة .

وفي رابع يوم لاتصال ابراهيم بليلى ، كان عائدا قبيل الظهر من جديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان الى الجديقة بعد كلام متقطع :

— اسمح لي أن أؤكد لك أني لا أريد أن أثقل عليك بوجودي ، ولكني أحب أن أسألك كم ساعة في اليوم تستطيعين أن تتحملي ظلي ؟

وكان يتنسم ، وفي وجهه ما يدل على أن للسؤال غرضا آخر وأنه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهي حائرة عاجزة عن التكهن فقد ألقت منه اللف والمحاورة والمفاجأة .

— اني هنا كما تعلم وجدى .

فقال وهو ينكت الأرض بكعب خذائه أثناء السير .

— إن هذا لا يكفي ، ثم أنه خبر لاجديد فيه فهل لك أن تجيبني ؟
فقال بلهجة رقيقة .

— ألا تختصر الطريق وتفضي الى الغرض من السؤال ؟

قال : « حسنا . سأفعل . اني أريد أن أختار أحد الشرين ؟ » .

فرفعت حاجبها مستغربة وفتحت عينيها جدا وقالت :

— أحد الشرين ؟

، فابتسم وهو يقول : « معذرة . لقد كنت أريد أن أقول ان عليك أنت أن تختارى أحد الشرين » .

قالت : « هذا أبعث على الدهشة . أى شرين ؟ » .

قال : أنا أو التسعة عشر » .

فرددت قوله « أنت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ » .

قال : « نعم . فإن فى وسعنى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى الخمر كالسمكة ، وأن أأكل وأنام مابدا لى - كل ذلك من غير أن انفق مليا » .

وسكت فقالت : « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤالك ؟ » .

قال : انتظرى ، ولكن هذا يكلفنى جهدا اذا كان لا يكلفنى مالا واخلق بالمدخنة ان ينقطع مددها ، ويبحر الخمر ان يجف ، وبالموائد ان يطير عنها كل ما عليها من الالوان اذا لم افعل ما هو متوقع منى فى نظير ذلك كله . . . اعنى بعبارة صريحة اذا لم اعرفك بالتسعة عشر ! » .

فصاحت « ما افزع هذا ! »

قال : « لا تفزعى . فلن افعل شيئا من هذا . ولكن هنا تسعة عشر مصريا يريدون أن يعرفوك . . لقد عددتهم . . واحدا واحدا . . وهناك غيرهم ولكنهم - معذرة - لا يعباون بك . . فإذا عرفوك . . .

فقاطعتة صائحة « لاتم هذا الكلام . . ارجو . . من فضلك »

قال : « اذن فلنتعاهد » .

فصمتت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

فقال : « نعم نتمشى معا نحو ساعة كل يوم هنا او فى اى مكان آخر تختارينه وفى مقابلة ذلك اتعهد بأن لا اعرفك بأحد من التسعة عشر » .

فأطرقت هنية كأنها تفكر وقال وهو يستحثها :

— اختارى أخف الشرين : انا واحد وهم تسعة عشر .

فقلت : « لا بأس . قد قبلت المعاهدة » ولكن يجب ان تقيني هؤلاء
(وضحكت) التسعة عشر !
قال : « لا تخافى » سأشترى مدفعا رشاشا اذا احتاج الأمر الى
ذلك » .

- ٢ -

وانتقلت بعد ذلك الى مائدته وصارا يتناولان الطعام معا ، وتوثقت
اواصر الصداقة بينهما وصارا لا يفترقان الا ليستريح كل منهما او ينام في
غرفته . غير انه بقى لا يعرفها الا باسم ليلي ، وهى لا تعرفه الا باسم ابراهيم ،
والغريب انه لم ينشأ ما يشعرهما بالحاجة الى استيفاء الاسماء ، ولم يعرض
بينهما ما يدعو الى التحدث عن الماضى وكنا يتنزهان ليلة فى النيل فى زورق
فقلت وهى مدلية يدها للماء :

- الى اكره الرجال .

فضى ابراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجها
اليه ، فالتفتت اليه وعلى شفيتها ابتسامة عذبة وقالت :
- احسبني اسأت الأدب ؟

فقال : « كلا وانى لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر - واعطف
عليك ايضا » فالتمعت فى عينها نظرة خبيثة وهى تقول :
١ - من حسن الحظ ان الرقم لم يبلغ العشرين .

فقال وعينه الى السماء ، وعلى وجهه آيات الدهول :

- من يدري ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين . .
وسكت .

فسألته وهى تدنو منه :

- لماذا تقول من يدري ؟

فأرسلها ضكحة مفرقة وقال : « وهل فى الدنيا من يدري شيئا ؟
قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرا ، ولكن الغاية
التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذى يستطيع أن يقول أنها هى التي
كان يقصد إليها حين أخذ الطريق » .

وأحس أن كلامه فيه من الجدة أكثر مما يذبحى فقال : « وليس لنا
إلا الحاضر باليلى ، والواحد الذى يمكن أن يصبح متما للعشرين مصمم
على إغتنام الحاضر الذى هو فيه » .

ولم يعودا يريان الفندق و (المعبد) ، والقمر يريق ضوءه على
صفحة النهر ، والنسيم البليل يصافح خديهما . وأخذت الأقصر تنأى عنهما
وتغيب فى الظلام كأنما أسلمتهما إلى النهر الخالد . وتناول ابراهيم المجذافين
بعد أن استراح قليلا ، فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم
على ضوءه مخلفا وراءه خطا طويلا . .

فقالت ليلى ، وقد أحست فجأة أن قوة لانتالب قد استولت عليها
واستبدت بها :

دعنى أجدف فىنى أحب ذلك .

فابتسم وقال : « اذن فاجلسى أمامى .. هنا .. »

ونهمس هو ووقف فى وسط الزورق ، ومد إليها يده ليساعدها على الخطو
وجلست تجدف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب الماء خفقا خفيفا
بمجداف بعد مجداف ، وكان ضربها ، لحفته على وجه الماء ، فكان
رشاشه يطير إلى ابراهيم فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل ميل ،
وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الأحمر
الصافى ، وحاجبها الكثيفين السوداوين وعينها الضيقتين الברاقتين ، فخيّل
لإبراهيم وهو قاعد أمامها أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن
الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضا .

وقالت ليلى وقد أراحت طرفى الجدافين على ركبتيها :
« ما أجمل هذه الليلة ! » .

فقال ابراهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج :
« نعم . اليست كذلك ؟ » .

فانفجرت ضاحكة وقالت وهى ترد قبعتها عن وجهها إلى رأسها :
« هل تعلم ؟ انى : . »
قال « ماذا ؟ »

قالت : أحس برغبة ملحة فى أن أخلع هذه القبعة والقيها فى الماء وأرسل
جسم شعرى — أرسلها للنسيم والقمر .
فقال ابراهيم فى لهجة فيها من الخنو نبرات :
« اذن فافعلى » .

ولكنها صمتت قلقة ، ولم تستطع ان ترسل نفسها على سجيتها فقال
ابراهيم :

« أنك تخجلين ان تطيعى رغباتك ، وليس خجلتك لانى معك وانى
أرى ما تفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت ان تطلقى لنفسك العنان ،
وانه تفعل ما يهتف به جسمك ، لأنك كغيرك — مثلى ومثل الناس جميعا —
تؤثرين أن توهمى نفسك انك فوق الحياة وفوق دواعيها وان كنت تعلمين
فى أعماق اعماق سريرتك انك لست إلا مظهرا ضئيلا من مظاهرها ، وان
كل مقنونة منك لطبيعتها وسننها الخالدة واحكامها المبرمة التى لا مفر منها .
مجلبة للشقاء والألم . لماذا تحسبين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا
تخفينها ؟ ان القوى المحبوسة فى النفس تتطلب منفذا ، والجسم يتشد السرور
واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه » .

فقالت ليلى : « نعم . نعم » .

وغزت رأسها كتائب من الحواظر الجديدة ، وثلفتت حولها ، وعينها

تضيء ، وتغلغل إلى اعماق نفسها جمال الليل والقمر الساهم وحسن النهر
الجارى بين القفار الحاملة ، ولج بها الشوق إلى تجربة القدرة على افادة
السرور بلا نجمل او تردد .

ومضى ابراهيم فى كلامه فقال « انى احلم - حلم فقط مع الأسف -
بعصر لا يحول فيه بين الإنسان وسعادته ، عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته
اننى لا اعتدى على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها
فى جرأة وحرية » .

فسأله : « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟ »
فقال : « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرا سخيفا ، ولم يكن
الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها او حدودها فكانت الحرية فوضى
وكان هو لا يستحق الحرية التى لا يفهمها ولا يحترمها ولا يحس الاستمتاع
بها ، وعصرنا الحاضر ايضا سخييف ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم فى
العقل تحكمها فى الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وإنما أحلم
بعصر لا يستنحى الإنسان فيه من نفسه ومن غرائزه المهذبة ومن مطالب هذه
الغرائز ، لا ينجمل ان يرمى طربوشه اذا شاء ذلك وان يمشى عارى الرأس
إذا احس ان هذا أكفل باشعاره الغبطة والروح ، ولا ان يثب فى الطرقات
ويرقص فى الشارع او يجلس بثيابه الأنيقة على الحجارة او التراب اذا
اشتبهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لا يضير احدا » .
فسأله بلهفة كأنما خافت أن يسترسل من غير ان يعرج على ما فى
رأسها :

— ولكن ماذا عن الحب ؟ إلا قيودا له يفرضها علينا ؟

فاكفهر وجهه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

الحب يفرض قيودا ؟ لماذا ؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا
يافتاتى وإنما هى الغيرة ، اتفهمين ؟ انها الغيرة ! وليست الغيرة وحدها
هى التى تفرض القيود ، بل فضول الناس أيضا وتدخلهم فيما لا يعنهم ،

وخوفنا من فضول الغير ، ذلك الفضول الذى نعبّر عنه برأى الناس فينا ..
ما دخل الناس فى حبي وبغضى وهو شئ يعينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف
رأى الناس أو فضولهم ؟

فقال لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك » .

ونظرت الى ابراهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت أنها تحسه قويا
طاغيا وان كان فى رأى العين ضعيفا يابس اللحم على العظام ذابل الشفتين ساهم
الوجه . وانكشف لعينها ، وهى تنظر الى ابراهيم ، عالم بأسره من القوى
الزائخة والعواطف الفائرة ، فهل تدخله ؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت
أيضا وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها
أو أوحته إليه ، فأسرعت أنفاسه هو أيضا فصار يلهث كأنما كان يجرى .
ولكنه كبح نفسه وتناول الجدافين وأهوى بهما على الماء يضربه بسرعة وقوة ،
فانطلق الزورق يفرق الماء ، وصار خريره منغما فى مسمعهما ، واقتربا من
الشاطئ الغربى فأراح ابراهيم احد الجدافين وضرب بالثانى فمال الزورق .

وبلغا الشاطئ ، فوقفا ، ووثب ابراهيم أولا ، ثم مد يده لليلى فوثبت
إلى جانبه ، ولكن الوثبة إلى أرض غير مستوية أفقدتها توازنها فالت إلى ابراهيم
وأمسكت بكنتفه ووقعت بين ذراعيه . وطال التصاقها به على غير قصد منها أو
منه فاندلعت النار فى دماثها وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور حارة
واحتضنها وشد عليها ، ومادت الأرض بهما وغامت الدنيا فى أعينهما ، وهمست
فى أذنه وهو ينحنى بها على دهن الشاطئ « ماذا تصنع ؟ دعى بالله ! »
ولكن الصوت كان خافتا والأنفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعلو
ويهبط ويبغى صدره . . ولم يكن حولهما إلا الليل المقمر وإلا رائحة النهر
والأعشاب البائلة على حفافيه ، والا الجوى يسخن تارة ويبرد أخرى وسكون
عميق ، وفقد كلاهما وعيه ، وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا
فيها كل ما فى دماثهما من نار .

الفصل الخامس

كنت عيني من الحزن ، وأعضائي كلها كالظل
« يوجد باطل يجرى على الأرض أن يوجد
صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار »

— ١ —

رسالتان بعثت بهما شوشو إلى إبراهيم ، ومضت الأيام ولم تتلق عليهما ردا ، وثالثة أنبأها الشيخ على أنه كتبها إليه ، ولا جواب أيضاً ، فما معنى هذا ؟ أيمكن أن يتلقى إبراهيم رسائل منها وأن يهمل الإجابة عليها ويدعها تمزق قلبها ؟ لم تعهد شوشو في إبراهيم هذه القسوة ، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره ، وإنه لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروها ، وما ألفت منه شوشو إلا الخنو والرقعة والترفق بها حتى في ساعات ثورته وغضبه ، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت ، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لا محالة غدا ؟ ألم يعاطها الحب صرفا ؟ ألم يكن أحنى عليها من أمها ؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختها ، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحدا واحدا وهو يبتسم ويمزح ، ولم يتجههم وجهه إلا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجية . حينئذ فقط عبس وقال : « قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » ولم يعبأ حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته ؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة ، وسخط إبراهيم عليهما وحدهما ومقته لهما ، فكيف يعقل أن ترد إبراهيم رسائلها فلا يرد عليها ؟

لا بد إذن أن يكون إبراهيم قد زابل الأقصر ورحل عنها إلى أسوان أو إسنا أو غيرها ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يعمل كل مكان

ليس على هواه ! ولو كان يسعها هي أن تنتقل مثله لما أطاقت الإقامة في مكان
 واحد إلا أياما قليلات ، ولو كانت تذهب من بلدة إلى بلدة ، لعل الثقل
 يفيد سلوى ! آه ليت هذا في وسعها ! إذن لأمكن أن تتجمل بالصبر :
 إذن لكان عليها أن تحتمل التزيق في صدرها ، والاظافر التي تقطع قلبها ،
 والنار التي تندلع في عروقها وتصلبها الجحيم في الدنيا ! إذن لنجت من
 رؤية أختها كل يوم . كل ساعة . كلما شاءتاها أن تراهما لا كلما شاءت
 هي ! إذن لما اضطرت أن تحتمل ما تكايدها به أختها سميحة التي سارت
 في عرس تلبس كل يوم معرضا من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئا
 من زينتها وحليها الالبسته وبدت في حفلة وفي عينيها سرور تلتسمعان به ،
 وفي قلبها حبور ينضح به وجهها هو سرور الشماتة وحبور الانتصار
 والفرجة بالخيبة التي منيت بها . وهي أختي ! بنت أمي وأبي وأنا وهي
 من دم واحد ، وقد انحدرنا من أبوين لإثنين ! من يصدق ؟ بماذا أسأت
 إليها ؟ أي شيء جنيته عليها ؟ ما ذنبي أنا إذا كان إبراهيم لم يحبها ؟ نعم ،
 أنا أيضاً أحبه ولكن هذا ليس من ذنوبي لديها ، فما أرى حبي له قد نفعتني وإنما
 ذنبي لديها إنه يحبني . وذلك ما لا حيلة لي فيه لو أن لي حيلة في نفسي ولقد
 جاهدت - علم الله - أن أصرفه عن طلبي وعن التقدم إلى أختي ، ولكنه
 لم يسمع لي ولم يعبا لي ، وليته كان قد أطاع إذن لأمكن أن أصبر ، واثقة
 أنه يحبني راجية أن يجيء يوم يقر فيه البعيد ويسهل فيه الصعب أما الآن
 فلا أمل لا أمل ! حتى ولا في سطر منة أنعزى به . يا لهول الظلمة المراكدة
 التي تحف بي وتجم على صدرى وتخنقني ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط
 ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا ينفذ منها شعاع واحد من الأمل !
 ولا بد لي من احتمال أختي هاتين . أختي بنتي أبوي ، أختي اللتين
 قضتا علي ، وسحقتا نفسي وخنقتا قلبي - لماذا ؟ لماذا ؟ وارتمت على السرير
 وبكت ، وراح كيانه كله يهتز ويرتجف وامتدت كفها إلى شعرها المرسل
 فشدته كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهي تحاول أن تملك
 نفسها وزجر عينيها عن البكاء ثم أستوت قائمة وهي تقول « لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونقر الباب ففزعت إلى المرأة فطالعتها في صقالها وجه محتقن وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، ولم تدر ماذا تفعل ولكنها أسرع إلى القلة فأخذت منها ماء في حفتها مسحت به وجهها وعينيها وتناولت منشفة ومضت إلى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ على ، فتناول كتفها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة وقلبه يتفطر :
« هنا إلى جانبي على السرير » .

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمنه بينما كانت يسراه تربت لها على كتفها اليسرى ، ثم أسند رأسها إلى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هي إلى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ على لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فأغرورقت عينه وسقطت دمعة على جبين شوشو — حارة حامية ، فانتبهت ورفعت رأسها فأخذت عينها الدموع المترقرة في جفنيه .

هذه الدمعة — هذه القطرة التي نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جيلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت على النار التي في قلبها بردا واشعرتها شيئاً من السلام والسكينة فنسبت نفسها لحظة ، وذهلت عن آلامها هنيهة ، ولم يبق أمامها إلا هذا الرجل الضخم يبكي لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن يرى جبلا يقتلع وفرحت بعطفه وتحننه ، وإن كان لا شك عندها في رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بنته كزوزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فهضت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيها قبلة شكر صادقة .

وقال الشيخ على وهو ينهض : « زوزو تنتظرني فالهني بنا » .

وخرج وتركها تصلح من شأنها .

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط وزوزو تحاوره بها وتلقبها إليه في حيث لا يكون إلى اليمين جداً إذا كان هو إلى اليسار ، وإلى اليسار إذا كان هو إلى اليمين ، أو تقذفها عالية فيعطاع إليها مترقباً هبوطها ليلقبها فتتسلل هي وتكون إلى جانبه فإذا دنت الكرة منه في سقوطها ، صاحت به « ايه » ودفعته بيديها وفي ظننا أن تقلقله ! وهو يلهث من الجرى ، إلى كل ناحية وينفض عرقه وإن كان الجو بارداً ، ويخجل أن يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه فيغالطها ويقترح لعبة أخرى لا تكلفه جرياً ولا تتقاضاه وثباً ، وهي تصر على الكرة وتروح تدب برجليها على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لا يوافقها ، وتقول بسرعة كأنما تريد أن لا تدع له فرصة للكلام والاعتراض ، ووجهها مرفوع إليه حتى لتكاد تقع على ظهرها .

— لا يا بابا ، لا يا بابا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى تقف هنا وأنا هناك ، لك على ما احدفهاش بعيد ، بشويش ، هيه ؟ أعمل معروف .

ولكن الحظ كان موافقاً لأبها فقد ظهرت شوشو على رأس السلم وراها الشيخ فنجأ وفرح بنجاحه ، وبهذه الفرصة للخلاص من غير أن يتاج إلى أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فأنحنى عليها وتناولها ورفعها إليه بلا جهد وقبلها وأدار وجهها إلى السلم وهي معلقة بين يديه في الفضاء وقال :
— خالتك شوشو .

فصفقت زوزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تفعله من رؤية أبها الضخم يعدو ولا يدرك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد واحد يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والأخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وإن كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها

فونازمتها نفسها أن تجرى إليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحتمحرك رجلها في الفضاء بسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الأرض فتراها بعيدة فتناشد أباه أن ينزلها ، وهو يعايبها ، ويدعي أنه يطيعها فيدنو بها من الأرض حتى إذا كادت تلامسها قذفها في الهواء ونلقفها بيديه ، وهي تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً .

وصارت شوشو قريبة منها فالتفتت زوزو إلى أبيها وقالت :

— وحياة خالتي شوشو .

فوضعتها على الأرض في رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلتها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه وحنّت عليها تقبلها ، ثم همّت بان تعتلد وتستوى واقفة ، ولكن زوزو دفعت ذراعها فجأة وطوقت عنقها ، فلانت لها شوشو ، وتلقت قبالتها الحلوة على شفثها وخذلها وعينها ورأسها — من فوق السكبة (أ) — وأذنها ثم خرجوا .

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من سجنى الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كأختها من الفرجة التي بين السجفين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفى السترين ولم تدع إلا شقا صغيرا لعينها ، ولما لم يبق شيء تنظر إليه أرخت يدها وتهدت وهي تدور وتواجه نجية . وقالت :

— خرجوا . استريحى بقى .

وكانت لهجتها تم على الأسف ، ونبرة صوتها تشي بالكمد المكتوم . ولا أسف هنا ولا كمد ، وإنما كانت تتكلف ذلك وتتصنعه لتستثير نجية

وتغذى عنادها . ولم تكن تبالي في سبيل ذلك أن تمشى بالوقية بين نجية وزوجها . فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع في روع نجية بالتلميح المتوالي أنه لا يبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما ، أن ينتهى الأمر به إلى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكى من أن تصرح بهذه الدسيسة ، وأبقى من أن تزيد على الإشارة فكانت ربما نهدت فجأة وقالت :

— الأمر لله .

فتقول نجية : « ماذا يا أختى ؟ »

فتقول سميحة : « لا شيء ، ربنا يستر ! ربنا يستر » .

وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الأمر على كل وجهه المحتملة .

ثم بعد ساعتين ، أو يوم .. تعيد الكرة فتقول :

— إن إقامتنا معك يا أختى لا يعلم إلا الله ما قد تؤدي إليه .

فتقول نجية : « كيف يا أختى ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين كأنى استثقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة « وجودى أنا ؟ » يا ريت ؟ نهايته ! ربنا يسلم » .

فتلح عليها نجية وتقول : « ألا تقوين ماذا فى رأسك هذا ؟ إنك تفهمين أكثر مما أفهم .. فهل .. هل . قولى .. تكلمى .. »

فقاطعتها سميحة حتى لا يباغ الأمر درجة المصارحة وتقول :

ربنا لو حله هو الى عالم بما فى رأسى .. ده تبقى مصيبة .. لكن هو جنان ؟

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً إلى هذه الناحية ، وعميت عن السبب فيما يبدو من عطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوسوس ودبت فى صدرها الغيرة ، وإن كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون

ومدافعة ما تهمس به ، وبقيت تعتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير أن مجرد التفكير في هذا المستحيل غيض من وجهها كل بشاشة لشوشو والشيخ على ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعي أن تكل ذلك إلى سميحة وأن تفتح أذننها لكل ما تشاء أن تصبه فيها ، وزاد الفساد لأن الشيخ على أصر على جفوته وإهماله لنجية ، ومنح شوشو عطفه وعنايته وصار لا يفارقها مادام في البيت ، وكثر اصطحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ على يتوقع ، بعد أن أعلن إلى نجية سخطه على مسلكها حيال إبراهيم ، واستياءه لرفضها العمل برأيه ، ونقمتها منها أنها حقرت شأنه في نظر إبراهيم بأن أظهرته له رجلا لا سلطان له ولا إرادة في بيته . - نقول إنه كان يتوقع من نجية بعد أن أعلن إليها هذا وجفائها من أجله ، أن تندم وتحاول استرضاءه وتسعى لتألفه من نفرتة ، ولكنها لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما ولم تقصر في الدس والوقيعة ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ على لن يفيء إلى البرضى أو يصفح عن نجية إلا إذا نزلت على حكمه وعادت إلى رأيه بتزويج شوشو لإبراهيم ، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك إذا انتهت نجية إلى واجب العمل على ترضى زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار الجفاء - على الأقل إلى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهتدى إلى حيلة جديدة .

ومن الأوهام الشائعة أن الأطفال آخر من يقطن إلى الحوادث التي تقع حولهم والبواعث التي تفضي إلى وقوعها ، وكثيراً ما يطمئن الكبار إلى جهل الصغار وعجزهم عن الإدراك والنظر والتمييز ، ولكن الأطفال كثيراً ما يخزنون في رؤوسهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لرأعهم عمقها وأعجبوا لقدرة الأطفال على التقصي والاستنتاج وإنفاذ البصيرة ، وليس بالنادر أن تكون سعادة الأسرة رهناً بما يبدية هؤلاء الصغار من الحكمة وصدق النظر والصمت ، وهي صفات قد يكون مرجعها إلى الإلهام وما أخرى كثيرين من الكبار بأن يتلقوا درسا في الكياسة من هؤلاء الصغار المستجهلين .

ومن أجل هذا لم يكن عجيباً أن عمى الشيخ على وشوشو عن حقيقة ما صار إليه الموقف في البيت ، وإن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفا من هنا وطرفاً من هناك وتضم هذا وذلك وتستخلص وحدها سر الأزمة وطورها الجديد ، وإن لم يجل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع والأسباب ، ولكن النتيجة التي انتهت إليها كانت في جملتها صحيحة ، غير أنها ألهمت أن تمسك على ما خزنته في رأسها الصغير فلم تثرثر به .

وهكذا صار البيت معسكرين . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على إلى القرية بغتة وأخذ معه شوشو وزوزو .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل السادس

« هل انتهيت الى ينابيع البحر او في مقصورة القمر تسييت ؟ »

— ليلي

— نعم .

— لا أدري ماذا أقول ! ولكنى أدري أنى أريد أن أقول شيئا :
اظن أنك عطوف يا ليلي .. ولو أنى كنت شيخا هرما لردنى النظر اليك
شبابا يافعا .. شبابا باحساسى على الأقل ، ولو ان شكسبير عرفك لأكثر
نظم الأغاني وأقل من الروايات .

فأشارت ليلي بكفها البضة ناهية عن الاسترسال وانحنى له مازحة وقالت :

— أشكرك ، واسمح لنفسى ان أشك فيما تقول ، ولكن شيئا واحدا
أنا على يقين منه ، فلو ان شكسبير عرفنى لناولنى سيجارة .
فاعتذر لها ومد يده بعلبة السجائر ، وأشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الأقصر فى الصحن المتسع الذى تحيط به
الأعمدة ، واليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفه رجال الآثار بساحة
أمنحيب الثالث ، وكان ابراهيم قد رشا الحارس فأذن لهما أن يدخلوا فى
الليل ، فاتخذوا مكانهما إلى جنوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة والأعمدة
أكثرها سليم ، فجاسا يتصوران ما كانت عليه هذه الساحة من الأبه والرونق
فى أيامها وإيام هذا الملك — أمنحيب الثالث — الذى بلغت بلاده فى عهده
ذروة الغنى والرخاء ، وانطلق ابراهيم يتحدثها عن هذا الملك وكيف انه
وهو يبنى هذا الهيكل اغتنم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الحدران
سلسلة من المناظر. تتعلق بارتقاة العرش وتبرره ايضا ، وذلك لأن
الشريعة المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجا لبنت
الملك الكبرى أو ابنا لها ، ولكن اباه — نحوتمس الرابع — لم تكن

له ، على ما يظهر ، بنت فيتزوجها إلا بنت ملك لإقليم صغير في سورية اسمه
ميتاني ، وقد تزوج أمحنوب وهو صغير - نى - وهى ليست من أسرة
ملكية ، وأكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمحنوب هذا المعبود
ليألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التى
تصور ميلاد الملك وتتويجه محو كل شك فى حقه فى ارتقاء العرش .

وقال إبراهيم بعد أن أفضى إلى ليلى بهذا التاريخ القديم :

- أحسب هذا مثالى . .

فعطفت اليه وجهها وابتسمت وهى تتوقع أن يفاجئها بملاحظة مضحكة ،
أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو فى كلامه فقال بلهجة
جادة . :

« . . . أنا أيضا أرتقى عرشا أكبر ظنى أن ليس لى فيه حق شرعى ،
فليتنى أستطيع أن أشيده معبدا ضخما لإلهى المعبود ، أسوغ به ما استوليت
عليه » ولم تكن ترتقب منه هذه اللفظة الجادة فغاضت ابتسامتها ، وعجبت
لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم فى سماء نفسه ، وأحست
أن هذا لابد له من علة ترجع الى ما لقى فى حياته وأنه لاشك قد قاسى
وتعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت :

- ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟

وزمت شفيتها وكانتا ترتجفان ، فألقى اليها إبراهيم نظرة عتب ، ولم
يقل شيئا ثم التفث اليها فجأة وأمسك بكتفها المستديرتين ، فانتفضت
للمسه ، وقال :

- ليلى . ستشقين بسببى غدا ، غدا !

وهز كتفها بعنف ، فقالت :

- كلا ! لن أشقى . أو فلأشقى ! ميان ، انما تنشأ الأحران لأن
الإنسان يفرض لسعادته ثمنا . ولست أتقاضاك ثمنا ، فدع هذا ، على أنك
أديت ولا تزال تؤذى لى ثمن سعادتى ..

فقال : « كيف ؟ » مستغربا .

قالت : أأست تحمينى من التسعة عشر ؟ .

فابتسم ولكنه قال :

— ليلي . واجهى الأمر جادة . أرجو .

فقالت من غير أن تعبس :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم .

لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا قد انهار ، وأنها لحظة إذا أفلتت فبهيات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك في ذاكرتنا أنفس مائذخر وأجل ما استمتعنا به . فبالله عليك لا تمط وجهك ولا تفسد على تلك الذكرى !

فوجم إبراهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هي على رجله وقالت له وذراعها حول عنقه :

— لعلك فكرت في الزواج ؟ هيه ؟ لا أستغرب أن تكون قد فعلت

فإن رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لا يننى ولا يتوقف ، كلا يا صاحبي ، ان الزواج نقلة الى حالة أخرى . . لانعود بعده ليلي وإبراهيم ، كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيد منها من تلاقينه ومن خلواتنا . . لازواج بيننا . . فلنبق هكذا . . دائما . . أنت إبراهيم لأكثر . . وأنا . . ليلي . . لا قيد ولا رباط سوى هذا الحب ! . الآخر . . الطليق كالعصافير . . ان في عينيك دهشة . أليس هذا بعض ما علمتني ؟ أيجنق التلميذ درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لست وحدك معلمى . لا تخف ، الدنيا كلها علمتني . الحياة هي التي أجرت ارادتي . وخواطري في هذا المجرى ، وما كنت أسالك كالتلميذة الا لاني كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسي وهواجس ضميري بلسانك وبقوة بيانك . وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستي كنت أصغى اليك وأنا أنتفض من السرور والدهشة أيضا . . لقد خلقنا — أنا وأنت — لنحيا هكذا . . لسنا نصلح لذلك الحب التقليدي . .

ولكنك لم تقل لي قط أنك تحبني أوه .. لا .. لا تقلها .. لا تبذل المعنى
بلفظة . لا تميده ، دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة .. ويضطرب به
الجسم كله .. أو تتكلم العصافير ؟ والحمام ؟ لا تقل شيئا .. قباني .. مرة
أخرى .. !

ولم يكذ إبراهيم قد سلاشوشو ، ولكنه تسلى ، ولم ينقص حبه لها
ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارئ أن يتسع القلب الواحد لحبين ،
غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ،
لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا في القلب
متجاورين كما يتجاور في القلب حب الوالدين ، وحب البنين ،
وحب الأخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، حب الأدب أو الفنون
أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة في مصادرها ومظاهرها وآثارها ،
واختلافها هو الذى يوسع لها ضمير الفؤاد . والنفس الإنسانية أعمق وأرحب
وأغزر . وارد من أن تشقى أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ، وأين ذاك الذى
سبر غور النفس وغاص إلى أعماق أعماقها ونفذ إلى كل شعباتها وتغلغل إلى
أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لأنسانين
كما يتجاور حب لواحد وبغض لآخر ؟ من الذى مسح هذا « التيه » المضل
ودرس طرقه وأحاط بمنعرجاته ، وألم بمباده ونهاياته ؟

وهكذا كان قلب إبراهيم يعمره حبان : حب شوشو الرائعة التى تستولى
على النفس محاسنها « جملة » - وكانت شوشو كما أسلفنا القول فى ذلك
« فتاة » لا يحس الرجل مادتها ، ولا يلتفت حين يحادثها إلى « الشكل » وكانت
قدرتها هذه على صرف المجلس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص
محياتها ، ليس مرجعها إلى لباقة أو كياسة مكتسبة ، وإنما كان مردها إلى
تلك السداجة الخفية التى تذيب القلب وتشيع السرور فى الصدر وتثير كرم
النفس ومروعتها وكان لها نجرة النفس للغريرة وحرارتها وخفتها ، وكان
لإحساس المرء حيالها أشبه بإحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلي فخلق آخر . وجمالها مختلف جدا . وفتنتها مستمدة من عناصر غير هذه ، فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكانت تبدو ساكنة وهي تنساب ، وكان جلسها لا يسعه إلا أن يشعر أن لها عينيْن اثنتين . والمرء في العادة لا يجعل باله إلى هذا الإزدواج ولا يلتفت إلى تلك التثنية ، حتى ليغلب أن يستعمل لفظ المفرد ، والمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين ، ويذكر الجفن وهو يعنى الاثنين لأن النظرة من كليهما واحدة . وهما توأمان ومعناهما في الدهن مندمج ، ولكن ليلي كان لكل من عينيها إيماضها . ولا اختلاف بين اللمعتين ، وإنهما لمتجاوبتان ولكنهما على ذلك فيما يحس الرجل مستقلتان . وكانت أمارات التفكير الكثير المرتسمة على محياها ربما أطفأت هذا الالتماع ، وإن لم تعف مع ذلك - إلا قليلا وإلى بضع دقائق - على شيء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادى التكليف بحيث ينفى صدق السريرة . وكانت شفتاها - كحاجبيها - خطين حاسمين حادين ، وإن كانت تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يتوقع - ولا يستغرب منها - حين ينظر إلى جبينها الوضاء الذى ترد عنه الشعر ولا تدعه ينسدل عليه - الصراحة والجرأة صراحة النفس التى تأنف أن تغالط في الحقائق ، وجرأة القلب الذى ذاق وجرب ، والعقل الذى فكرو تعب .

فبينما كان ابراهيم ينعم بحب ليلي وقربها ، وكانت هى تساقيه الهوى صرفا غير مقطب ولا مكدر ، وبلا قيد أو تخرج ، كان قلبه يتلفت إلى شوشو وينثنى بالصبوة اليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها ، وكان فى كلا حبيه مخاضا : يجرى فى هواه الجديد بغير لجام ، ويرتد إلى شوشو بالقلب الكسير المستهام ، فكان جب ليلي الخمر يعب فيها العاشق الولهان يحسب أن سيغرق فيها وجده . فتستعر جوانحه وتضطرم النار فى جبينه وتتصصف أضالعه . وكان تحرر ليلي يفتنه . وسداجة شوشو تسببه ، وكان جب شوشو يتمثل له جاسما كالزهادة لمن لم يجد لعله نفسه شفاء فى الرياء والضرب فى زحمة الحياة . وكان يبدو له - بعد أن انتهى إلى ما انتهى

إليه — بمثابة الرفض للحياة . ورفض الحياة — على كل سحره لايزيد النفس إلا إحماء . والزهادة قد تكون منجى ولكنها يأس ، وهى ، على كل ماتدل عاياه من القدرة على التسامى فوق مغريات الحياة ، قلما يفضى إلا إلى أن تحسر النفس طيبها ورضائها ، والسعادة لا تجنى فى الحياة بان يرد المرء يده ، بل بان يمدّها الى التمار ليحنيها .

وكان حين يفكر فى جبهه الليل يتصور الهروب من النفس ، ويخيل اليه أنه يسوم ذكاءها اطفاء . وأنه يبلدها وينشر الضباب على صفائها ولم لا ؟ أليس اللبيب هو الذى يحض نفسه مراحا ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر نفسه باللذة ويضئنها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرها وفى جوهرهما مذهبين مختلفين : رفض الحياة والاستغراق فيها . ولكنهما من حيث النتيجة سبان .

وسواء من قال لبس سوى الأرض ومن قال لن تنالوا السماء . وأبيقور — بعد — كزینون ، كلاهما مخطىء وكلاهما مصيب ، وقد التقيا باعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس ابراهيم .

بل هناك جب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس ابراهيم ، ولكن كونه غير طاف على اللجة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان ابراهيم — حين يحيش صدره وتفور نفسه وتختلط الأعالي بالأسافل ويندفع الراسب الى مستوى الطافى — يذكر ماري ويشتاقيها . ماري الضعيفة التى تشعره بقوته ، المدعنة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرز له لذة الغلبة ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها الى بجانبه ليوحى اليها ارادته وليشعر بلذة الإسراع الى الاجابة والامتثال .

وقال ابراهيم وهو يفكر فى ثالث قلبه :

« عجيب .. عجيب .. حين أذكر « ماري » أحس سطوة القوة ، وصيال العزم ، وعتو الجيروت ، وأتصور شوشو فاحس وقار التجربة وسمت العلم وأبهة الشيخوخة وحنو الأبوة ، وأكون مع ليلي فأراني كأنى أتعلم رقصة الحياة على ايقاع الشباب .. عجيب .. عجيب .. »

الفصل السابع

« حوط طريقى فلا اعبر ، وعلى سبلى جعل ظلاما »

لم يسمع الدكتور محمود الا أن يبتسم ، وهو يقرأ الرسالة التى بعث بها قريبه الشيخ على مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولا يذكر سببا مرجحا لذلك ، ويؤكد له فيها - بلا مناسبة - أن كونه طبيبا ، مثل كون أحمد الميت ميتا - كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد منذ عاذ إلى الإسكندرية ، ان يروض نفسه على السكون إلى الهأس من شرشو ، ولم يكن يدري لماذا ينبغي أن يقنط ، ويثنى عنان الأمل ، ولكن الشيخ على صده عن الرجاء ، والشيخ على بطبيعة الحال أدري ، وهو ناصح غير متهم ، غير ان المسألة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل ما فيها ان شوشو اصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى - وتسبقها الى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ولكن لهجة الشيخ على تنىء بأن هناك شيئا خلافا لم ير أن يفضى به اليه ويطلع عليه ، فاعسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟

وكان الدكتور محمود أشرف من ان يخطر له ان يتسقط الأخبار أو يستدرج الخدم ومن إليهم ، لعله يظفر منهم بما يحل هذا اللغز أو يهدى على الأقل إلى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التى هو فيها تحيط به من غير ان يحاول تبديدها او إراقة شيء من الضوء عليها ، وضاعف جهده فى عمله ليكون ذلك اعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على ان ينتقل بها وبنفسه إلى دائرة الأحلام والذكرى المحببة التى تشبث بها القلوب .

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح اقصى الأوقات عليه . فهو فى النهار ينصرف إلى عمله واذا ثقلت عليه وطأة الوحدة لم يغد جليسا يسامره اما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك .

تبدلو له الحياة اول ما يفتح عينيه عليها مثاثبا ، وردية ذهبية ولكنه لا يكاد يفرك عينيه حتى تكرر اليه الذكري الأليمة بكل قوتها وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعضع أمامها ، قوة على قوتها ، ففي كل صباح يفتح حياته بالشعور بمرارة الحرمان وقسوة الأقدار ، وفي كل صباح يهمس في اذنه قضاء الحظ ان حبه يجب ان يموت ، وفي كل صباح يرتد فزعا من هول هذا القضاء الذي لا لطف فيه .

ولو كان الدكتور محمود أصلب عودا لقاوم وكافح ورفض أن يذعن لهذا القضاء الذي فرضه عليه الشيخ على ، أو على الأقل جدا . لطلب من الشيخ على أن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف في أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذي لا يعنيه من الحياة إلا مقدار ما يطلب من متعة تعود أمتع إذا كانت اخشن . لهز كتفيه ساخرا ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذي يسعه أن يعيث ولا يعبا بالصدمات إذا كان لا يشعر بعاطفة قوية ، حتى إذا صار الأمر جدا ؛ انقلب حيا ضعيفا غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكأنيب مهنته — بما تنطوي عليه من تبعات جسام — قد عودته الشعور بالمسؤولية وأفرغت عليه روح الجلد الصارم في شبابه ، وعلمته ان ينظر من أنفه الأسباب إلى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وأنها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال إنسانا آخر .

وقال الدكتور لاجد الميت في الطريق إلى القرية .

— هل مرض أحد ؟

فقال الميت : « لا ، أبدا ، كلهم بخير » .

فقال الدكتور كأنما يناجي نفسه :

— اذن لماذا يدعوني الشيخ على ؟

فهمز أحمد الميت كتفيه . ولوح بيده وقال — كأنما كان الخطاب له :

« تسألني أنا ؟ حصانك هذا أدرى مني . فقد تطوعت لحمل الرسالة لأهرب

من وجهه » وضحك .

فنظر الدكتور إليه بسرعة ، ولم تعجبه هذه الضحكة العصبية ، وشد
الاجام ثم أرخاه فأسرع الجواد وانطلق بخطف ، فكاد أحمد الميت الذى
فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، وارتفعت يده بسرعة إلى قفاه ليرد العمامة
إلى جبهته ، ثم العباءة فوق ركبتيه وانحنى إلى الإمام قليلا .
وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وخرابة اعتقاده أنه مات ، وأنه الآن
غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله :
— أحمد .. كم عمرك الآن ؟

فابتسم أحمد كأنما فطن إلى الغرض مما ظنه مداعبة ، ولم يجب فأعاد
الدكتور سؤاله :

— كم عمرك يا أحمد ؟ لماذا لا تجيب ؟
فرفع أحمد وجهه إليه مستغربا وقال :
— عمرى إيه ؟ سبحان الله العظيم . حتى أنت يا دكتور !
فافتقر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال :
— دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟
فأرسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة إلى الطريق ، ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه
إلى حجره وقال :
— إيه .. سبحان العالم . ده شئ مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ما
وافى الأجل ؟
فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره ، أو أن يدرك البواعث
على هذا التعليق ، فسأله :

— ألا تذكر شيئا من حياتك .. أعنى قبل أن تموت ؟
فأدار أحمد وجهه وقال بلهجة جادة :
— أذكر إيه ؟ أنا مت واللى كان كان .
فقال الدكتور : « أعرف ذلك ، ولكن ألم تحلم قط ، أعنى ألا ترى فى
منامك شيئا من حوادث تلك الحياة الأولى ؟ » .

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب :
— أيوه بحلم . لكن يعنى ايش درانى إن الى بشوفه هو الى كان . . أهى
منامات تهاليس . .

فالح عليه الدكتور :
— وماذا ترى فى منامك ؟
— كثير ماتعدش . مين فاكر ؟
فقال الدكتور :

— هل تتكرر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟
فصمت أحمد هنيهة وهو مطرق ثم قال :
— أى والله برضه يحصل .

ثم رفع رأسه وقال :
— وأنت ايش دراك ؟
فابتسم الدكتور وقال :

— ألا تذكر واحداً من هذه الأحلام المتكررة ؟
فظل أحمد مطرقاً ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتعب
يجاهد أن يذكر ثم قال :

— مش جادر وحياتك يا دكتور . هم الدنيا بينسى الواحد نفسه
وعاد الدكتور يسأله :

— ألا تتكلم وأنت نائم يا أحمد ؟
فقهقه أحمد وقال :

— يعنى منين أبجى نائم ومنين أسمع نفسى ؟
فسكت الدكتور ولم يسأله شيئاً بعد ذلك .
ولما قابل الشيخ على قال له :

— أحمد الميت يستحق أن يراقب وهونائهم . فلا يبعد ان يتكلم بما هو مستكن وراء الوعي ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضا قد يفيد فإن شفاه فيما أعتقد غير بعيد .

— ٢٠ —

اضطربت شوشو لما علمت أن الدكتور محمود قد جاء ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضحكها ، وكانت الأيام القليلة التي قضتها في القرية بعيدة عن أختها قد ردت إلى خدائها صبغته الأرجوانية وإلى عينيها اللمعة التي أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكايده سميحة وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ علي وحلاوة روح زوزو ، وشجرت وهي معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها في الإسكندرية ، وكانت تقضى أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد الأطفال من الثرثرة ، ولا سيما مع من يطمثون اليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ما تعلم ، ومالا تستطيع أن تعمله أو تفسره على الوجه الصحيح ولم تكن تحلم ، وهي تطلعها على أسرارها الصغيرة ان ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأتها أن خالتها سميحة ذهبت إلى امرأة « تبين البخت » وأنها بعد ذلك اشترت صندوق « شكولاته » وأعطته للمرأة التي تبين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخذته بعد أن سحرت المرأة الصندوق ، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى « خالها ابراهيم » في الأقصر .

وقصت زوزو أيضا على شوشو ما سمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود ، وكانت زوزو تراهما من الحديقة وهما لا يريانها لأن الشجرة تحجبها ، وروت لها ما تذكر من كلام سميحة وما قالته في أختها شوشو

فسألها شوشو : « وماذا قال الدكتور لها ؟ » .

فقالت زوزو : « لم أسمع كلامه يا خالتي ولكن خالتي سميحة كانت

محتدة فى ردها عليه . لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذى يعجبه
هذا الكلام ، إنه عيب أليس كذلك ؟

وقبلتها بين عينها ثم مضت فى روايتها فحككت لها أن أباهما أخرج من
جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقات من الذهب لها قصوص
من اللؤلؤ ، وضحك زوزو وقالت : « كان بابا يحسب فى جيبه فحم
كوك !! »

ثم دنت منها حتى صار فيها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت :
« أقول لك يا خالتي بس اوعى تقولى انى أنا اللي قلت ؟ هيه ! بالك
الدكتور كان جاى ليه فى اسكندرية ؟ - (وخفضت صوتها جداً) بس
اوعى تقولى (وألصقت فمها بأذنها) كان جاى يخطبك وبابا قال له
روح اربى نفسك فى البحر » .

وبديهي بعد الذى اطلعتها عليه زوزو ، ان تضطرب شوشو حين يجيء
الدكتور ، وأن يدور فى نفسها ما كان من مغالته لها قديما ، وان تسر
وتدهش وتحزن فى آن معا ، وان تتوالى أمام عينها صفحات حياتها ،
بكل ما حفلت به وما انتهت اليه ، وأن تتوجع لصمت ابراهيم الذى أعياها
تأويله إلا على أنه قد غادر الأقصر ، وذهب إلى مكان آخر وأن تسأل
نفسها فيم يجيء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضا ،
هواه لا سبيل إليه كهواها ، وقد احتمل الصدمة فى صبر وأخفى الجرح
الدامى الذى فى صدره ، وعاد يمشى بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن
دم القلب لا ينزف . فليست وحدها فى محنتها ! وأحست شوشو بالعطف
على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد اختصر المسافة بينهما وأدناها وجعل
من الممكن أن يتصادقا وان كان عسيرا أن يتحابا ، أو على الأقل أن تحبه
هى ، وهو لاشك يعذرها .. يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أترأه قد علم أنها
تحب ابراهيم وأن ابراهيم يحبها وهل يعقل أن يصدده الشيخ على من خير أن
يطلعه على السبب ؟ ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية -

بأن شوشو هي الصغرى وان سميحة أولى بالتقديم . غير أن هذا عذر لا ينهض ولا يقنع الدكتور الذى لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تذليله ..
ولم يدعها أحد إلى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هي إليه ، فقد كان الوقت نهارا ، والشيخ على في السلامك ، ومعه رجال كثيرون وحسبها هذا عذرا وبقيت طول النهار وحدها لا أنيس لها الا الخادومات تراقبن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقى أوامر الشيخ على من حين إلى حين بواسطة زوزو . وكانت شوشو ربما تمنّت أن يصعد إليها الدكتور لتراه ولتقرأ في وجهه ما فعلت الصدمة في نفسه ، ولكن علمها بما أفضت إليها به زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام عليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيستقم .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت إليها وجهها الصغير وقالت :

— خالى !

— نعم .

خالى ابراهيم ..

فانتفضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها :

— أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئا ؟

فضحكت زوزو وقالت :

— دعيني أتكلم ؟ ما هذه الأسئلة كلها ؟

فكبحت شوشو نفسها بجهد واضح وان كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

— هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة .

ولم تفهم شوشو وقالت :

— يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟

فقالت زوزو وهي تضحك مرة أخرى :

— أوه ! ألا تصبرين يا خالى ؟ كلا لم يعد — الدكتور سيكلمه في التليفون .

اتفق بابا معه على ذلك .

فسألتها شوشو :

— في أى شيء يكلمه ؟ ولماذا لا يكلمه بابا ؟

فهزت زوزو رأسها وقالت :

— وهل أنا أعرف ؟ لسألى بابا .

— أسأل بابا ؟

فقالت زوزو ببخبت :

— آه أسأليه . لم لا ؟

فاغضت شوشو عن هذا وقالت :

— ولكن لماذا يكلمه في التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له

خطاباً ؟

فقالت زوزو :

— خطاب إليه ؟ وهل هو يرد على الخطابات ؟ لقد سمعت بابا يقول انه

بعث له بثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أى رد ، ويقول بابا ان

الأوفق أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو في الأقصر أو سافر .

إذن ابراهيم لا يرد على احد — لا عليها ولا على سواها . وما أطيّب

قلب الشيخ على الذى لا يزال معنياً بها ؟ وما أقساه حين يكلف الدكتور أن

يقوم هو بهذا العبء ؟ لا شك أن الدكتور يجهل ما كان .

وانتفضت شوشو وقد خطر لها أن ابراهيم في الأقصر وانه يهمل

الرد على هذه الخطابات عامداً . من فرط مرارة نفسه . وعناده . .

وكبره .

وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو النائمة على حجرها فهبت

تقول :

— بخالى !

— نعم .

ومسحت لها دمعها ولم تتكلما .

الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابنه ان عرفته)

- ١ -

عاد ابراهيم ويلي مساء من الكرنك في مركبة الفندق الضخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب ابراهيم من نفسه أنه لا يكاد يعبا بذلك وأنه لا يحس القدرة على الترجل والنزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت اليه ليلي وسألته :

ألا تنزل ؟ مالك ؟

وأحس هو في هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينيه ، وسرت في بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكتة ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجو باردا ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذي استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته حسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فلماذا يحس بالحاجة الى البكاء ؟ ما هذا الذي يأخذ بمخنقه ؟ ما لصوته يتهدج ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولحمت ليلي هذا التغير المفاجيء الذي نم عليه امتقاع لوته وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرتة ، فأعانتة على النزول ، وألهمت أن تدعه وشأنه وأن لا تثقل عليه بالكلام ، وأن تتركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ، فقد خطر لها أن لما بدا عليه سببا متعلقا بماضيه الذي تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهي تصعد معه وان كان قد ظلت تراقبه خلصة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهره الساكن وابتسامته ،

الساخرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يتكلف ما يشبه المأوف منه .
وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد
وأحس القرة فى عظامه ، وابتردت كفاه فنفخ فيهما ، ودخلا الصالون
وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، ويحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعيها
من فرط اشفاقها عليه ، وقد أدركت أن علة ما طرأ عليه ، برد أصابعه
أونحو ذلك ، وجلسا وطلب هر كاساً من الكونياك ثم أخرى وثالثة ،
وشعر بالدفع فانبسطت أسارير وجهه .

وقال فجأة وبغير مناسبة ظاهرة :

— لست أشاطرك حبك للمطر . كلا ، أحب شىء إلى أن أستمطر على
ظهري وأن أنسى .

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه إشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر
بماذا تجيب فقالت :

— أعرف ذلك .. أعنى منك .. ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون
فى قافلة .. حبي للمطر لا يمنعنى أن أشتى ذلك .. قافلة من الجمال فى
لصحراء .. أصوات الليل لأبد أن تكون بديعة .

فسكت قليلاً كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه .

— ان الذى يفعله المرء ليس مهماً وإنما المهم أن يستطيع تسويغه .
فلم تفهم ليلى ولم ترى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ،
وازداد ذهوله ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت
له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته إليها ودخلتها معه وحتمت
عليه أن يتناول قرصاً من الاسبرين وتركته لتأمر له بالشىء بينما يكون
هو قد خلع ثيابه وورق فى سريره .

رقد إبراهيم وهو يسعل قليلاً وينكر من نفسه هذا السعال الذى لم
يعانه من قبل على إفراطه فى التدخين ، وأحس وهو مستلق بألم فى عظام

صدره وبصعوبة في التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله إلى البرد والتعب ولم يعره اهتماما وشرع يتسلى بالتفكير ؛ غير أن ذهنه كان يأبى أن يخضع لإرادته ، وكانت الحواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها فوق بعض كأنها الجيش المهزم .

ودخل الخادم يحمل أدوات الشاي لاثنتين ووضعها على منضدة صغيرة أدناها من السرير ثم خرج من غير أن يتكلم كأنما لم يكن في الغرفة أحد . وكان إبراهيم أثناء ذلك لا ينظر إلى الخادم بل إلى السقف كأنما يفتنه منه شيء ، ولكنه قال لنفسه « إن الحجل من أن أكون مريضا في الأقصر — وفي فندق أيضا — هو الذي جعلني أتقي النظر إلى الخادم . أليس عارا أن يصيبني برد في الأقصر ، في هذا الجو الذي يستشفى به الناس ؟ وليت من يدريني كيف أصابني ؟ » .

وسعل ، وشعر أن التنفس يوشك أن يصير عملا متعبا ، فانصرف عن التفكير ونسى معرة المرض في الأقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذي يفرضه واجب التنفس ، وأحس بكسل عن الشاي وبفتور عام فأغمض عينيه ومضى يعالج أن يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليلي لما دخلت ، وإنما انتبه على يدها تجس يده فقال وهو يتكلف الابتسام :

— أوه أنت هنا . لم أشعر بك .

فابتسمت له ولم تقل شيئا بل دست في فمه ميزان الحرارة وقعدت على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان إلى الشباك ووقفت هنيهة تتأمل ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت :

— لا شيء يستحق الذكر .. نصف درجة بل أقل .. أربعة خطوط .. والآن فلنشرب الشاي .

ورفعت في رفق كأنما كان وليدا ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن يضطجع وهو قاعد ، فبدأ نحاله الشك في صحة ما أنبأته به عن درجة حرارته وقال لها :

— فيم كل هذا إذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟
فابتسمت وزحفت إليه وقالت وهي تناوله ميزان الحرارة .
— إذا كنت لا تصدقني فما عليك إلا أن تعيد الميزان إلى فمك ثم تقرأه
بنفسك .. هذا هو .

فخجل وقال :

— معذرة ، هذا ذنب الحمير .

قالت : « الحمير » !

قال : « نعم .. حمير الأقصر . ليس في رأسي غيرها » .

فقالت : « لست أفهم .. » .

قال : « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر في رأسي وألحها على
مذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير في الأقصر .. أحسب الأقصر قد
أعدتني بحميرها ! فقد صارت الحمير هي كل ما في رأسي ..
فسر ليلى أنه يمزح ، ولم تكن تعلم أنه جاد . واطمأنت إلى أن مابه
ليس أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء .
ونقر الخادم على الباب ، فأذنت له ليلى فدخل يجمل بضع زجاجات
ووقف ينظر ما تأمر به .

فنظر إبراهيم من الخادم إلى ليلى مستغربا وقال :

— ماهذه الزجاجات كلها ؟ ليست نبيذ أو شمبانيا ؟

فضحكت وقالت :

— كلا ! ماء ساخن للتدفئة .

وأومات إلى الخادم فوضع اثنتين إلى جنبيه وثالثة بين فخذه والرابعة
إلى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج .

فقال إبراهيم :

— ما أسرع ما صرت ممرضة ! من أي مستشفى جئت ؟

فضحكت وقالت وهي ترفعه لتعد الوسائد لنومه :

— والآن ينبغي أن تنام .

فقال وهو يطيعها : « ليس ينقصك الا أن تقضى الليل إلى جانبي على هذا الكرسي .. ولكن كيف أنام من العشاء ؟ أدجاجة تحسبيني ؟ »

فقالت : « عالج . إن بك حاجة إلى النوم . أما أنا فسأتركك برهة لأعطيك فرصة ؟ »

فمعجب وسألها : « برهة ؟ هل تعنين أنك راجعة ؟ »

فحننت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت :

— نعم .



ولكنها لم تعد إلا بعد ساعة ، ذلك إن انتقلها إلى الغرفة المجاورة لغرفته استغرق من الوقت واستدعى من الأخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع وكان الباب الذي بين الغرفتين موصدا والمفتاح ليس فيه ، فاحتاج الأمر إلى البحث عنه . يضاف إلى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضى زمنا في ترتيبها في الحقائق قبل نقلها ولم تشأ أن تجلس وحدها إلى المائدة في حجرة الطعام لئلا يثير لغطا لضرورة إليه ، فأوصت بان يرسل إليها في غرفتها الجديدة وأن يعد لإبراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه في الليل إذا أحس بالجوع . وأمرت بأن لا يزعجه أحد في أى جال من الأحوال . ثم مضت إلى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فالفته نائما . وأشعلت في غرفتها سيجارة وراحت تفكر ماذا يكون العمل إذا اشتدت عليه وطأة المرض ؟ أن البوادر ليست حسنة لأن درجة الحرارة تسع وثلاثون لانصف درجة كما كذبت عليه ، ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لا تزعجه . ولكنها ستضطر إلى ذلك في الصباح إذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحدب فلئها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولواحتاج الأمر إلى دمها لبدلته له راضية مسرورة . ولكنها على

كل ما بينهما من الحب والمخالطة لم يخطر لها يوما أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ! وهو أيضا لم يعن بأن يسألها شيئا ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسنا ولذيذاً إلى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لأمفر من أن تعرف بعض ما تجهل .

ولما وصلت في تفكيرها إلى هذا الحد : انتفضت كالجمومة فهضت وهي تقول :

— كلا كلا ! إنه بخير ، ولن أسأل عن شيء ! يا لله ! لماذا تغزوب رأسي هذه الخواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعني قلبي أن أتصوره بسوء ؟ لالا لا ! هذا محال ، محال محال .

وانكلمات على السرير ودفنت وجهها فيه ويداه ممدودتان عليه ، وجاهدت مستميتة أن تنفي من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها كانت تحاول ذلك فقد ظل الحب المستغرق يوسوس لها بالخوف ويحسم الأمر فلم تطق صبراً ، وعادت إلى إبراهيم تنظر إليه وكان لا يزال نائماً ، ولكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره في منامه حلم ، فنازعتها نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد مخافة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل في وساوس وهواجس ، تتخللها اغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تذق طعاماً ، ولا نوما هنياً .

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وإن كان إبراهيم قد أصبح أسوأ حالاً مما بات على أنه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته وكف عن المكابرة . من غير أن يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعاً شاقاً والسعال قد صار أسوأ والألم في جنبه أحد ، ولكنه

مع ذلك كان يتسم للطبيب الذى دعته ليلى ويسأل وكأن الأمر يعنى إنسانا غيره :

— والآن يا دكتور ألا تحدثنى عن هذه البنيمونيا ؟ إن اسمها لا ينقل لى أى معنى ولا يحدث فى ذهنى أى صورة . وأحسب أن من حقى أن أعرف شيئا عن عدوى الذى يهاجمنى إذا كان يراد منى أن أقاومه . وكان صوته غير ضعيف ، ولكن الألفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب :

— لا صعوبة فى إفهامك ما هى ، الرئتان مكتظان بالدم — على الأقل واحدة منهما عندك ؛ والهواء مضطر أن يخلى المكان للدم ، فالرئة لذلك لا تكاد تعمل ومعنى هذا أن واجب الرئة الأخرى مضاعف ، وعلى القلب عبء هذا الإجهاد أظن هذا كل ما هنالك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورثتيه اللتين تهيب أحدهما بالآخرى أن تبذل أقصى ما فى طوقها لإمداد صاحبهما بما يحتاج إليه من الأوكسجين وقال :

— إن هذا ممتع جدا ولا شك .

فسأله الطبيب وهو لا يكاد يفهم :

— ممتع ؟ كيف ؟

وقال لنفسه : « إن البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شىء فيها إلا الامتناع » فسأله إبراهيم :

— وما هو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فإنك كلما زدتنى بيانا كان ذلك أعون لى على مساعدتك . ألا تريد أن أن أساعدك على العلاج ؟ » .

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليها وقال الدكتور :

— ليس شيئا كثيرا ، مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب : وقليل من الكونياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف التهاب وتهوين الألم

الذى فى جنبك . وأهم من هذا كله أن تكف عن الكلام فإن الحرارة
عالية والكلام يضرّك ولا ينفعك .
فقال إبراهيم :

— لا تخف . ولكن الأمر فيما أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل
إلى واحدة فى الأقصر ؟ .
فتدخلت ليلي وقالت للطبيب :

— لا داعى لهذا — اليوم على الأقل ، وعسى أن لا نحتاج غدا إلى
شئ ، فإنه كما ترى مريض لا يتعب .
فابتسم إبراهيم وقال :

— مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكونى واثقة جدا .

وأحس إبراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبالى فيه
المرأة إلى أن تضيف إلى ليلتها الساهرة ، ثانية وثالثة إذا احتاج الأمر ، غير
عابئة بأنها تقضى نهارها وليلها مع مريض مقضى عليه بالصمت . أهو الحب
الذى يقويها ويشد أعصابها ، وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى
جانبه ترعاه وتحنو عليه وتغمره بطهارة نفسها — وابنه ؟ ابنه ؟ هل كتب
عليه . . ؟ وكبح نفسه مشجعا متصبرا ، وأراد أن يتكلف البشر ويتصنع
الاطمئنان كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه متأففا ومط فيه
« مستنكفا » ، فإن التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يخدع ؟
إنه مريض طريح وليس فى بدنه ذرة من الصحة . كل من حواه أصحاب
إلا هو فإنه أسير المرض . . وهو وحده الذى يحمل عار هذا . . وسيقول
كل من يسمع بمرضه « مسكين مسكين ! » حتى نجية إذا اتصل
بها الخبر ستقول أنه مسكين . وسيدركها العطف عليه ، لقد أرادت أن
تخطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تعبأ بذلك ولم تبال ما تهدى
إليه من آلام العمر كله . ولم تحس أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءا
ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بزكام ! أليس هذا

عجيبا ؟ ؟ بل سميحة أيضا ! سميحة التي لاشك أنها تبغضه ستألم مغلصة .
نعم مغلصة . مافي هذا ريب .. وإن كانت هي التي جنت عليه وعلى شوشو
إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا أنه لمسكين حقا ! وعز عليه أن يكون موضع
عطف أحد من الناس — قريبا كان أو غير قريب — وأنف أن يرثى له أحد .
واستكبر أن يكون ذكره مقرونا بالشفقة عليه فإن العطف يضع المرء في
منزلة دون الناس فبأى حق يعطفون عليه ؟ ماشأنهم هم ؟ ليكن مريضا
وليكن مشفيا على الموت أيضا فإن هذا الأمر لا يعنى أحد سواه ! وأقسم في
سره لئن كان لابد من الموت ليفعلن

ولكن ما الداعي إلى التفكير في الموت ؟ ألم يقل له الطبيب :

« إني أهنتك مع ذلك ، فإنك مصاب بأهون أنواع الليمونيا لابلدك
الطراز الحديث منها الذى نسميه « برونكو — بنيمونيا » وهو ضرب لانعرف
أبن نحن منه لأن الحالة لا تكاد تتحسن في موضع حتى تسوء في موضع آخر
أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط ، تبدأ بسرعة ويطرد الأمر فيها إلى الأزمة
بغير قلب وبدون محاورة ، وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة ، والمهم هو
الأوكسجين والنشاط ، الحيوية على الخصوص . الإرادة . فلاتنفق حيويته
في شيء آخر ولا تبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . وسنعطيك كل ما من شأنه
أن يزيد حيويته أو على الأصح يحفظها ويدخرها . ولكنك أنت العامل
الأكبر في الشفاء فلا تقلق ولا تنزعج لأن الانزعاج يضعف الحيوية . »

ولم يعجب إبراهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الأكبر
في الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر أجنبي عن نفس المريض ،
عنصر لا يتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تجيش به من الذكر والآمال ،
وجعل وهو ينظر إلى السقف ينحى على الطبيب ويتهمة ، وكان واثقا وهو
يفعل ذلك أنه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه أن هذا
الطبيب قوى صحيح فني وسعه أن يحتمل مقدارا عظيما من الظلم من غير
أن يضيره ذلك .

وقال لليلي، وهو ينظر إلى السقف، كأنما نحجل أن ينظر إليها وهو مريض :

— ألا تظنين أن الأوفق أن تطلبي ممرضة لتساعدك ؟

وقالت وهي تدنو منه وتمسح فيه بالمنديل :

— غدا نرى . لا داعي لذلك اليوم . وقد وافقني الدكتور . وفي هذا

ما يطمئن . ولذلك أصر على الإرجاء .

فسره تعلقها بما يطمئن، ولكن الحاجة إلى الاطمئنان معناها أن هناك

داعيا إلى القلق، فلم يرتح إلى هذا الحاطر . وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول :

— أنا أرى أنه لابد من ممرضة، ان المريض يجعل الغرفة كالسفينة

البحرية أعني أن آلاتها لابد أن تظل دائرة ليلا ونهارا : بلا توقف . والليل

والنهار ليسافي البحر سوى اسمين .

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه : وخيل إليه أن تشبيهه هذا جعل

مرضه يبدو طبيعيا . وذهب يفكر في غرفته كأنها سفينة : ولكن ليلي

أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر

ضعفا بالحاجة على ليلي أن تدعو ممرضة . ونسى أنه تعهد للطبيب أن يساعد

نفسه، وهاهو الآن يبدو تليي جباناً خواراً ويفضح نفسه أمامها ! ولماذا ؟ هل

كل ما يصاب بهذا المرض يموت ؟ كلا ! فلماذا يخشى هو أن يموت ؟ وهبة

مات فماذا إذن ؟ انه سيلقى أجله على كل حال، فما الداعي إلى هذا الوجع

السخيف ؟ أى معنى لهذا القلق المزرى ؟ وعلى أنه سيشفى لا محالة . نعم فإن

أكبر عامل في الشفاء هو المريض نفسه . ولو أن الشيخ على مكانه لتغلب

على المرض بقوة الإرادة — إرادة الفوز . ولو أن أمه هو كانت هي المريضة

لغلبت المرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به، أو إذا شئت فقل

بعجزها عن إدراك حقيقته ومدى خطورته — لابل بقوة الاستخفاف،

بالاستهانة، بالإيمان القوي الذي يجعل النفس تتلقى كل ما يصيبها باطمئنان

وابتسام وقلة مبالاة بما يكون، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق، وأنه

لا موجب للاكتراث .

وسكنت نفسه وهو يتصور أمه تبتسم للموت وتهش لاستقباله وتهز كتفها استخفافا به وفرحا بما بعده من جنة الله ورضوانه . وأحس بأنه قد صار أهلا لأن يكون ابنها ، وخلصت أنفاسه ، وخف الألم الذى فى جنبه ، وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الإرادة وبنجاحه فى تغليب العقل على الجسم وتحكيم الروح فى البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير فى أنسجته بل فى عضلات قلبه .

وقال وهو يبتسم :

— إني الآن أحسن . . لقد أفادتني !

فقالت ليلي وهى تحنو عليه :

— ماذا ؟ ما الذى أفادك ؟

فقال من غير أن يحول عينه عن السقف :

— أمى ! .

— ٣ —

من الممكن أن يغتفر القارئ لليلي أنها فتحت عدة خطابات باسم إبراهيم واطلعت على ما فيها . ولاشك أن هذا غير جائز ولكنه لاشك أيضا أنها ألقت نفسها مرغمة على ذلك ، فقد كان إبراهيم لائما ولا مستيقظا ، ولم يكن فى وسع أحد وهو ينظر إليه أن يعلم أيهما هو ، أما الواقع فذاك أنه كان بين اليقظة والنام — يهذى ، وكان يحلم بشوش ويرى نفسه فى بيته مع أمه وابنه وكانت شوشو تراءى له فى حلمه كأنها سيدة البيت ، وسره هذا الحلم فراح يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوشو تبدو له رائعة بينة العطف بارعة فى إدارة البيت كفؤا لمطالبه ، وكان هو يحس أن مجرد وجودها شفاء ، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفتت أعضاءه وترخى جفونه وتشعره السعادة ، وأن كل امرئ يعبدها ويستوحىها ويستمد منها الهدايا والإرشاد .

وتعلق إبراهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصورة ويسحر نفسه بمناظره وكانت أنفاسه كأنما تعالج الخلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم تروح وتجيء بين خيوط هذا الشرك فالأمر مختلط ولكنه على هذا الديد . ولم يكن يدري أن ليلي واقفة إلى جانبه تنظر إلى وجهه وتلاحظه وهو يربد ثم يصفو ، وتسمعه وهو يناجي شوشو ، ولا كانت هي تدري من عسى أن تكون شوشو هذه التي يذكرها في منامه . وقد حسبتها - ولها العذر أختاله وان كانت الغيرة قد همست في أذنها لعلها زوجة أو حبيبة . ولكنها لم تسمع إبراهيم قط يذكر أحدا من أهله أو أقربائه . وأغرب من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر إلى الظروف ثم يلبسها في حبيبه من غير أن يفتحها ، وكان هذا يسر ليلي منه لأنها اتخذته دليلا على أنه لا يريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب ، فلو أن له زوجة أو حبيبة لدنعه الشعور بالواجب أو الحب إلى قراءة هذه الكتب ولما وسعه في كل مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه ، وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟ ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أكان من المستطاع أن لا يزل لسانه أو تشي حركة واحدة بأن له نساها ؟ كلا !

وصرفها طول هذياته ؛ وهي إلى جانبه ، عن هذه الخواطر الشخصية فعادت تفكر فيه هو وفي واجبها حياله ، فلم يبق عندها شك في أن واجبها الأول أن تتصل بأهله إذا كان له أهل ، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها قليلا ولكنه لم يستطع أن ينفي مخاوفها كلها . وقد علمت منه أنه لا يزال أمامه بضعة أيام قد تكون خمسة وقد تزيد ، قبل الأزمة ، ولا سبيل إلى الجزم بشيء قبل ذلك ، وإن كانت الحالة العامة ، وحالة القلب على الخصوص ؛ لا تدعو إلى القلق .

ومن غير المعقول أن نسأل إبراهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا المرض . فإن مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع في روعه أن صحته ساءت وأنه في خطر ، فالطريقة للعلم بما تجهل أن تبحث بين أوراقه لعلها تهتدي إلى شيء .

ولم يكن أسهل من ذلك لأنها تتولى كل ما تقوم به الممرضة والأهل
تعاونها في ذلك إحدى خادمتي الفندق كلما هدد السهر قوتها ، فهي التي
تسقيه الداء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه ، وتفعل غير ذلك كل
ما يحتاج إليه ولا تكمل أمره للخادمة إلا بضغ ساعات في الليل تنامها في غرفتها
المجاورة له ، وقد استغربت وهي تبحث في حقايبه أن ترى كل الرسائل غير
مفضوضة ، وزاد عجبها أنها جميعا موضوعة في ظرف كبير أصفر فليس
عدم قراءتها براجع إلى نسيان ، فان آية العمد هنا لاخفاء بها ، ولا بد أن
يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهي تقول لنفسها وفي يدها الرسائل ،
أترى لشوشو التي يهذى بها علاقة بهذا السر ؟

رن نصف ليلى فنقول إنها طردت بهذا الحاطر وهي تمضي إلى غرفتها
بالرسائل وآلت أن لا تقرأ منها إلا بقدر ما تتطلب الضرورة ، ولكنها لم تكدر
تفض واحدة حتى ألقت نفسها تسترسل في القراءة وقد ذهلت عن كل شيء
حتى عن مريضها - إلا سطور الشكوى المرة والفجيعة القاسية التي ينطق بها
كل حرف مما كتبت شوشو في رسائلها التي لم تتلق عليها ردا ، ون نصف
ليلى مرة أخرى فنقول إنها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا . ولا بشيء من
الشماتة أو السرور الذي كان خليقا أن يفيدها إياه علمها - الناقص - أن
إبراهيم لا يجازي شوشو حبا بحب ، بل لا يعنى لسبب ما حتى بقراءة رسائلها ،
ومن أين لها أن تعلم أن حب إبراهيم لشوشو دفين في صدره وأن البركان
كأحر ما يكون وإن كانت فوهته لا تنقذف بالحمم ؟ وإنما الذي شاع في نفس
ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من الشماتة المتكره
حتى لقد بكت عيناها وهي تتصور الهول الذي تقاسيه شوشو والذي تم
عليه رسائلها

وأضحكتها رسالة الشيخ على - أضحكتها عبارتها وإن كانت مع ذلك قد
كشفت لها عن جانب العناد والصلابة من نفس إبراهيم وأرتها مبلغ ما فطرت
عليه هذه النفس من الوعورة ، فلم يلبث ابتسامها أن غاض ، فذهبت

تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة . ولم يخالجها شك في أن إبراهيم يطوى بين أضلاعه حكاية غريبة الأطوار .

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئا ولم يدينها من حل المشكل وكل ما عرفته أن هناك فتاة او امرأة — فتاة على الأرجح فإن الجرح جديد — تحب إبراهيم — وأن أهلها واقفون في سبيلها ، وأنها في جحيم من العذاب والمكيدة ، وأن هناك رجلا اسمه « على » ظاهر بين السطور أن له دالة على إبراهيم وأنه يحاول أن يتألفه من نفرتة ، ورسائل شوشو من الاسكندرية ورسالة « على » من بلدة اسمها « م . . . » وقد تكون أو لا تكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « إبراهيم ، وعلى ، وشوشو ، وطوت الرسائل وهمت بإعادتها إلى حيث كانت وإذا بالخدام ينبئها أن إبراهيم مطلوب إلى التليفون ، فماذا يجيب ؟

فسألته : « من الذى يطلبه ؟ » .

قال : « أبى أن يذكر لى اسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م . . . » .
فنهضت وقد طاف برأسها أن لعله « على » صاحب الرسالة وقالت :
— حسنا . سأخاطبه بالنيابة عنه .

ومضت تعدو إلى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ على ، فعلم منها أن إبراهيم مريض وأنه مصاب بالبنيمونيا وأن له ثلاثة أيام ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ما تستطيع ، ولم تستطع هى — من ناحيتها — أن تعرف أكثر من انه الدكتور محمود ، وانه سيكون فى الأقصر بعد غد .

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحاً من لهجته ولهفته ومن إعلانه إليها انتواءه الحضور إلى الأقصر أن له بإبراهيم صابة وثيقة ، ورجحت أن يكون من ذوى قرابته الأدينين ، فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت ، وان لها الآن أن تطمئن من ناحية الاتصال بأهله .

الفصل التاسع

(من هو جاهل فليمل الي هنا)

نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافي الدكتور محمود في حجرة المطالعة ، وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة ، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط ، وكانا قد وصلا إلى الأقصر قبيل منتصف الليل ، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينبيء « السيدة » التي تتولى أمر ابراهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شيء في الصباح .

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحدا ، وكان جائعا وقلقا فلم يستطع أن يستقر في مكان ، وجعل يروح ويعجى وهو يغتمغم ويتمتم ، وأنه لفي إحدى هذه الروحات والغدوات وظهره إلى الباب ، إذا بصوت ناعم حلو يقول :

— بونجور يا دكتور .

وذكر بالصوت صوتا آخر يشبهه . فهم أن يلتفت إلى مصدره ولكنه تردد فإن الخطاب ليس موجها إليه وان كان يعلم أن ليس في الغرفة سواه ، فهل دخل غيره وهو لا يشعر؟ وخطا خطوة وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحية ، ولكنه لم يسمع شيئا فعجب وتوقف ودار على عقبيه وإذا به يرى الفتاة التي أسمعته ما يكره في عيادة طبيب الأسنان في الإسكندرية ، وكانت مقبلة عليه وعلى ثغرها ابتسامة وضيئة ، ويدها كأنها تهبأ للمصافحة ، ولم يكذ يراها حتى جمد في مكانه وند عن صدره صوت لا يحسن وقعه في اذن فتاة ولو كانت دميمة بغیضة . ولم تكدهى تراه حتى كأنما صدها جدار ، وغاضت الابتسامة ، وامتقع وجهها وارتفعت يدها إلى خدها . ولكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

— معذرة فاني لم أنس العلقه ، ولم اتوقع أن نلتقى بهذه السرعة .
فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يمينا وشمالا ، وفي عينيها كل
امارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده إلى ما كان
بينهما من التناوب ، وسره ارتباكها وما توهمه من خجلها لما كان من تطاولها
عليه ، وأراد أن يسرى عنها فقال وهو يدنو منها :

— لا تخافى فإني وديع كاهرة وان كنت ضحما كالقيل . وما تحملت
مشقة السفر لآخذ بثأرى بل لأعود مريضاً . وقد كانت بيننا حرب فليكن
بيننا صلح .

ولم يصدق الشيخ على أنه هو الذى قال ذلك . ورضى عن نفسه لما قاله ،
فلج فى الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة .

ولم يخالج ليلى شك حين سمعت هذا الكلام منه انه هو الدكتور قريب
إبراهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تفىء إلى المحاسنة وأن ترد نفسها عما
همت به من الخاشنة ، وأحست أن كونه قريب إبراهيم من شأنه أن يرفع
الكلفة فتناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف .

— انى مسرورة بلقائك . وأؤكد لك أن وجودك هنا من أكبر نواعى
ارتياحى واطمئنانى .

وضحكت وهى تضيف إلى ذلك :

— لقد صدق المثل مرة أخرى : الى أوله خصام آخره صلح . .
أليس كذلك ؟

فدارت الأرض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه
أم على قدميه ؛ وشاعت السعادة فى جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضا ،
واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها الدقيقة اللينة ويرفعها إلى شفثيه وينحنى
عليها ويطبع فوقها قبلة صامئة طويلة .

فاضطرم وجهه ليلى واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد راتج
عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول ، وأذهلها هذا السلوك الجريء
وتنازعها عوامل شتى متضاربة ، وكبر فى ظنها أن هذا رجل

مستهر . وأرعبتها نظرتة الناطقة بأشتهاء المطمئن إلى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على يميل كالجبل ليلثم كف ليلي ، وعينه معلقة بعينها ، وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا ، فلما هم أن يدخل أخذت عينيه هذا المنظر فكاد يجمد في مكانه ، فما رأى قربه قط في مثل هذا الموقف ولا كان . يجرى له في وهم أن للشيخ على عهداً بذلك ، ومنعه احترامه لقربه أن يقدم على مفاجأته أو يجترىء على مقاطعته ، فارتد على عقبه وذهب من حيث جاء وقد نسي إبراهيم لحظة وانصرف تفكيره إلى تصابي الشيخ على ومنظره وهو كالفييل يحنو على غزال ، فضحك وقال :
— ولكن من عسى تكون الفتاة ؟

ونخطر له أن لعلها ممرضة إبراهيم ، فما كان يظن أن التي كلمته في التليفون إلا ممرضة ، وله العذر ، ومن أين يعرف حقيقة الصلة التي بينها وبين إبراهيم ؟

وقال لنفسه أن هذه الفتاة لابد أن تكون الممرضة ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هذه السرعة إلى لثم الألف إذا كانت الفتاة أجنبية أى إحدى النازلات في الفندق ، ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها مصادفة ؟ وما دام الشيخ على يعرف كيف ينحني ويقبل أيدي الغواني فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء أخريات ؟
وحار الدكتور ماذا يصنع ، وليتصاب الشيخ على كما يشاء وليغازل من يحب فان هذا لا يكاد يعنيه ، وفي وسعه — أى الدكتور — أن يدعه وما يختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن يقابل الممرضة ليعود إبراهيم من غير أن يزعجه أو يحدث اضطرابا أو يثير في نفسه المخاوف من جراء مرضه ، لابد من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد فكيف يلقاها ؟ ان مواعده معها — ونظر إلى ساعته فألفاها قد تجاوزت الوقت الذي عينته — في حجرة المطالعة ، وحجرة المطالعة يشغلها هذا الدون جوان وصاحبتة ، فما العمل ؟ أيبعث إليها

بالخادم يدعوها ؟ إن معنى هذا يكون أنه سينيّب عنه الخادم في مفاجأة قريبه ومقاطعته إذا كانت الفتاة هي المريضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرامى لن يسوء وقعها في نفس قريبه أولاً ، لأن الشيخ على لن ينجعل على الأرجح من خادم غريب ، وثانياً لأن الخدم - على الأرجح أيضاً - أقدر على انقاذ الموقف .

واستقر رأيه على ذلك .

ولم تكن ليلي أقل اضطراباً وحيرة ، فإن عاينها أن تحتل - من أجل إبراهيم - جرأة من توهمته طبيباً وقريباً لإبراهيم ، ثم لا بد لها من صده وإلزامه حدود الأدب فلما كنت نفسها بجهد وقالت :

ألا تجلس ؟

فقال الشيخ على إلى الكرسي وانحط عليه ، وقد نسي أنه على موعد مع الدكتور محمود في هذه الحجرة بعينها ، وأنه قد يدخل عليهما في أية لحظة ، ودار في نفسه أن ما تحدث عنه وهو يمزح من خطف هذه الفتاة التي أوجعته في عيادة طبيب الأسنان ، يوشك أن يتحقق فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

- قلما تصدق الأحلام ، ولكن حلمى في هذه المرة صادق . ولعل هذا لأنه من أحلام اليقظة .

فلم تفهم ليلي ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لما تكره فقالت :

- أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلاً . .

فنهض وهو يقول بلهفة :

- ولكن لماذا تذهبين وتركينى بهذه السرعة ؟

فعمجبت لسؤاله ولكنها لم تر بأسا من الشرح فقالت :
دقائق ، فإن الواجب يقضى باتخاذ الحيلة إتقاء لعواقب المفاجأة .
أليس كذلك ؟

— يا عصفورى البديع ! .

ولما اختفت زاد على ذلك :

— لقد كدت والله آكلك !

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الإنسانية أن الحالة التي تكون مسئولية عليها هي التي
تكسب المعاني ألوانها ، بل هي التي تعين للألفاظ معانيها .

ولم تكده ليلي تسير بخطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام :

— إن الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون .

فوقفت وسألته مستغربة :

— الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟

فقال الخادم :

— الذى وصل أمس يا سيدتى :

فدهشت ليلي وقالت :

— ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثانية ، وقد تركته هنا .

وأشارت إلى غرفة المطالعة . فقال الخادم مصرا :

— كلا ياسيدتى . ان الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده

الآن . .

فتلفت ليلي كالحائرة ثم قالت :

— إذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ .

فقال الخادم : « لأدرى يا سيدتى » .

فأيقنت ليلي أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى

كانت معه هو الدكتور ، وثارت نفسها سخطا عليه لانه تركها تظنه طبيبا ،
وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لا ذنب له في هذا الخطأ ، ومع أنها
هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتهمه وتلعنه
وأحست أن كفها التى قبلها قد اتقدت فيها نار ، وقفلت راجعة وهى
لا تعى ما تفعل ، واندفعت داخلة إلى غرفة المطالعة : وما كادت عيناها
تقع عليه حتى صاحت به :

— أيتها الوحش ! كيف تجرؤ ؟

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه
فأحس حين سمعها كأنما وقع على نافوخه جبل . وتنكرت الابتسامة
على ثغره فصار وجهه مشوها ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « ايه ؟ »
بصوت مبحوح متهدج .

فصاحته به مرة أخرى .

— وحش . نعم . وثور ايضا . هذا أنت ويجب أن تعلمه .

ودارت خارجة وخلفته واقفا كالتمثال .

سلم الدكتور محمود على ليلي سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وابتسامة
المتواضع ، وأشار إلى كرسى وقال بلا تمهيد :

— كيف مريضك الآن ؟

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزال متوترة مما وقع بينها
وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية :

— لقد انتظرتك في غرفة المطالعة . هناك كان موعدنا .

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان ، وقال وفي ظنه
أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه :

— معذرة . ذهبت ثم تراجعت .

وكان يحسب أن هذه الإشارة كافية ، فقالت ليلي بالحاج ولكن بفتور
— لماذا تراجعبت ؟

فزاد عجب الدكتور واعتدل في كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له
أنه ربما كان مخطئاً ، ولعل الفتاة التي رآها مع قريبه غير هذه .
— رأيت في الحجرة ناساً .

واقصر متردداً . فتجههم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب :
— أتستطيع أن تفسر لي هذا الكلام ؟

فلفت وجهه إليها بسرعة وسألها :
أى كلام ؟

فقالت وهي تسدد إليه نظرها :

— كون وجود الناس يردك عن مقابلتي ؟

ومع اعتقاده أنها ممرضة وإن كانت في ثياب غالية ، كان في لهجتها
من العنف وفي نظرتها من القوة وفي هيئتها من السم ما أكرهه على احترامها .
ففرك كفيه وطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال :

— أرجو المذرة إذا كنت لا أفهم ما تقصدين إليه .

فقالت بلهجة الإصرار :

— هل كان موعدنا على خلوة ؟

فرفع رأسه فجأة وقال : « سيدتي ! » .

ولكنها لم تهتز وألحت عليه :

أجب من فضلك !

فدار حتى واجهها وقال :

— أرجو المذرة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شيء تتكلمين
فظلت ثابتة الحمالق لا تحول نظرها وهي تقول :

— اريد ان افهم لماذا منعك وجود الناس ان تقابلنى هناك بدلا من ان تدعونى إلى هنا ؟

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهربا :

— هل كنت هناك ؟

فلم تدعه يتحول بها عن الميدان الذى اختارته للمنازلة وقالت :

— أجبني أولا من فضلك .

فأطاعها وهو لا يدري لماذا يطيعها وقال :

— اعتذر للمرة الثالثة ولكنى حين هممت بالدخول أحسست أن وجودى

غير مناسب . . أعنى . .

فزادت شداً عليه وسألته مقاطعة :

— ماذا تعنى ؟ لماذا أحسست بهذا !

فتلعم وقال :

— ألا تعفينى ياسيدتى ؟

فقالت : « بل يجب ان تقول فإن الأمر يعنينى » .

فرأى الدكتور فرصة سانحة للتخلص وسألها :

— هل كنت أنت الواقعة مع الشيخ هلى ؟

فقالت لا أدرى مع من كنت واقفة، ولكن الذى أدرى به أنه وحش

قليل الأدب .

فكأنما شكته بـشيخ محمى فوثب إلى قدميه وهو يقول :

— سيدتى !

فقالت : « أيعنك أمره ؟ » .

فقال ، وهو يعود إلى الجلوس :

— انه قريبي يا سيدتى .

فلم تنهزم وقالت :

— ان كونه قريبك لا يمنع ان يكون كما اصفه : وحشاً قلبيل الأدب .

فتمتم : « ولكن .. ولكن » .

فقالت : « قد عرفت ماذا هو فى رأيى ، واطنك رأيت منه معى مايكفى لاقتناعك بأنى لا اظلمه . أأست تقول انك ارتددت فلماذا ؟ لقد تركنى اتوهم انه هو الدكتور وارفع الكلفة بينى وبينه من اجل إبراهيم فجراه الخطأ الذى اوقعنى فيه على تقبيل يدى ومغازلتى . . . والآن دعنى منه : وقل لى بماذا تشير قبل ان تعود إبراهيم ؟

ولكن الدكتور لم يستطع ان يتابعها على نقل الموضوع بهذه السرعة واستغرب ان تذكر إبراهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة فى انها ممرضة ، بل أيقن انها ليست كذلك ، فمن عساها تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب اتقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال :

— فهل تسمحين لى بتعريفى بنفسك ؟

فقالت بفتور : « اوه ! يمكنك ان تدعونى ليلى ، لا بأس .

» لا بأس ؟ ماذا تراها تعنى ؟ وبدأ يقول :

— هل افهم انك

فقاطعتة قائلة : « لا تفهم شيئاً من فضلك . ان ما فعله معى قريبك يكفينى فى يومى هذا .

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم واتفقا على ان ليلى تتولى مصارحة إبراهيم بحقيقة السبب فى حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلى اضررت على أن الحقيقة اولى واخف ضرراً ، وقامت ليلى لتمضى ما اتفقا عليه .

ولم تكذب تمضي حتى خف الدكتور إلى الشيخ على في غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل ويبحث حتى وجده يتناول طعام الإفطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة :

— ما هذا الذي فعلته ؟

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب :

— أهي مطاردة؟ أم مؤامرة ؟ كل وأنت ساكت والا فلست والله مشغولا عما يصيبك .

.. فابتسم الدكتور وقال :

— سمعا وطاعة . ولكني أردت أن انبهك إلى أنها ليست ممرضة .

فصاح به الشيخ على .

— أتريد أن أقطع لسانك بهذه السكين ؟

فضحك الدكتور وقال :

— وتأكله مسلوقاً أم محمرا ؟

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه ما لا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع على كرسيه وقال :

— هل عند هؤلاء الناس قهوة ؟ اعني الكفاية من القهوة ؟

فأمر بها الدكتور ، ثم قال وهو ينظر إلى الساعة :

— سأدعك لأرى ماذا صنعت ليلى . . .

فاعتدل الشيخ على وسأله :

— ليلى ؟ من تكون هذه ايضاً ؟

فقال الدكتور وهو يرد الكرسي إلى الوراء وينهض :

— ليس المسئول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه انها ليست

ممرضة وحتى هذا عرفته استنتاجاً .
فعاد الشيخ على إلى الاضطجاع وقال :
— قد عرفت على الأقل اسمها . وسرى .
فقال الدكتور وهو يبتسم :
— أرجو أن تحذر فإنها ليست فتاة عادية . ثم اتنا لا نعرف من امرها شيئاً ، اعنى علاقتها بإبراهيم . ان في المسألة على ما يبدو إلى لغزاً .
فقال الشيخ على متحكماً :
— واذت الذى ستحله ؟ هيه ؟ امثلك مقدماً !
ثم قال بلهجة الجدد :
— متى ارى إبراهيم ؟ انى لم اجد لأجل الغازأ بل لأراه ، ومتى رايته واطمانت نفسى فإن الوقت يتسع لحل الغازك .
فقال الدكتور : « ساخبرك بعد ان اقابل ليلى » .
فقال الشيخ على : « ما أسرع ما صرت تتكلم عنها كأنها اختك الا بأس ، وأنا ماذا اصنع بنفسى بين هؤلاء الناس إلى أن يجيئنى الاذن ؟ »
فقال الدكتور : « يمكنك ان تمشى فى الحديقة قليلاً ، او تنتظر فى الصالون ، انها مسألة دقائق او نصف ساعة » .
فنهض الشيخ على وهو يدمدم ويقول :
— اتمشى . انتظر . انفلق . ماذا يهم ، ألسنت وحشا ؟ ثورا ؟ أليس كذلك ؟ ولى نحوار أيضاً ؟ هيه ؟
وخرج يدب ويرج الأرض .

الفصل العاشر

« ولا يعلم ان الأخيلة هناك وان في اعماق الهاوية ضيوفها »

— ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟

وابتسم ، وبوده لو يستطيع ان يضحك ، ولكنه كان اضعف من ان يحاول ذلك او ينجح لو انه حاوله ، وكان — وهو ينظر إلى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلي ويرفع كفها الرخصة ليقبها فيتركيانه كله من فرط السرور بهذا المنظر ، وقال وهو يحول وجهه إلى ليلي :

— ان التف عليك خرطومه ياليلي لما أفلت ابدا . اتعرفن انه بعد أن قص علينا ما فعلت به في الاسكندرية ، انذرنا جميعا — ولا سيما زوجته — ان يخطفك ؟

فضحككت ليلي ، ووسعها الآن ان تضحك بعد ان روت لإبراهيم ماجدث بينها وبين الشيخ على في الأقصر والاسكندرية جميعا وعرفت ما حفل به الموقف من عناصر الخطأ المضحك وقالت :

— لقد غفرت له ، فاغفر له انت ايضا ..

فقال إبراهيم مقاطعا : « ماذا ؟ »

قالت : « تقييله يدي .. اتغفر هذا ؟ »

فابتسم إبراهيم وقال وكأنه لم يسمع :

— ولا يزال فلنا هاتجا ، بلهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبة على رأس الدكتور محمود المسكين ، اني اعرف الشيخ على وأكاد أكون على يقين مما يفعله بالدكتور الآن ..

فقالت ليلي وهي تنهض وتمسح لإبراهيم جبينه :

— يحسن إذن أن أدعوها الآن فقد بدأت أخشى أن يحق بالدكتور
سوء . . .
فقال إبراهيم : لا لالا : إن غضبه لا يضر أحدا ، ألم أقل لك إنه
فيل طيب القلب ؟ » .



وقال إبراهيم وهو يمد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ على .
وعلى فنه طيف ابتسامة :
— أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتي قد أخبرتكما بكل شيء
تفضل هنا يا دكتور . إلى جانبي .
قال ذلك بصوت عادي متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب . . وإن
كان ضعيفا خافتا بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر إلى ليلي أو الشيخ على
فأما الدكتور فاستغرب أن يكون إبراهيم قد تزوج في هذه الفترة القصيرة
ولكن الخبر لم يصلده ، لأنه لم يكن يعرف شيئا يجعل زواج إبراهيم من أية
فتاة أمرا موجبا للدهشة وشعر بأن عليه أن يعتذر ليلي من توهم أنها ممرضة
ومما أدى إليه ذلك من استخفافه بها حين التقى بها في الصالون ، فالتفت إلى
ليلى وقال قبل أن يجلس :

— لقد كنت سيء الأدب فألتبس الصفيح .

وعجب ليلي التي كانت تطفر إلى جانبيها وهي تدعوها إلى غرفة
إبراهيم ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها ممتقعا وجبينها مقطبا وفي
نظرتها سهوم وشروء ، ولاحظ أن ابتسامها له وهي تقبل اعتذاره ،
متكلف ، فعجب ، وقال لنفسه : لم أعد أفهم شيئا ، فإن هذه الألغاز
أكثر وأشد تعقيدا من أن أقوى على حلها . حسن ! إن واجبي الأول هو
نحو هذا المريض . وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الألغاز إن كان حلها سبيلا .
وجلس .

وأما الشيخ على فقد وجم ، ودارت به الأرض ، وكاد يعثر وهو يقعد

على الكرسي : وكان كرسيه من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاء لا يتسع له ، فنهض ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد انحسر فيه فظل عالقا به ومرتفعاً عن الأرض وراءه ، فثارت ثائرتة ونسى أنه في حجرة مريض وانزعه بعنف ثم تناوله ورماه بقوة ، وصاح بهم جميعاً :

— إن لم تحطموا هذا الكرسي حالا . .

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار إلى الكنبه وانحط عليها فانت متوجة وأغمض عينيه وراح يفكر في إبراهيم وعناده وكبره ، وفي هذا الخلق الوعر الذي دفعه إلى الزواج من فتاة غير شوشو التي يحبها وتحميه . نعم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على أن إبراهيم لا يزال وسيظل يحب شوشو كأحر ما أحبها ، بل كان الشيخ على واثقا أن مرض إبراهيم ليس البنيمونيا فإن هذا وراء أطباء سخفاء ، وإنما الذي به هو من أثر الصراع الهائل بينه وبين نفسه ، وليس هو بالشيخ على إذا لم يكن ظنه صائبا ، بل هو لا يعرف إبراهيم إذا لم يكن الأمر كما يتصوره . وكر الفكر به إلى شوشو المسكينة التي لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة ، شوشو التي اضطره سفره أن يعيدها إلى الاسكندرية . . إلى مكابدة سميحة وغباء نجية وكثافتها ، ولتد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أفسى وأفدح فماذا يصنع ؟ أليس الأولى به أن يطير راجعا إلى الاسكندرية ؟ ماذا يصنع هنا في الأقصر ؟ إنه ليس بطبيب ، وقد خرج الأمر من يديه فيما يتعلق بإبراهيم ، وهو هنا لا تنقصه العناية . له طبيب يعالجه وهذا طبيب آخر معه . وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فليس إبراهيم هو الذي يحتاج إلى العناية بل شوشو .

وتوجه الشيخ على وهو قاعد على الكنبه وجعل ينفخ ويتلوى غير شاعر بمن حوله أوعاىء بهم . وكانت عيونهم لم تتحول عنه منذ رمى الكرسي وأضحكهم بثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجوهه وتململه فغاض الابتسام ،

وإن كان لم يظن أحد إلى ما في رأس الشيخ على غير إبراهيم ، ولم ينقد الموقف غير الدكتور ، فقد التفت إلى ليلي وقال :

— هل تسمحين بأخذ الشيخ إلى مكان آخر ربما أفحص الأستاذ ؟

فقالت ليلي وهي تدنو من الشيخ على :

— تفضل معي .. دقائق ثم نعود .

فانتبه الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصيح على الأصح :

— معلك ؟

فلم يسعها إلا أن تبتمس وقالت :

— نعم . وثق أني سأكون وديعة جدا .

— ٢ —

وتقدمته ليلي إلى غرفتها ، وأوصدت الباب وراءه وقالت وهي تسير إلى الكنبه :

— هل أدهشك أني زوجة إبراهيم ؟

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيدا لهجوم جديد فعلمة ثالثة ، غير أن ليلي كانت تبتمس ، ولابتسامتها سحرها فقال :

— لا تؤاخذيني ، إنني لم أفق بعد . ماذا كنت تقولين ؟

فقالت ليلي ، ممضية عزمها على الوصول إلى غرضها من أوجز

طريق :

— أقول إنه في وسعي أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تعتمد على .

فتذكر الحلفتين ، وقال :

— لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدى بك ؟

فجلست إلى جانبه وهي تكتم الضحك وقالت :

— دع هذا الآن ، وقل لي هل تعرف شوشو ؟

فقام وجهه بل أربد ، ونسى التي بجانبه وهو يقول :

— أعرفها ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ! مسكينة . مسكينة .

فقلت ليلي :

— أعرف ذلك . أعنى أنها مسكينة . ولكن هذا كل ما أعرفه فزدنى بها علما ، حدثنى عنها .

وكان فى لهجتها من الحنو ، وفى وجهها من آيات العطف ما بهت له ، وطاف برأسه كخطف البرق أن لعل لإبراهيم — لإشارا منه للصراحة والاستقامة — قد ذكر لها طرفا من علاقته بها ، وخاف إذا هو أجابها إلى ماتطلب وحدثها عن شوشو ، أن يجاوز القدر الذى رأى إبراهيم أن الحزم يقضى بالاكتفاء به ، والصراحة لا تستوجب أكثر منه ، ففسال وهو يحاورها :

— إذا كنت تعرفين أنها مسكينة فقد عرفت كل شيء . . فماذا تبغين ؟

وأدركت ليلي أنه متردد ، وفطنت إلى الباعث له على ذلك ، وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بأنه معذور مادام يعتقد أنها زوجة إبراهيم وابقنت أن من الإحراج القاسى أن تطالبه بالصراحة أو تدفعه أو تستدرجه إليها مادام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الحاسمة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقلت :

— إذا كان ما يدعوك إلى التردد هو ظنك أنى زوجة إبراهيم . .

فوثب إلى قدميه وقال :

— ظنى ، ظنى ؟ لست إذن . .

فجذبتة إلى الكنبه ورفعت اصبعها إلى فمها مخدرة وقالت :

— لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . است زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمنى إليكما على أنى زوجته . لقد فاجأنى بذلك كما فاجأك تماما . . ولا شك أنه فعل ذلك مدفوعا بمروءة نفسه . . الشهامة هى التى ألبأتته إلى وضعى فى هذا المركز . . الى رفعى هذا المقام . أراد أن ينقذنى . . أتفهم ؟ . أيعملك الآن مانع أن تحدثنى عن شوشو ؟ لقد قرأت رسائلها

إلى إبراهيم .. رسائلها التي لم يفتحها هو ولم يقرأها .. فتحتها أنا . وجدت
نفسى مضطربة إلى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم أنه مريض . لاشك
أنى ارتكبت ذنباً فظالماً .. ولكنه كان ذنباً لا مفر من ارتكابه ، ولو كان
أى إنسان آخر مكانى .. لو أن مدير الفندق الذى لا يعنيه من أمر إبراهيم
شئ . كان مكانى لما اجتراً أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض
الخفيف . ولكنى مع الأسف لم أتبين من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى
شوشو تقاسى مثل أهوال الجحيم ؟

فقال الشيخ على ، والدمع يترقق في جفنيه :

— هل قلت إن إبراهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟

فقلت : « نعم . وجدتها محفوظة في ظرف كبير وليس بينها واحدة
مفوضة حتى ولا رسائلك أنت » .

فهز الشيخ رأسه وقال :

— لم يكذب ظنى . ما أعمق الجرح الذى في صدره !

ووضع يده على كتف ليلى وقال بصوت يفيض عطفاً ورقة :

— لقد كدت أصعق حين سمعت أن إبراهيم يقول إنك زوجته ..

معدرة . فليس لشوشو من يحنو عليها غبرى . لست أباهاً ولا أخاهاً —
ولا هى لها أب أو أخ ولكنى ابن عمها ، وزوج أختها . غير أنها مع هذا
أقرب إلى قلبى من زوزو — زوزو بنتى . أفهمين ؟ أحب إلى من بنتى
فهل تعذريننى ؟

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو في كلامه فقال :

— ولكنى لم أفقد ثقتى بالله . كان شئ يهوس في أذنى أن الله أكرم

وأعدل من أن يرمى شوشو بقاصمة الظهر لإنهما حبيبان ، صدقيني .
لاتصدق إبراهيم . لا يخذلك ظاهره الساكن ، إنه بئر لا قرار لها . لا أعنى
أنه كاذب أو غاش . ولكنى أعنى أن ما يدفنه في صدره لا ينشر . وهو

قاس جداً . . على نفسه . . مجنون إذا شئت واكنه جنون رائع لأنه جنون الإرادة القوية .

وقص عليها الحكاية ثم حلق في وجهها وهو يسألها :
— فهل لك في حلتي ؟ انى اتوسم فيك القدرة على ما عجزنا جميعا عنه ، وإن كنت لا أعرف مكانك من نفس إبراهيم على التحقيق ، ولكن حسب أى امرىء ماسمعنا منه الآن .
فقالت ليلي مقاطعة :

— لقد كنا — أنا وإبراهيم — حبيبين أيضا ...
فقال الشيخ على : « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ » .
قالت : نعم كنا . أما الآن فلانى أخلى مكانى لشوشو .
ولم يكن يبدو عليها شيء من التزيق الذى احتملته فى صبرها حتى استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ على ظاهرها الساكن الذى تكذبه نظرتها الميتة ، فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على رأسها قبلة أبوية وقال :

— لست امرأة ، إنك ملك . لم أكن أعرف أنكما .. تالله ما أغبانى !
كلا ! لست أقوى أن اسلبك إبراهيم . إنه لك . وأنت أيضا أهل لذلك .
وفى هذه اللحظة سمعا نقرا فهضت ليلي خفيفة لتفتح الباب .

الفصل الحادى عشر

« مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون »

وضعت ليلى يدها على أكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لا تنظر ، فقد كان السكون الخيم فى غرفة إبراهيم رائعا ، ولعل القارىء يعرف ذلك السكون الذى يسود النفس فكأنه يدخل الجسم وينفذ إلى القلب ثم يذهب يغرد ويشدو بمدح لاشئ . أو لعله جرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجأة ويشيع فيها ويفشو . . . والذى لا سبيل إلى العبارة عنه — ذلك الإحساس الذى يخيل للإنسان أنه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو أنه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى أعماق سريرته : « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب الخشن ؟ وما هو معنى أن يكون الإنسان حيا ؟ » وما أظن إلا أن كل إنسان قد جرب ذلك السكون الذى يجعله يتوهم أنه يحلم بنفسه وأن حياته وجسمه وكل شئ — كل أولئك ليس سوى حلم يتراءى له ، وإن كل ما يبدو لعينه ويحده قلبه ويجذبه صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا . . .

ومضت ليلى خفيفة إلى السرير ففتح إبراهيم عينه ببطء على سواد الليل — فقد كان النوم لا يواتيه فى النور — وقال :

— من أين جاء هذا العرق كله ، لكأنى فى مغطس :

ولم يكن الكلام موجها إلى أحد بعينه ، وأعله أم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلى حنت عليه ودست يدها تحت المسلاة البيضاء ثم قالت وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وأن كانت الظلمة قد حالت بين إبراهيم وبين الرؤية :

— مبروك . . مبروك .

فرّج إليها عينا فيها من الدهشة والسرور الغاض معان وقال :
- مبروك ؟ ماذا تعنين ؟
- لأنها آية الشفاء ، ألم تكن تعلم ؟
فقال : كلا .

فقالت وهي تضحك :

- نعم ، وقد كنت جالسة انتظر . فقد أنبأني الدكتور محمود - ما
أصدق فراسته - أنه يتوقع أن تكون الليلة هي الفاصلة ، فلما أن يشتد
المرض ويتفاقم الحال ، ولما أن تهبط درجة الحرارة ويكثر العرق
ويبدأ التماثل للشفاء ، وهذا هو الأرجح فيما رأى ، وقد حقق الله
ظنه ، ألا تحس أن الحمى قد خفت كثيرا ؟

فلم يجبها إبراهيم ، ولم تلج ليلي في الإجابة ، لأنها كانت أعرف
به من أن تثقل عليه ، ثم لأنه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى
جافة . وذهب هو يفكر في العرق الشافى الذي أنبأته ليلي أنه بشير
التعافى . وقال لنفسه إذا كان هذا كذلك فإن أول ما يجب عليه هو
أن يعصر نفسه حتى لا تبقى في بدنه قطرة من الماء كأنما كان هذا شيئا
تنفع فيه الإرادة .

والتفت إبراهيم ليلي - على نور الكهرباء - وقال :

- والآن ماذا يجب على أن أصنع ؟

وقالت : « تنام وتعرق ولا تمجد نفسك بالتفكير . وبرغمي أقول
ذلك فلاني فرحة . . . »

قال : « سمعا وطاعة . اطفئي الأنوار لإذن واذهي إلى غرفتك فما
أظنك اغتمض لك جن في ليلتك هذه - ليلة الفصل . هه ؟
فابتسم له قلبها في عينيها ، والشمته ومضت عنه في صمت .

* * *

ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لما شوشو - لا على حقيقتها بل في

صورة أفن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف - وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمند لم تطق معها الاستقرار وودت لو أن عندها منها صورة ، وتذكرت ما دار بينها وبين الشيخ على وصجبت له ولنفسها كيف تصارحاً بسرعة على ما كان بينهما من الجفوة وفساد الحال ، وأحست أن قلبها يغمره الإكبار للشيخ على الذى وسع قلبه كل هذا العطف والاخلاص حتى لقد أفاض عليها من مروءته وأعداها بكرم النفس فبدلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو ، وإن كان حبها لإبراهيم واسعاً عظيماً ، وجرها ذلك إلى التفكير فى إبراهيم . أترأه يحبها ويحب شوشو فى آن معا : أما أنه يحب شوشو فهذا مالا مجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على وإن فى صمت إبراهيم فى الأحيان الكثيرة وشرود ذهنه واكتنابه وتلقيه ما تجيء به الأيام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غد - لدلائل على أنه يطوى أضالعه على هم مخامر ، وأى هم هناك غير حبه الخائب ! ولكن لماذا يخاب هذا الحب . ولم يؤت ثمرته ؟ إنه متبادل إذا صبح ما سمعته من الشيخ على ، ومع ذلك يأبى إبراهيم أن يفض كتب شوشو إليه وإن كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار أو يمزقها . فكأن إبراهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما . ولكن بقية من الرقة أو الضعف أو الحنين الذى لم يغلب تغريه بالتجفط بهذه الكتب فما أقواه وأضعفه . وأقساه وأرقه . ومن أولى من ليلى أن تستخلص من هذا كله ما يحفل به من دلائل الحب المكتوم والوجد المغالب والكبرياء العصبية ؟

وأما أنه يحبها - أى ليلى - فهذا أيضاً لا يرتقى إليه الشك فما تخفى آيات الحب . وليست ليلى بالتي يلتبس عليها التصنيع بالاخلاص فقد جربت الدنيا وخبرت الناس وطوقت فى الأرض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنها . ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وإبراهيم ، ألم يقل لها إنها ستشقى بسببه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . وإذا كانت قد وطنت نفسها على الحرمان وآلت أن تخنق

حبها له من أجل شوشو فإن في ذلك سعادة لا تعدلها سعادة الحب الرخي المظمن . وهي التي قاست وتعذبت حقيقة ان يدركها العطف على أمثالها . وسيبقى لها حب إبراهيم تتعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل إذا اتصلت أسبابه بأسباب شوشو يظل تصبو إليها نفسه ؟ .

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الأنانية مخافة ان تطغى فتغنى على استعدادها للإيثار والتضحية ، وتعصف بعزمها على إنكار ذاتها . وأرعبها أنها بدأت تحس أن هذه ليست أنانية وأن الإخلاص للنفس واجب مقدم على الإخلاص للغير . وان الانسان لا يطالب بالإيثار إذا تقاضاه محق النفس . وأن هناك حدا معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وان الدنيا لا تزيد بذلك فردا سعيدا ولا تنقص واحدا شقيا ثم إنها لم تكن لها يد فيما كان فليست عليها تبعة ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع بالعيش بعد رد إبراهيم إلى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغي أن يكون لإبراهيم رأى في الموضوع ؟ أمى كل شيء وليس لإبراهيم وزن ؟ لماذا أعلن إبراهيم إلى قريبه أن ليلى زوجته إذا كان يشتبه أن يرتد إلى شوشو ؟ أليس في هذا دليل قاطع على أنه اراد ان يحسم الموضوع ومثل إبراهيم لا يرد خطاه ولا ينكص على عقبه ، وإنه لمن الطراز الذي يهون عليه أن يمشى إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى الناس فيه ضعفا أو يحسوا منه الحنين إلى ماضى نفسه عنه .

والشيخ على لاشك يعلم ذلك ، فلإنها ابرز صفات إبراهيم ، وإن كان لا يتوقع بها بل لعله لا يفتن إليها او يقدرها قدرها ، كالشلال الذى ينحدر بقوة الراغبة غير المحسنة ، واستراحت ليلى إلى هذا التشبيه وإن لم تخف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها إذا كان في وسع الشلال ان ينثني راجعا في تدفقه ، فإن في مقدور إبراهيم أن يكر إلى شوشو ، وقد يتلهف على هذه الكرة ، ولكنه لا يستطيع ، لأنه لا يريد بل

لأن الكرى ينافى طبيعته ، ولم يسر ليلى أن إبراهيم قد يشتاق ويتلهف إليها قلبه ولكنه لا يقدر أن يرجع . وأحست أن هذا لا يكون فوزا لها بل أمهانا لوجودها ، وأنكرت من نفسها أن يخطر لها أنها تقبل هذا الموقف ثم جعلت تسائل نفسها : ألا يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟

وزاحت تتصور أن إبراهيم لا يحبها ولكنه يتسلى بها ويتعزى ! وأن مزيها عنده أنه كان حقيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو ، وحز في نفسها هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض أن تصدقه ، وأبى لها احترامها لنفسها إلا أن تكرر إلى الثقة بإخلاص إبراهيم وصدق سريره في حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنفى كان من فضله مع ذلك أن شحذ عزمها على الوفاء بعهدا للشيخ على :

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

الفصل الثانى

«وقالت سارة : قد صنع الله لى ضحكاً»

حارت ليلى ماذا تصنع ، وكيف تفى بعهدىها للشيخ على أن تكون عوناً له فى سبيل شوشو ، وكثيراً ما كانت الوسوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها إن هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل وإنه ما من امرأة يجوز أن تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع أن ليلى اندفعت وهى مضطربة إلى بذل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروءة القلب ، وقد وسعها - وإبراهيم مريض - أن تحتفظ بهذا المستوى ، فلما عوفى إبراهيم وعادت إليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى ، بدأت الشكوك تخالجهما والشبه تدور بنفسها . وساعدها على ذلك أن إبراهيم صار أكثر صمتاً وأقل كلاماً . وأشد شروداً ، وأنها تحس ، وهى معه كأنه يذودها عن نفسه ، ويمنعها أن تطلع على ما يطرف برأسه . ويشعر - بصمته وجهامته - مثل شوك القنفذ ، فكانت تقول لنفسها «مالى أنا ولشوشو؟ لست أعرفها ولا انا رأيت وجهها ، فليس لها فى حياتى وجود ، ولا لها فى ذاكرتى محل ، إن هى إلا اسم - لم تبلغ حتى أن تكون خيالاً - أربعة حروف لا أكثر - أربعة حروف لا ترسم فى نفسى صورة ولا أجد لها فى ذهنى تخطيطاً . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد فى وجهى فجاج الحياة وتسود فى عيني نور الضحى فلماذا؟ من وهم أنا خالقه؟ أترانى أخشى أن يتلف قلب إبراهيم ، وأن ترده الصبوة إلى شوشو؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وأنه ليحبها ما فى ذلك شك - ولكن من أين جاءنى هذا اليقين؟ أمن أجل أن الشيخ على يزعم ذلك يكون هو الحق؟ وأن إبراهيم ليحببنى أيضاً - أيضاً؟ أقول أيضاً؟

واضيعتاه إذن ! بل هو يحبني وحدى ولى قلبه كله - كل لفتة وكل صبرة وكل حنة وخفقة . لى أنا وحدى وكيف يمكن أن يشرك بى غيرى ؟ لست مغرورة . ولقد فتحت الدنيا عينى جيدا - فتحتها حتى لا غمض لهما - فلو أن فى قلبه حبا لها - لشوشو - لأحسست الفتاة قلبه . . للمحت طيف هذا الحب فى عينيه . كلا . ليس على هذا العرش سوى .

ومن مناقضات النفس الإنسانية أن ليلى ربما ساءها وكرهها أنها وحدها التى تستوى على هذا العرش وأنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن ليس لها مزاحم ، فتعمد إلى غزلها فتنفذه لتثبت لنفسها أن لها شريكا ، بل إنها هى التى تجاهد لتزحزح شوشو وتخلى لنفسها مكانا إلى جانبها . وتحس أن هذه القدرة على العزل ثم النفص ، وعلى الإثبات ثم النفى ، قد أفادتها سرورا وإن لم تفدها راحة وسعادة .

ثم حدث ما قوى عزمها على ماوافق طبيعتها ويلائم مزاجها .

ذلك أنها كانت عصر يوم فى غرفتها تفكر فى ثوب تلبسه . فلما أعيهاها الاختيار نادت إبراهيم ليعاونها . وكان الباب بينهما مواربا كالعادة . فأقبل عليها يسألها ما الخبر ، وفى هذه اللحظة نقر الخادم على الباب فمضت إليه تفتحه فناولها خطابا فدفدت يدها ، ولكن يدها ظلت تدور حول الخطاب لا تقع عليه . وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذى يكسو الحائط وأحسست كأن الغرفة تدور بها وترجح أيضا . ولحت إبراهيم وهو مقبل عليها يسألها وفى وجه آية الفزع :

- ماذا جرى يا ليلى ؟ اجلسى .

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونته :

- إن لونها ممتقع جدا ياسيدى .

وقعدت ليلى على الكرسي ثم تنهدت وقالت : « كلا . لا شىء »

إن رسم الورق هو الذى أدار رأسى .

قالت ذلك كأنها تعتقد بإخلاص أن الرسم هو الذى أحدث لها هذا

الدوار لسبب غير مفهوم وعلة ليست بالواضحة . وذهب الدوار بأسرع
بما جاء فقالت باسمه :

— لقد انتهى كل شيء . أفقت تماما .

فقال إبراهيم : « ما أغرب هذا » وضحك .

وفتحت ليلى الخطاب في سكون ، وكان من الشيخ على ، الذى واظب
على الكتابة إليها كل بضعة أيام وأحيانا كل يوم بأسلوبه الموجز المضحك ،
ثم مدت به أصبعين إلى إبراهيم في صمت فقرأ فيه :

« متى أراك ؟ لا للشوق إليك فلا تغترى ! أما إبراهيم فلا أدري
لماذا جهد أن يشفى ؟ أو بعبارة أخرى لماذا تكلف أن يمرض مادام أنه لم
يكن ينوى أن يموت ؟ سليه بالله لماذا يعيش ؟ وأجبنى أو لا تجبني فانك
مثله أو شر منه » .

وفى ذيل هذه الأسئلة التى لا تستحق طابع البريد ، امضاؤه ، وهى
أغرب من الأسئلة ، فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجردا بل بهاتين
الكلمتين « الشيخ على » وإن كان كما عرف القارىء لم يحرض على
زى الشيوخ .

ولم تقل لإبراهيم أن هذا ليس بأول كتاب منه ، ولعلها لم تطلعه
عليه إلا لخلوه من كل إشارة إلى ما تأمرا عليه ، ولم يجر لإبراهيم
في بال أن هذا الكتاب حلقة في سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ
على إلى بلده ثم إلى الإسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف
الأمر عند هذا الحد .

وشاءت المقادير أن تتلقى ليلى بعد بضعة أيام كتابا آخر من الشيخ
على .

وكانت جالسة مع إبراهيم في الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية وكانا
قد طلبا الشاي وذهبا في انتظاره يتحدثان ، فتناولته بكف غير ثابتة

وجعلت تنظر إلى الخط الواضح على الظرف وتتأمل اسمها مكتوبا بالخط الجليل على خلاف بقية العنوان . فخيّل إليها أنه ليس اسمها بل اسم امرأة غيرها ولعله اسم فتاة غريرة حديثة عهد بالدنيا والحياة والحب والأنوثة الناضجة على الخصوص . وأحست أن رأسها يدور ويدور . ونظر إليها إبراهيم فأزعجه اصفرار وجهها واتساع عينيها وثبات حملاتها وأن حول جفونها مثل مدار الكهف .

واضطرب رأسها واختل توازنها وقالت : « هذا هو الدوار مرة أخرى ! أترى سيغمي على هذه المرة ؟ » .

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس إبراهيم إلى جانبها ، وتراه وهو يميل إليها وكأنه يتهيأ للوقوف ! وتفلت الخطاب من أصابعها إلى الأرض فصوبت عينيها إليه واتبعته نظرتها ! وهي تظن أنها تفعل ذلك عادة وإرادتها وكانت الأرض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها « سيغمي على هذه المرة . ولكن ينبغي ألا يحدث ذلك وعلى وجه الخصوص أمام كل هؤلاء الناس . وإبراهيم لا يزال ضعيفا فهل تره يقوى على حملي ؟ » . واضطربت رجلاها وإن كانت جالسة . وشاع في نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وبانتفاء كل اتزان فتمتمت في ضعف « أوه ! » .

— ٣ —

قال الطبيب بصوت رقيق : « لقد أغمى عليك . هذا كل ما حدث » . وتبين لها شيئا فشيئا إنها راقدة في سريرها في غرفتها . وأن ليس معها سوى الطبيب — على كرسي إلى جانب السرير — فرفعت عينيها إلى وجهه فألفته مشرقا وضاحا ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها .

فقالت : « ماذا ؟ » .

فقال : « ينبغي أن تكوني أشد عناية بنفسك . ولعله أولى بك أن تستريحى الليلة في فراشك »

فقلت وهى نحس أن كل مقاومة من جانبها قد زالت ، وأن استسلامها تام :

— أظن أنى حامل . . . و . . . يجب . . .

فقال الطبيب : « أوه ! هذه هى المسألة إذن ؟ » .

وعجبت لنفسها كيف وسعها أن تنطق بهذه العبارة فى بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب أهى زوجة إبراهيم أم خليلته بل لم تعبأ به ماذا عسى أن يظن . على أن الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئا ولم يعن إلا بالحالة التى أمامه ، فقال :

— حسن ، سرى . أظنك تستطيعين أن تجلسى الآن ، هيه ؟

وبعد نحو ساعة كان معها إبراهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل بتلك الحقيقة الضخمة التى تنطوى عليها انطواء حقيقيا لا مجازيا . لأنها لم تفض إليه بشيء مؤثرة أن تكتم الأمر حتى تفكر على مهل .

الفصل الثالث عشر

« في وقت المساء ، ذارع ، قبل الصبح ليسوا هم »

يا جمال المرأة ! إنه فتنة الحياة كلها مختزنة في كيانها الدقيق فما أعجب ألا يراه الناس كما يجب رؤيته ويحسوه كما ينبغي أن يحسوا ! بل ما أغرب أن يكون في الناس من يجنيه ! فهل يفعلون ذلك لفرط إحساسهم به ودقة إدراكهم له أو لعمى عنه وبلادة تقيهم وتحمي جلذهم أن يخترق ؟ وماذا ترى يعميهم ؟ أهى « العلوم » ؟ أم ترى الذى يضلهم هو « الفن » ؟ أم هى الفلسفة التى تغويهم وتميل بهم إلى الأرباب المزيفة ؟

لا ندرى ولا نظن أن هناك من يدرى ، وكل ما نعلمه أن ليلي كانت راقدة إلى جانب إبراهيم وإنما كانت تراقبه من خلال أهدابها الطويلة السوداء ، وأنه كان يجتلى في صقال عينها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التى لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الأرضية .

ولئىما ، خير أنه أحس أن اللثام عبث وباطل ، ولأنها فراشات تنساق إلى نار الجوع التى يحسها طاغية ، ومع أن ليلي جهدت أن تسقيه حتى تغثيه ، وأن تعطيه حتى ترضيه . فقد كان يتخيل إليه وهو مستلق إلى جانبها أنه يستطيع أن يرى الكون وأن يقدره ، مختزلاً في جسم جميل ، ولا يستطيع أن يستحوذ عليه ولا يدخل في مقدوره أن يجعل استيلاءه عليه تاماً كاملاً ، وكان هذا الشعور يكاد يحنه وكان يعنى نفسه بأن يسألها : « لماذا يعجز الإنسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء ما ينال ، شيئاً آخر يشتهى ويراغ ، شيئاً أفق وأمتع ؟ أهى طبيعة الحب الخبيثة الماكرة ؟ أم هذا سر المرأة وسحرها ؟ وتالله

ما أضال هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبة ! علوا وسفلا؟ ويا ليت من
يمكن يدى من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ؟

واسودت نظرتة ولمحت ذلك فسأله باسمه :

— قل ، قل حالا !

فقال بلهجة اليائس :

— ليس لى حيلة . بزغمتى هذا .

فمدت ذراعها البضه العارية وجذبت إليه وجهه وقالت :

— بل يجب أن تكون لك حيلة .

فقال وهو يتسم ابتسامة فيها من الرضى والمرارة معا :

— كل ذلك حلم . لا أنت حقيقة ولا هذا . ليلى !

فضمته إليها وهى تهمس فى أذنه :

— أوه ! أهذا كل شيء ؟

واغرورت عيناها بكرهها ، وإن كان ثغرها قد ظل يفتر ، وراعها

ما تضمه لهذا القاب الذى يدق .

— ويلى ما أحقرنى ! سامحيتى .

وحنا على عروس أهوائه يقبلها ويرد الدموع عن مقلتيها ، وهى تنهد .

وهو يشعر أن جوعه قد صعد إلى السماء وهبط إلى الظلال وحدث نفسه

أن قد صدق من قال إن الحب قوامه التطلع .

ونظر إلى وجهها مرة أخرى فألفاه ساكنا : شعرها على الوسادة

وعيناها مغمضتان وأهدأها برسلة على خديها ، فأهوى على كتفها وجيدها

يلثمهما فقالت :

— هل تعرف فيما كنت أفكر ؟

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

— فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبني سأ تزوجه يوما ما .

فقال بلهجة ساكنة :

— بل ستتزوجيني أنا يا فتاتي البلهاء .

وكان هذا ما تخشى أن تسمعه وإن كان مما تحب . فتكلفت البشر وقالت
تعاقبه وفي مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع :

— صحيح ؟ بدمتك ؟

قال : بدمتي !

قالت ملحة : أتعني ما تقول ؟

قال : نعم .

قالت : وتتجشم متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟

قال : أعدك .

قالت مسترسلة في حبثها :

— يا للحبيب الطيب القلب ، السخي النفس ، العريض الأمل !

وقريبا ؟ جددا ؟

قال : ليلي ! هل تسخرين مني ؟

قالت : كلا ! لست أسخر .

قال : إن هذه اللحظة رهيبة في حياتي . فأنصتي من فضلك . هل

توافقين على الزواج مني ؟

فرقص قلبها ولكنه هبط أيضا في صدرها . ثم هبطت نفسها وقالت :

— يا حبيبي المسكين هل جننت ؟

فقال : « إذن كنت تسخرين مني »

قالت وقد غيرت خططها بسرعة :

— هل أتزوجك ؟ أنا ؟ إنه يسألني !

قال وهو جائر ماذا يفهم :

— ليلي !

فلم تمهاه وقالت :

— هل تستطيع أن تتصور أن لا أتزوجك ؟

فابتسم وهو يقول :

— هل أستطيع ! ؟ كأتى كففت عن أن أتصور ذلك ؟

قالت : يا لغباء الحبيب ! وهو أديب أيضا !

قال : أعيدى على مسمى .

فأسرعت تقاطعه :

— إني أحبك ؟ لا شك فى ذلك ! هذا قرار لا رجوع فيه . فهل

نحبني أنت ؟

فاتكأ على ذراعه وقال :

— ابقى عينك مفتوحة فإنى أريد أن أنظر فيها

قالت وهى تهز رأسها :

— لا أستطيع .

ولمعت عيناها ورقص الضحك فيهما وهى تقول :

— إبراهيم ! شفتاك . . الأحمر !

فقبلها غير عابىء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت :

— هذه القبلة ناقصة . لم تبلغ كما لها .

فسألها ضاحكا : أنظنين هذا ، ولكن من أين علمت بكل هذا ؟

فشعرت أن سؤاله فتح لها بابا إلى إمضاء عزمها فقالت :

— لا تكن غيبا .

قال : أغيب أنا ؟

قالت : نعم يا حبيبي . هذا ما تعلمته فى السيارات وأنا عائدة إلى بيتى
بعد السهرات .

قال : ليلى !

قالت : نعم ولكنه علم لا خير فيه . ليس فيه حياة . لأنها لثامات لا تبعث الإحساس الجنسي .

فناى عنها قليلا وهو يحديق فيها ليتبين أجداد أم هازلة . وأيقنت من وقع كلامها فمضت تقول :

— نعم لثامات فائرة ليس فيها حرارة أو قدرة على الأعداء . من رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار — من أقوياء وضعاف — من ظرفاء وثقلاء — من مؤمنين وملاحدة — من ضباط وو . .

فصاح بها وقد عيل صبره :

— ليلى ! لا أحتمل هذا !

فقال بعناد : كذلك لم يكونوا يحتملون . أظن جمالى كان يتركهم مبهورين .

قال : حسبك ! أمسكى !

قالت : يا ملاكى العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع بوجهك ؟ أدركه إلى .

فقال متكلفا : أحارل أن أنسى ما ضحك هذا . ما أعطر شعرك !

فلم تدعه وقالت : الماضى لا ينسى . إنه أنا .

قال : لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .

فألقت إليه نظرة حافلة بالألغاز وقالت وقد اكتفت بإثارة شكوكه :

— يالك من غي ، سأقبل جبينك .

ووثبت إلى الأرض وخلفته شارد الذهن موزع اللب ، يتصور هذا

الماضى الذى أطلعت على فهرس كتابه ، ثم سمع صوت حرير فالتفت

فرأى قميصا يزل عن جسمها إلى البساط وهى تتناول قميصا غيره بأقل

ما يتصور من الاحتفال أو العجلة ، فصاح بها :

— ليلى ! اقسمى !

فأحسنت أنها تنتزع أحشاءها وهي تقول :

— ألم أقل لك انك غبي ؟ نعم اقسم بالله وكتابه :

— ٢ —

ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء — وهذا غريب .
ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريشما ترتدى ثيابها ، فخيّل
إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها
التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقايح ، وأن الحياة فنا —
أقوى فنونها — التثبيط — وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن
لا يحصى عددهم من الناس ولـكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعدك
أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار
أو الامتعاض أو الحجل . واننا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغى
الناس ، وإن خاتمة كل حياة الأسف والندم هما جبل ينمو معنا طالما
من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا ، وما أكثر ما نتوهمه
جبلًا رائعًا جليلاً ، وانه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ، ويعلو
الجبل أماننا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين
بالعيش ، ثم لانبث على الأيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا
ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس
وأودية السقوط ، ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا
نصنع غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهزم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف
أنسجتنا ونعي بالاصعاد فنقع على قبة مريحة وننظر إلى جداول الحياة
المنحدرة ، الحياة التي تظل تفرق ويظل وادها خصيبا وإن جففنا
نحن ونشفنا واحدا بعد واحد ، فنتعلل بذكرياتنا وتبدولنا هذه الذكريات
أجمل وأسبى من الحوادث التي ولدتها .

والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي ينحيل إلى المرء أن « الحياة » حدثت فيها بالمصادفة فإذا لم تكن هي الأصل - أو إذا كان هناك من يشق عليه أن يعدها كذلك - فلا أقل من أن نعرف بأنه ما من حدث إلا لها فيه أصبع غليظة ، وإن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على كل حال أن المصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم فقد كان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلي . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ؛ ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له في وهم أن يركزها حاجة إلى التصحيح ولا كانت وهي أنباته بالحياة الجديدة في أحشائها ، وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكيدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلي بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الإضراب عن التفكير في المستقبل مقيسا إلى الماضي ، ومع ترده وإشفاقه كاد حبه لها يطفئ على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادئ توسع في عينيه ماضيته العرف ، لولا أن ليلي مدت يدها فجأة فأنقلته .

وكان من المتفق عليه فيما بينهما أن الرحيل قد آن جدا ، فقد غاب عن أمه وابنه شهورا ، وعن عمله كذلك وإن كانت صلته به لم تنقطع إلا في فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلي - إلى الاسكندرية موطنها - على أن توافيه بعد ذلك في القاهرة . وفيما عدا ذلك لم تكن هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لأن ليلي كانت تتلفت وإبراهيم كان مضطربا .

وفي عصر اليوم الذى استعدت فيه ليلى للسفر فى مسائه دخل إبراهيم غرفته فلمح خطابا ملقى بغير عناية على مخدة السرير ، وكان الظرف مقلوبا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكده يقلبه ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما قرأ فيه :

— . . . نعم يا صاحبي . . . هذا آخر كل حب . . . اللال — الفتور . . . ولست أكتملك أنى مللت وأنى أصبحت أشعر بالفتور حين يناديني قلبك المضطرم . المستقبل كما ترى لأمل فيه ، ونخير لى ولك أن تقصر من الآن وما زالت فى القلب صبوة . . .

« . . . ولو أن حبك لم يحجب نظرك . . . أو أنك لم تسلم نفسك لعاطفتك واثقا من استجابتي لها مطمئنا إلى ذلك لما استطعت أن أخدعك عن حقيقة ما أظهر ولكنك حقيقة أن تظن إلى تكلفى . . . نعم كنت أتكلف . . . أتصنع الذوبان بين ذراعيك وأنت تضمينى وتعصرنى . . . أتصنع أن أبدوك كأن روحى كلها قد صارت على شفتى وأنت تمصنها وتعضها ، وأطأت من عينى وأنت تحديق فيها وتمسح لى شعرى . . . هى صناعة أتقنها يا صاحبي بالمرانة والتدريب فلا عجب أن خدعتك . . . »

ولم يستطع أن يقر أكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة وكان الاشمئزاز أقوى ما أحس ، ودار رأسه واسودت الدنيا فى عينيه وخيل إليه أن هذه ليست خيبة أمل فحسب ، بل أنها جنازة كل أمل وكل حلم وكل خير — بل جنازة النفس الإنسانية .

وبعد عراك عنيف استطاع أن يصد نفسه عن الاسترسال فى هذه الخواطر المقلبة ، فوضع الخطاب فى ظرفه وألقى به على المخدة . وشاءت المقادير أن يرتقى الظرف مقلوبا كما كان — أى أن تكون الكتابة الى أسفل ، وان يكون

طرفه المفتوح إلى أعلى ، ونهض وفتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظة إلى قاع هاوية ، ولبت كذلك لا يدري كم ، وإذا بالباب يفتح في خفة وهولاه بخواطره لا يشعر بما حوله ، ودخلت ليلى على أطراف أصابعها ، ورمت إلى السرير نظرة وإلى إبراهيم أخرى فوق من نفسها جموده وذهوله ومضت خفيفة إلى السرير فتناولت خطابها ودسته في صدرها وهي تحسب - لأنها وجدته كما تركته - أن إبراهيم لم يلتفت إليه .

ودنت منه وسألته في رقه « مالك ؟ » .

فسرت في بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

- لا شيء ! صداد بسيط .

ثم ابتسم سخرا من نفسه واحتقارا للعالم كلها ، فذولا عمق شعوره في هذه اللحظة بهوان الحياة ، لصفعها أوركلها أو بصق في وجهها .

- ٤ -

لما صارت ليلى في بيتها على شاطئ البحر في الرمل قالت للشيخ على في أولى زيارته لها :

- لقد تجوت ولما أكّد ، كان هذا الخطاب قسوة شنيعة - عليه وعلى أيضا ، فلما رأيته حيث وضعته لم تمسه يد حمدت الله وتشهدت .

فقال الشيخ على :

- وماذا كتبت في خطابك هذا ؟

فقرأت منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك لم يحجب نظرك الخ » فاندلعت النار في وجهها الأسمر وطوت الخطاب وهي تقول :

- كلا . لا أستطيع .. ولست أدري كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام ؟

فزام الشيخ على ولم يقل شيئا واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك

جبينه العريض بأطراف أصابعه ثم التفت إليها فجاءة وسألها :

— أوثقة أنت أنه لم يقرأ هذا الخطاب ؟

فأزعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تطمئن نفسها :

— كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؟

ثم أنه لم يشر إليه قط !

فهز الشيخ على رأسه وقال :

— لا أدري فما كنت معه . ولكنى واثق أنه اطلع عليه .

فأقبلت عليه تسأله : « هل كتب إليك ؟ هل فى خطاباتة إشارة ولو خفية ؟ .

فقهقه الشيخ على ثم قال :

— يا فتاتي البلاء لقد عاشرت إبراهيم كم شهرا ؟ ومع ذلك لا تعرفينه

كتب إلى حقا ؟ هو يكتب ؟؟ بل أجزم أنه قرأه . . وأن صداعه

كان تعمية .

ثم نهض وهو يقول :

— أخشى . . .

فسأله بلهفة « ماذا ؟ »

قال : « أخشى أن أكون قد جلبت عليك اجتقار ابراهيم ، لا أبالي أن

يكرهك ولكن الاجتقار ! الاجتقار ! »

القسم الرابع

« فعلت ورايت تحت الشمس
ان السعى ليس للخفيف ، ولا
الحرب للاقوياء ، ولا الخير للحكماء
ولا الفنى للفهماء ، ولا النعمة
للوى المعسرة ، لانه الوقت
والعرض يلاقينهم كافة » .

الفصل الأول

لأنه في الباطل يجيء ، وفي الظلام يذهب ، واسمه يغطي بالظلام

— ١ —

الأيام فيما يزعم الناس ، كفيلة بأن تعفى على كل شيء ، ولكن إبراهيم يقول — مغرباً ملغزاً — إنها قلما تستطيع أن تعفى على كل شيء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة . ولا ندرى ماذا يعنى على التحقيق ، ولكن الذى ندرى أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الأقصر ، تلقى كتاباً طويلاً من ليلي — هو الأول والآخر فيما نعلم — ولم يتلقه ، بل وجده على مكتبه في منتصف ليلة من ليالى أكتوبر ، وكان قد عاد متأخراً . فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى إلى مكتبته على عادته قبل النوم ، ففضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للخط — خط من يكون ؟ فإن الخط السورى على العموم أشبه بالفارسي — ولعل ذلك أثر من حكم الأتراك — وهذا أشبه بأن يكون خط امرأة ، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وإن كانت ذاكرته الخوانة لا تسعفه فن عساها تكون هذه الكاتبة ؟

ولم يشأ أن يترسل في الحدىس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة إلى الحس ، فقمعد وفض الكتاب فإذا هو ورقات عديدة مذيبة باسم « ليلي » .

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع :

— نعم هو خط ليلي . فما أسرع مانسيناه ! فإذا عساها تصنع في سورية وماذا تراها تقول ؟ ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يتسم فقرأ فيه :

« . . . ولا تكتب إلى من فضلك . فلنأى أستطيع أن أتصورك على أوضح مما تصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذى يتلقف الناس آثاره ! على أنى أظنك مشغولاً بالتأليف — أو هذا ما أرجوه ، فإنه أحلى فى نفسى من أن أعرف أنك لا تصنع شيئاً . وهذا محتمل وإن لم يكن مرجحاً .
« . . . لقد كان فهمى للحياة مغلوطاً وسلوكى فيها مضطرباً . وإنى الآن لا أدرك أن ضبط النفس — كبح القاب — هذا بمجرد أتم وأكمل ما يبلغه الإنسان ويقوى عليه .. » .

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء المجردة التى أقام بيته فوق رمالها الخائنة . وأحس بالبرد فزرز المعطف وقال لنفسه وهو يعود إلى الجلوس :
لقد سهرت ليلي النوم من جفونى لأول مرة فلنقرأ كتابها من أوله .
فقرأ بعد سطور :

« إن ذلك الفزع الشريد قد وجد مغرسه واهتدى إلى منبته — نعم وجدت ليلي التى ينبغى أن يتقرر عودها فى ثراها . وإنه لحلم ولا كالأحلام . وإن الأحلام فى عيني لجميلة ساحرة . بل أجمل من أن أظن أنى أقدر على إحتمالها وأنت بعيد عني لا تشاطرنى التمتع بها ، فأنت ترى أنك مازلت حيث أحللتك من نفسى فى الأقصر . ولكنك لا تستطيع أن تقدر سعادتي أو تجاربي مخلصاً فى أحلامها ، فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك . ثم أنك طماع ! وأظنك توافقنى على أن الطماع مضمّن للنفس . تعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد فلنأى أشعر أن الطماع لا محل له فى هذه البلاد الجميلة . فأرجو أن تكتب فى مذكرتك — إن كنت تفعل شيئاً من ذلك فى العادة — لنى أمنعك ، أحرم عليك ، أن تلحق بى هنا ! فيا للغرور ! كأنك لم تنسنى ! كأنى لا أخشى — بل لا أعلم — أن سخطك على قد محا صورتى من صدرك .. » .
وهنا هز إبراهيم رأسه وقال لنفسه :

« كلا ! لن تبرح ذهنى صورتك ، فإنك أقدر من نخدعنى وغشنى .

لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟ ؟ أما لو أنني عرفت خطها قبل أن أفتحه ! ولماذا تكتب إلى ؟ ألتقول إنها سعيدة منعمة ؟ ومالى أنا ؟ لا أراى أشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى أن تكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق- به .. أين .. ؟ أوه ! هنا فى الدرج - فى أى مكان .

وطوى الكتاب ورمى به فى الدرج ، ولكنه لم يتم بل قعد يدخن سيجارة بعد أخرى وقد أحس أنه هرم جداً كالجبال . وجعل يقول لنفسه فى تعليل هذا الشعور ، إن كتاب ليلى ليس سوى صدى فاطر لتجربة قديمة - تجربة مينة . والتجارب القديمة المينة هى ذخى الشيخوخة وإحدى خصائصها .

ثم قال لنفسه : « إن كتاب ليلى هذا لا يحرك نفسى لأنى ما عرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقى من نفسى . وإنما كانت دائماً فى نظرى رمزاً لذلك الظرف والرقعة الشيطانية - وغير ذلك مما يزيد الصقل الغربى ، وما أظنها كما تصف نفسها سعيدة أوراضية ، فإن رضاها الذى تحدثنى عنه أشبه بأن يكون عاطفة فهو زائل » .

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك فى حقيقة ما حوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض ما يترأى له فى حلم سينسخه النهار ثم أخذه النوم وهو قاعد وجاءت الخادمة فى الصباح تكنس الحجرة ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب ، لأنها رأته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيناً اتفق .

- ٢ -

بعد أن عادت ليلى من الأقصر إلى الاسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة فى الشهور الأولى فكربها ذلك وأزعجها مشكله ، وأفرعتها فضيحتة ولم تجرؤ أن تستشير أحداً من أهلها حتى ولا أختها وهى أصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فإن القىء وحده كفى بأن يفضح سرها ، وهبه لم يفصح له لأنه شىء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهى بعيدة عن

أعين الرقباء فإن السر سينظر يبرز على الأيام حتى لا يبقى سبيل إلى إخفائه ، وحدثتها نفسها في بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها أن تكتب إلى إبراهيم بالحقيقة فإنه أولى من تكاشفه بها وأحق الناس بالحرص على مستواها ولكنها خجلت وأحست أن هذه خليقة أن تعد إكراهاً أدبياً منها له على الزواج منها ، وهي قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطر لها أن تستشير الشيخ على فإنه أمين ناصح ، وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها إلى الاسكندرية ، ولكنها قدرت أن الشيخ على سبرى من واجبه - ومن حقها هي - أن يبلغ إبراهيم وأن يدعوها إلى واجبه - وهذا ما تكره وتأنف نفسه .

ولما أعيتهما الحيل وسدت في وجهها المسالك مضت إلى طبيب تعرفه وكانت تذهب إليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد أوشك أن ينتهى . فلم يطل انتظارها . وكان رجلاً كيساً ظريفاً يشعر مظهره أن في وسعك أن تعتمد عليه ففاجأته بقولها :
- لاني حامل ولا بد من الإجهاض .

فلم يبد عليه أنه دهش . وعجبت هي من اجترأها ، فأشار إليها أن تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو .
- هل لك أن تخبريني لماذا ترين الإجهاض أمرا لا بد منه إذا كنت حاملا ؟ .

فقالت : « هذا سهل . لأن أباه ليس زوجا لي ولا يمكن أن يكون زوجا لي » .

فقال : « إني آسف جدا . فلست أستطيع أن أجرى هذه العملية . لم أحاولها قط في السنوات التسع التي اشتغلت فيها طبيا . ثم إن أصول المهنة المرعية ... » .

فقاطعته. قائلة : « إني أعرف أصول هذه المهنة فقد كان أبي طبيباً كما تعلم . لا بأس . إذن دلي على رجل آخر موثوق به يستطيع أن يفعل ذلك ، واذكر أني لا أريد أن أقضى نحبي الآن وفي خلال هذا العلاج أو العملية » .

فقال باسمها :

— اهدهني . فما أظن من المحتمل أن تموت بذلك . إن البخطر إنما يكون من العدوى أو من الطبيب إذا كان من ذلك الطراز الذي يعيش من هذه العمليات ، وهذا الطراز يتفق غالباً أن يكون مسكراً وأن تكون يده غير متزنة على كل حال لا تفزعي . كم عمرك الآن ؟

قالت : « ستة وعشرون عاماً » .

قال : « إنك تبدين أصغر بكثير . على كل حال أظن الأطباء للذين يجرون أمثال هذه العمليات يقولون في العادة أنها ضرورية سواء أكانت كذلك أم لم تكن . فهل تسمحين لي بالكشف ؟ » .

ثم قال « لا أرى أن تتلكأى . إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الأرجح . وأعرف رجلاً كان زميلاً لي في الدراسة ، وقد سمعت أن طريقته علمية مضبوطة وقد لا يعجبك ولكنك تستطيعين أن تتصورى حال رجل لا يعالج إلا كل امرأة هستيرية — وهذا طبيعي في مثل هذه الأحوال ، فإذا شئت فلإني مستعد أن أصحبك . موافقة ؟ حسن إذن دقي لي التليفون غدا مساء لعلني أكون تمكنت من الاتفاق معه » .

وكان يوم العملية السبت — صباحاً . فعنيت بارتداء أبهى ثيابها وكانت تقول لنفسها :

— من يدري ؟ ربما صرت جثة بعد الظهر . فلا أكن في أحسن حالة . وتعطرت وانتقت من المناديل ما يواثم ثوبها فلما دخلها الطبيب قال :

— إنك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة .

وكانت تحس أنها ميتة ولكنها قالت :

— كلا يا دكتور هل نمضى ؟

وقال لها وهما فى سيارته :

— لا نخشى أن تموتى فلن تموتى . فإنك من ذلك الطراز السليم الذى
يحتمل أكثر من هذا بلا تأثير سىء . وسأكون قريباً منك ألاحظك وأعنى
بك — وليس هذا من أصول المهنة فى شىء ولكنى فى سبيلك أصنعه .

فشكرته وقالت :

— قل لى يا دكتور هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسألة زمناً طويلاً ؟

فقال : « على الأكثر عشرين دقيقة . وأنصح كطبيب بعدم التخدير
إذا كنت تعرفين أنكى تحتملين » .

فقالت : « كما تشاء يا دكتور » .

ثم قال : « لقد وصلنا . والآن فاذكرى أنى بجانبك . وأن المسألة كلها
ستنتهى بعد نصف ساعة .

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسى شىء يصرف المرء عن خواطره .
وكان الطبيب ممسكاً يدها فى حنوليشجعهما ، ودخل فتى وفتاة كلاهما
صغير جميل لا يتجاوز أحدهما السادسة عشرة فنظرت إلى الفتى كأنه
منقذها وكان يهودياً مشرق صفحة الوجه أزرق العينين وقالت للدكتور :

— يا دكتور . إن هذه الفتاة طفلة !

فقال : « نعم . لا حظت ذلك . آه هذا هو الدكتور افرام — الانسة

لىلى » .

ولم يرقها جمود وجه الدكتور افرام ، ولكنها اطمأنت إلى يديه
النظيفتين وقال الدكتور افرام :

— تفضلى .

وبدأ كل شيء يعوم في نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تذكر أن غرفة العملية نظيفة وأن المريضة جميلة ، وأنها أعطتها جنيها وأن وجهها نضح بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور أفرايم :

— لا تخافى يا سيدتى ، لقد نصح طبيبك بعدم التبنيح وله الحق .

فقالت ليلي للمريضة : « أتسمعين لى أن أمسك يدك » .

فقالت المريضة : « بكل تأكيد ، وهل أنا هنا إلا فى خدمتك ؟ »

وقالت لنفسها إن هذه الفتاة طيبة فسأنفحها بعطية أخرى .



وقال الدكتور نبيه : « هذا أنت ، قدانتهى كل شيء على مايرام وسأحققك الآن ، فنامى واستريحى ، وسأعود إليك بعد بضع ساعات لأرجعك إلى بيتك لقد كنت شجاعة . فأهنتك » .

فابتسمت له ليلي شاكرة ، وقالت لنفسها « ليس بى ذرة من الشجاعة وإنما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذى لم يترفع عن سماجة التنكيت على ثمن اللذة ! » .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة المريضة — بوجهها الصابح وقالت :

— أنتحسين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا .

وشرعت تخلع المريلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، وليلي تنظر إليها وتعجب بحسن قوامها ، قالت الفتاة مباهية :

— لقد أهدانيها حاييم .

فسألها ليلي : « ذلك الفتى الصغير ؟ » .

قالت « نعم ، كم تظنين عمره ؟ » .

ففكرت ليلي ثم قالت : « هو طفل » .

فقلت الفتاة ضاحكة : « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه ، وهو أيضا يحبني ، ولكن أمه . . أوه ، إنها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا وهو لا يعبأ بفقرى ، لكن . . أمه . . صعب » .

ولم يكن على وجهها ألم ، وهى تقص هذا ولا فى عينها أسف ، فلم تر ليلى أن من واجبها أن تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهى تفكر فى إبراهيم وتساءل نفسها أترأه يذكرها الآن ؟ وماذا يصنع لو علم ؟

— ٣ —

قال إبراهيم لنفسه فى الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد إلى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة :

— إن الليل عون للضعيف . لأنه يغير وجه الأشياء ، ولكن النهار يحلوها ويبيديها على حقيقتها ، فلا بأس الآن من العود إلى رسالة ليلى فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب إلى لتقول فقط أنها سعيدة ولتأمرنى بعدم اللحاق بها .

وكانت المرارة التى فى نفس إبراهيم من ذلك الضرب الأخرس الذى تعيى الإنسان العبارة عنه ، لاكتلك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكة الأطراف ، الوضاعة كالماس ، وكان إبراهيم رجلا ينقصه التواضع وإن كان ينقصه الكبر أن يكون به كبر ، على حد تعبير أبى فراس الحمدانى ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر ولا لىء تلقى تحت عيون الحنازير وكان يرص العبارة فوق العبارة الأخرى ويكظها جميعاً بشخصيته حتى لتحس أن الفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقله بخواجه هو ، وأزه لاسبيل لك إلى رأى أو إحساس فيما وراء هذا الكوم المكس من الآراء والإحساسات وأن عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح انثنى الى رساله ليلى ، ولم يخطئ ظنه ، ولو أخطأ لا اعتد

ذلك من ذنوب ليلي ، وكانت الرسالة طويلة وفيها خلاصة تاريخها منذ توفى والدها إلى أن رفعت عنها وعن أختها الوصاية وفيها تشرح كيف أغواها الوصي وعبث بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولي على مالها بعد أن بدد منه جانبها ليس بالقليل ، ولكنها لم تشر إلى الجنين الذي أعانها الدكتور نبيه على انتزاعه من بين أحشائها قبل مواعده ، وما الداعي إلى ذلك وقد تزوجها الدكتور نبيه آخر الأمر . إنه سر لا يعلمه سواه فيحسن ألا يتجاوز إلى غيره وما دام أنه هو قد دفنه ولم يحفله بعد ذلك ! فما أولاهما هي بأن تناساه .

وقال إبراهيم لنفسه : « يالها من فاجرة تتزوج رجلا ثم تكتب إلى بلامناسبة تقول أنها تحبني ! ولكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع الحرارة في القبل والعناق » .

وزادت مرارته قطرة — إذا كان إلى هذا سبيل .

الفصل الثانى

فليسمع ختام الامر كله

هى مقدمة الربيع ، وكل شىء هادىء والشجر كأنه مستح أن يظل متعريا وحوله الخضرة مهتزة زابية ، وكأنما هو يبذل أقصى ما فى وسعه ليكتسى ويخرج أوراقه النضيرة التى ستحجب أشعة الشمس التى أعانتها على الوجود وغذتها وأتمتها ، وقد خيل لابراهيم وهو يحيل عينه فى خضرة الارض ورونق السماء وصفاء الجو ، كأن بالازهار دهشة لهذا الدفء الجديد فى الدنيا ، فهى لا تزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز فى حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء انما يخادعها ويغالطها فى حقيقة الزمن ، حتى إذا اطمانت عاد فحمل عليها بقره وصره .

وكان ابراهيم قد عاد إلى ماري بقلب مثقل وعين نفاذة ونفس غير مرتاحة إلى اعتياض الذى هو أدنى من الذى هو أعلى وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته إلى الاسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها ، وأن يوسع دائرة عمله ، وعلم ابراهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة موموقة كذلك حدثته أمه فى صبيحة ذلك اليوم فى مستهل الربيع وزادت على هذا بعد أن قصت عليه ما اتصل بها :

« لقد كنت أفكر فيها لك » .

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها للاحظت سهومه وتحجر نظرتة وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئا مما عانى ابنها ، ولم ترموجبا للاحاح فى أمر لا جدوى فيه ولا طائل تحته ، وأوهمها

صمت ابراهيم أنه لا يزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كعهده مذ ماتت زوجته .

ولم يستغرب ابراهيم أن يتزوج الدكتور من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجية أن يتخطى الدكتور أختها سميحة ، وإن كان هذا كله قد حز في نفسه ، ولم يدهشه ما سمعه عن حب شوشو للدكتور ، وقال لنفسه لعل هذا الحب الذى يصفون أكذوبة أراضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامنا في زاوية من زوايا نفسها وهى لا تدرى ، وقد كآه هو - ابراهيم - يحب ثلاثا من النساء في وقت معا وهو مدرك لهذا التثليث ، فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهى غير مدركة لذلك . فيكون أحد حبيها طافيا على اللجة ويكون الآخر راسبا في قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن ابراهيم رجع عنده أن حب شوشو له هو ، لم يكن حبا لشخصه وإنما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ، ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ، ومدلولها الاشملى ، فمن السهل أن تتحول من شخص معين إلى شخص آخر معين ما دام كل منهما موافقا صالحا ، لأن العاطفة في هذه الحالة لا تكون حبا لفلان بالذات ، بل فورة نضج أنثوى تبغى الرجولة والسلام ، وبدا لابراهيم أن هذا التعليل أصبح وأسد ، فإن الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحويل - إذا صح هذا التعبير - والفتاة المصرية - في الأغلب والأعم - تذهب إلى الزوج وهى لا تحمل له حبا ، وإنما تحمل له نضجا جنسيا قابلا لأن يتعلق بشخصه إذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه الى نفسه وما أكثر ما يبدأ الزواج في مصر بلا حب . وليس بالتأدر أن يبدأ بمقدار من الكره الخفيف . ثم لا تلبث المعاشرة والاحساس بالواجب - احساسا درج كل

من الزوجين على توطين النفس عليه — أن يفضيا إلى ما يشبه الحب المتبادل وإن كان من العسير أن يسمى حبا لانتفاء امتحان الوسط واغرائه . وذلك أن المرأة الغربية يقبل عليها الرجال ويهجمون عليها وفي مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها وإغراء . ثم ينتهى الأمر بإيثارها أحدهم بعد أن تنخل عواطفها وخوارجها ، وتعرف أن هذا الاحد الذى تؤثره هو الذى تصبو إليه وتمثل فيه معانى الرجولة التى تطلبها أنوثتها .

وقد تخطىء في الغربة أو يدفعها ظرف غير الحب الى التمحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال ، وكان حبها لاشك في أنه لشخص معين ، أما أختها المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان ، والاختبار عندها في أضيق دائرة وقد لا يكون ثم اختيار بتاتا ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذى صهر الامتحان ومركزه الإغراء ، ولكنه ليس به ، وبين هنا كان إيمان إبراهيم بحب ليلي قويا وبخية أمله فيه عظيمة .

على أنه ما عثم أن انصرف عن ماري أيضا — انصرف عنها بسبب لا يصرف سواه لفرط ما أنطوى عليه من الشدوذ ، ذلك أنه قصد إلى دارها عصر يوم — بعد أن اتصل به زوج شوشو بأيام ، فقالت له الخادمة إنها مستلقية على سريرها فليدخل عليها إذا شاء ، فألفاها نائمة . هذا هو السبب ، والقارىء معذور إذا استغربه ولكن أعصاب إبراهيم كانت مضطربة مرتبكة ، فخرج وهو يقول لنفسه :

— إنه ليس ثم أبشع من منظر الانسان وهو نائم في فان النوم حالة ذهول ينبغي أن لا يطلع عليها أحد ، ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلادة حيال حركتها الدائمة ، ولقد حاولت أن لا أنظر الى ماري ولكنى كنت أسمع أنفاسها ولا أستطيع أن أحول عيني عن وجهها المتعب المكبود ، وقد كان هذا حقيقا أن يدفعني الى العطف عليها . ولكنى أحسست بعد برهة أن معين عطفي قد نضب ، وأنى لم أعد أعبأ أناثمة هي أم ميتة .

ولم يخبرها إبراهيم ولا حاول أن يلقاها ليشرح لها هذا ، لانه خشى أن لا تفهم فيبغضها ، وهو يكره أن يضطر أن يكره الناس .

— ٢ —

وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر الى سبحتها وتخالسه النظر :

— يا بنى ألم تفكر فى الاستقرار ؟

ولم تزد . كأنما كان هذا سؤالاً أخطره بها منظر حبات السبيحة وهى تتداولها بأصابعها : فنهض إبراهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :
— الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لان الانسان اشتى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئنا الى ما يتوقع ، فان الخيال لعنة — أو هو كذلك فى اعتبار أكثر الناس أو فى تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لانه مزعج مقلقل ، والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ، ويشعر أنه له ويصنبح ملكا لهذا البيت مشدودا اليه مقيدا به : والناس فى العادة يرتاحون الى هذا الشعور ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة . وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد الى جانبهم . نعم فإن الانسان إنما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لانه يريد أن يريح نفسه من مناعب الإحساس الجنسى : كأنما يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفى لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .
فنهضت وهى تتجتم بالدعاء له .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعدى ؟ صحرائى التى لا يلتقط الطير فيها حبا ولا يجاوب فى خرابها قلب قلبا . ولا يغيرها صيف أو شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟

كذلك كانت قديما وكذلك أبقاها الله . . . لي ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف في فيافها وجها مستعارا يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعا ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمي وأفحص فيه بعصاي وأدمدم كالذى يريد أن يرقبها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها المحل . واقد أعجب في الليالى القمرء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى ينجبها ضوءه وينام على صدرها المتموج - في مثل وشى الرياض تنفخ روحا وريحانا ، ويتداعى الطير على أيكها اعلانا ، وتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحيانا »

وقالت الرمال لي وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعا إذ أخبط في الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء !

« بودى لو تماسكت حياتى . وثبتت ذراتى . ولانت مواطئى لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لي فيما قضى به . . »

وهتف بي هاتف من جانب سائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :
« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا لانملك خلافه . وقانوننا لانستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت الا سواء . وهل تراك تملك من أمرك كثيرا أو قليلا ؟ »



« وهبت الريح بي كالمجنونة . فعدت وكأني أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط . وسفت الرمال في وجهى حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن ترجمنى ، وتسابقت زمامها إلى أذنى فوقفت مكاني لا أريه . وقلت لنفسي « ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف ! »

« فلت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة . وجعلت أفكر
في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء . ويختلط به الألم
والطرب . وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيئة
لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر ! ويا ليت من يدري ماذا
تصنع إذن ؟ أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في
إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناوات ما أخرجت
كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذررت لهذه الرياح ! » .
فهمست في أذنى الرياح :

« ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما
الاحساس والعقل ؟ والخصب والجذب . والصحة والسقم . واليأس والأمل ؟
والبكاء والضحك ؟

« فرفعت رأسى حائرا . وأدريت عيى واجما . ثم أطرقت مفعما ثم
نهضت أمشى »

« ودلفت بى رجلاى إلى المقابر فتخللتها إلى جددت فيه شطر من ماضى
وقعدت واسندت ظهري إلى حجارتها ، وأنا أقول لنفسى :

« الموت على الأقل راحة . فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت
الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد
هنا إلى جانب . . . »

« فخلص الى صوت من جانب القبر أن « لا » .

« قلت « كيف لا ؟ »

« واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

« قال الصوت : « لا » على التحقيق . ان لى هنا سنوات لا اعلم عددها ولعلها
أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل ايامى التى صارت كلها ليالى . أولعلها

كثيرة فما أدري وقد حجبت عني الدنيا ، ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت ؟ ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا ، وأنت على الأقل تذكرني فأبقى بذكراك . فلا تسلمني إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجبنا أحيانا من طوله . ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الأخير . وههنا في قبري — في حجرة أخرى — جد أعلى لي مسكين ، مسكين قد استوفى ميئاته جميعا ولم يبق منه شيء ! وليت أذكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . ولكن هيهات ! إنما يجدي الذكر من فوقها دون من هم في جوفها مثلي . »

قلت « ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءك ذلك ؟ »

قال الصوت « كلا ! سيان عندي أن تني لي أو لا تني : ومن العبث أن تتكلف لي الحفاظ فأنني بعد أن مت ، لا يسعني أن أوليك الشكر الذي تستحقه أو تنتظره . ولا التفت إلى وفائك أو غدرك ، وإني لأدري فوق هذا أنك لا تذكرني للذاتي بل لما طابت به نفسك فافعل ما بدا لك . ولا تعن نفسك بي من هذه الناحية . ولكن ابق لي رقعة صغيرة زاوية من ذاكرتك أفيد بها عدوبة البقاء . »

قلت « فاذا نسيتك كغيري ؟ »

قال الصوت « اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه ، وعسى أن يكون بعيدا . »

قلت « حسن . سأحيا من أجلك . وأتقى المهالك أكراما لك وضنا بك أن تلحق الاموات جدا ! »

قال الصوت : « اتفقنا . فالى الملتقى ! »

فسرت في بدني رعدة خفيفة ولم يسرني أن تقول « الى الملتقى » ونهضت

عن القبر ممتلئاً رغبة في الحياة . وضئنا بها وحرصنا عليها : وعدت
أدراجي إلى داري خفيفاً كأنما حططت عن كاهلي وقرا . جعلت أقول
في الطريق :

— نعم سأحيا من أجلها !

ولما أدركت المفتاح في الباب همس في أذني الشيطان اللعين :

— تقول من أجل من ؟

وقهقه !

فغاضني ذلك وأخرجني ايضاً . فأشحت بوجهي وأسرعت فدخلت
وأغلقت الباب في وجهه !

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com

• سرر من السلسلة •

- ١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
- ٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثاني)
- ٣- الغصن الذهبي (الجزء الأول)
- ٤- الغصن الذهبي (الجزء الثاني)
- ٥- كليله ودمنه
- ٦- ابن جبير
- ٧- في موكب الشمس
- ٨- هاملت
- ٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
- ١٠- الفنون الشعبية غير المعربة (المواليا)
- ١١- رمز الأفعى فى التراث العربى
- ١٢- التراث القصصى عند العرب
- ١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
- ١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
- ١٥- جماعة أبولو (الجزء الأول)
- ١٦- جماعة أبولو (الجزء الثاني)
- ١٧- الأساطير
- ١٨- ابراهيم الكاتب

رقم الإيداع : ٨٠١٦ / ٢٠٠٠

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا) *

قسمة اشتراك
إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاسم :
العنوان :
رقم التليفون :
حالة بريدية رقم : باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ :
التوقيع :

م	اسم السلسلة	موعد الاصدار	قيمة الاشتراك ٦ اشهر	قيمة الاشتراك سنة كاملة
١	أصوات أدبية	نصف شهرية	١٢	٢٤
٢	إبداعات	نصف شهرية	٦	١٢
٣	كتابات أدبية	شهرية	١٢	٢٤
٤	آفاق الترجمة	شهرية	١٢	٢٤
٥	آفاق الكتابة	شهرية	٦	١٢
٦	الذخائر	شهرية	٣٠	٦٠
٧	ذاكرة الكتابة	شهرية	١٨	٣٦
٨	مطبوعات الهيئة	شهرية	١٢	٢٤
٩	الدراسات الشعبية	شهرية	١٢	٢٤
١٠	عين صقر	شهرية	٦	١٢
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شهرية	٦	١٢
١٢	مجلة قطر الندى	نصف شهرية	١٦	٣٢
١٣	مجلة آفاق المسرح	فصلية	٤	٨
١٤	آفاق الفن التشكيلى	شهرية	٢٤	٤٨
١٥	الجوائز	شهرية	٦	١٢
١٦	آفاق السينما	فصلية	١٨	٣٦

ضع علامة (✓) أمام السلسلة التى تريد الاشتراك فيها فى المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ ش أمين سامى - قصر العينى - القاهرة

ت : ٣٥٦٤٨٤١ - ٣٥٦٤٨٤٢ - فاكس : ٣٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدى : ١١٥٦٢

شوشو فتاه يقول لك جسمها أنها ناهزت التاسعة عشرة ويشهد ..نديتها
وحر كاتها أنها لم تتجاوز السابعة عشرة . وهى ذات قامة معتدلة وجسم غض
ووجه صبيح متألق : ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل برفعها
مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول
من عمرها فى عزلة ، قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال الا أن يكونوا من ذوى
قرباتها الأدينين ، فلم تألف أذن عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها
مرسلة على سجينها ، وخلا كل ما فيها ولما من ذلك العمل الذى يدرّب الفتاة
عليه تنبيه الشعور بنفسها وتوقعها من الجاسس أن تأخذها عينه من فرعها إلى
قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عيناها بمزية : هى أن من
يراهما لا يحتاج أن يعدوهما أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يحتلى نفسها
وروحها وطبيعتها وجمالها .. مركزا . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق
أكثر مما فيه من الالتماع . تخدق « فيه » تخديقك « فى » بئر ، ولا ترنو « إليه »
كما ترنو « إلى » رسم .

**** معرفتي ****

me3refaty.maktoobblog.com